مطبوعات كتابي
يصدرها حلمي مراد

الترجمة الكاملة لتحفة
أناتول فرانس

الآلهة عطشى!

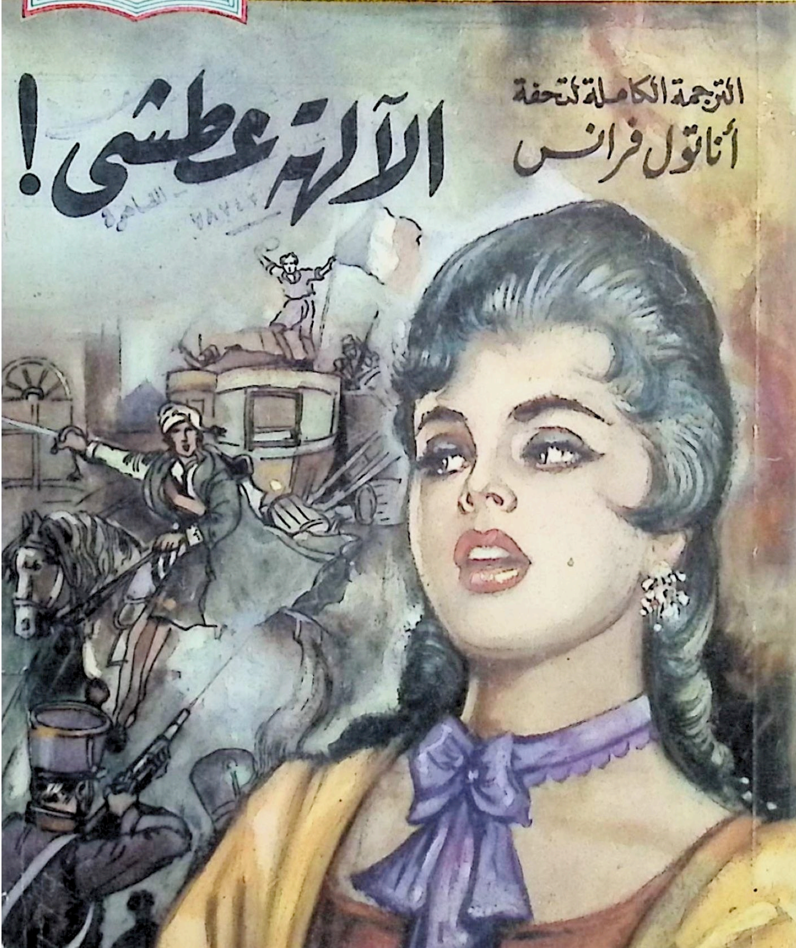

صلاح الدين يوسف
محاسب ومراجع قانوني
٢٧ شارع سليمان باشا ــ القاهرة
ت : ٧٨٧٤٢

أناتول فرانس :

الآلهة عطشى !

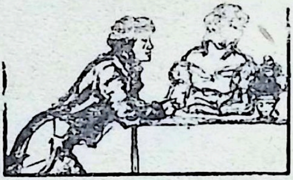

LES DIEUX ONT SOIF
PAR
ANATOLE FRANCE

الثمن ١٢ قرشا

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــا كتاب جـديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الآمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها أربعة وستون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الرابع والستون

الآلهة عطشى

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

ثورتنا البيضاء

من حقنا ، بل من حق ثورتنا علينا ، أن نقف فى عيدها العاشر لحظات ، عند الارتفاع الذى بلغناه .. **فنحن لانسير الى الامام فحسب ، بل نحن نسير صعدا الى الايام ، على سفوح المجد ، فى طريقنا الى الذروة ..**

ومن ارتفاعنا الحالى ، نطل على منبسطات الزمن .. لاالزمن القريب ، الذى بدأ بعمر الثورة فحسب، بل الأجيال والقرون المتعاقبة ، منذ بدء التاريخ .. **واينما سرحنا بصرنا ، لانكاد نجد ما يشبه ثورتنا ..**

وليس هذا من قبيل المغالاة او المبالغة ، او الغرور ، ولكنه من وحى الحقيقة الخالصة ..

لقد شبهوا ثورتنا يوما بالثورة الفرنسية .. فالثورة الفرنسية كانت انتفاضة على الملكية ، فى وقت كان العالم لايزال فيه يؤمن بأن للملوك حقوقا مقدسة .. **وكذلك كانت ثورتنا :** انتفاضة على الملكية ، فى وقت كان الشرق – والشرق العربى بوجه خاص – يرى فيه الملكية نظاما راسخا ، مسلما به ، تأصلت جذوره فلا سبيل الى اجتثاثه ..

وكانت الثورة الفرنسية هبة اباء على حكم فاسد ، استشرى فيه النفوذ الاجنبى .. **وكذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو ..**

وكانت الثورة الفرنسية نهضة الشعب للظفر بحقوقه التى اغتالها حكم قوامه الاستبداد والبطش والاقطاع .. **وكذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو ..**

حتى النتائج كانت تدعم هذا التشبيه .. فلقد بعثت الثورة الفرنسية صيحة الحرية توقظ الشعوب الغافلة فى اوربا ، وخارج أوربا .. **وقد بعثت ثورة ٢٣ يوليو صيحة الحرية فى الشرق - والشرق العربى بوجه خاص - والقارة الافريقية ..** وكانت ثورة العراق ، وثورة السودان ، من الاستجابات لهذه الصيحة ..

ولقد تحالفت الدول على الثورة الفرنسية ، فحاولت أن تخنقها بالحصار الاقتصادى ، وأن تقتلها بزحف الجيوش الاجنبية ، وأن تؤلب الشعب عليها بالأساليب الدنيئة .. بحرب الدعايات والاراجيف ؛ وبالمؤامرات والدسائس التى استغل فيها الامراء والاقطاعيون الذين هربوا من أضواء الحرية الى الخارج ..

وكذلك فعلوا بثورتنا ..

ومع كل هذا الشبه ، فان ثورتنا أعظم من الثورة الفرنسية ..

أعظم لأنها قامت وفى بلادنا - فعلا - قوات أجنبية ، لم تهبها ثورتنا أو تخشاها ، بل انها لم تلبث أن طردتها ..

وأعظم لأنها استعانت بالحب والتفاهم ، فلم تستحم فى الدماء ، ولم تلتف فى غلالات الارهاب ، كما فعلت الثورة الفرنسية ..

وأعظم لأنها اخذت ترفع صرحها - منذ البداية - على أسس من التخطيط ، وارساء القواعد المتينة ، فلم تصب بالنكسات ، ولم تتعرض للانهيار ، ولا للتنكر لمبادئها التى قامت عليها .. كما فعلت الثورة الفرنسية ، التى أوحت الى زعمائها بالغرور الذى أطاش صوابهم ، فبدلا من أن يدعموا مبادىء العدالة ، والحرية ، والمساواة ، اذا بهم -

فى العام الاول من عمر ثورتهم - يفرضون الارهاب والبطش .. واذا بهم - بمجرد أن تولى نابليون الامر - يتجهون الى الغزو والفتح باسم التحرير ، لينشئوا على ذلك امبراطورية استعمارية ، يحاول الفرنسيون اليوم جاهدين أن يتشبثوا بآخر أجزائها ..

ثم ان ثورتنا أعظم من الثورة الفرنسية ، من حيث ان الاخلاص للمبادىء ، والتفانى فى الرسالة ، والحرص على مصالح الشعب والوطن ، صرفت القائمين بالقيادة عن المصالح الشخصية التى فرقت بين قادة الثورة الفرنسية ، وجعلتهم ينقلبون بعضهم على بعض ، وينهش بعضهم بعضا .. فراح دانتون ، ومارا ، وروبسبيير ، وغيرهم ، لينفسح الطريق أمام المغامر الكورسيكى : نابليون بونابرت .

من هذا كله نرى الأدلة على أن ثورتنا بيضاء ..

ومن أجل هذا كله ستعيش ثورتنا ، وتنمو ، وتثمر ..

ولن تكون كالثورة الفرنسية التى يتنكر لها أبناؤها اليوم بعد ١٧٠ عاما فقط من قيامها .

ولعل الرواية التى نقدمها لك اليوم **((الآلهة عطشى !))** ، تعطيك صورة من الثورة الفرنسية على حقيقتها - كما رسمها الكاتب الفرنسى الاشهر **((أناتول فرانس))** - وأنت تنعم بمباهج العيد العاشر لثورتنا الموفقة الباقية ..

وكل عام وثورتنا بخير .. وتقدم .. وتوفيق .. ومجد !

المؤلف فى سطور

« **أناتول فرانس** » هو الاسم الادبى لقطب من اقطاب الادب الفرنسى الحديث ، هو « جاك أناتول ثيبو فرانس » ، الذى ولد فى باريس سنة ١٨٤٤ ..

كان من حظه أن ولد لصاحب مكتبة ، تخصص فى بيع الكتب والمخطوطات النادرة ، فأحب القراءة واقبل عليها .. وفى مدرسة « ستانيسلا » الجيزويتية ، بدا ميله للأدب الكلاسيكى القديم ، لا سيما مؤلفات « هوميروس » . ثم توفر على دراسة تاريخ العصور الوسطى وآدابها ، فنشأت لديه نزعة الاهتمام بالتاريخ .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره ، أهدى أبويه أول أعماله الادبية : « **أسطورة القديسة رادجوند** » ، ونشر اشعارا ومقالات ، وكتب لموسوعة « لاروس » الكبرى مقالات عن التحف الفنية القديمة . وكان أول كتاب ظهر له هو : « **دراسة عن الفريد دى فينى** » ، فى سنة ١٨٦٨ . ثم نشر بعض دواوينه الشعرية . ومالبث أن عين — فى سنة ١٨٧٦ — مساعدا لأمين مكتبة مجلس الشيوخ الفرنسى ..

وفى سنة ١٨٧٩ ، نشر مجموعتين قصصيتين : « **جوكاست** » و « **القطة العجفاء** » ، تجلى فيهما مدى تأثره بالكاتب الفرنسى « الفونس دوديه » ، والكاتب الانجليزى « تشارلس ديكنز » ، الذى ظل تأثيره عالقا به ، حتى لنرى خطوطا منه فى « **الآلهة عطشى** » .

وكانت أول قصة طويلة نشرها هى « **جريمة سيلفيستر بونار** » ، التى نشرت سنة ١٨٨٠ .. وفيها كشف عن طابع خاص ، فكانت مثالا للنثر المنغم ، الذى يحلق بالقارىء فى

أجواز الخيال .. وأتبعها فى سنة ١٨٨٥ ب ((**كتاب صديقى**)) .

والتحق « اناتول فرانس » بصحيفة « الطـــان » فى سنة ١٨٨٦ ، فما لبث أن تولى القسم الادبى فيها ، ونهج نهجـا مبتكرا فى النقد . وفى سنة ١٨٩٠ ، نشر ((**تاييس**)) فـكانت لبنة جديدة فى صرح شهرته ومجده الادبى . **وهى قصة غانية من الاسكندرية ، آلى راهب على نفسه ان يهديهـا الى التوبة .. فتابت وتردى هو فى هواها** . وتوالت بعد ذلك مؤلفاته .. ومن أهمها : ((**الزنبقـــة الحمراء**)) ـ عن الشهوة والغيرة ـ و ((**آراء جيروم كوانيار**)) و ((**بستان ابيقور**)) .

وانتخب « اناتول » فى سنة ١٨٩٦ ، عضوا فى « الاكاديمية الفرنسية » . ومالبثت قضية « دريفوس » ان شغلت الرأى العـــام ، فشغل بدوره بكشف فضيحتها ، واستغرق ذلك جهوده لبضعة أعوام ، وحفزه على وضع ((**التاريخ المعاصر**)) .

ولم يشغله الانتاج الادبى عن الخوض فى السياسة ، فنشر : ((**آراء اجتماعية**)) فى سنة ١٩٠٢ ، و ((**الكنيسة والجمهورية**)) فى ١٩٠٤ ؛ و ((**نحو أزمان أفضل**)) فى ١٩٠٧ ، ثم كتب تاريخ فرنسا الحديث فى قصص خرافية ـ على نمط فولتير ـ ضمها كتاب ((**جزيرة القطا**)) .

وفى سنة ١٩١٢ نشر ((الآلهة عطشى !)) . وكان قد نشرها ـ من قبل ـ فى حلقات بعنوان ((ايفاريست جاميـــلان)) ، بطلها .. وهى من أروع تحفه الادبية .

وقد حصـــل « اناتول فرانس » على جائزة « نوبل » فى سنة ١٩٢١ .. وكان عيد ميلاده الثمانون مناسبة احتفت بها الاوساط الادبية فى العالم بأسره . ولم تنقض عليهـــا ستة أشهر ، حتى توفى .. فى سنة ١٩٢٤ .

الفصل الاول

• بكر « ايفاريست جاميلان » الرسام ، تلميذ «دافيد» ، وعضو قطاع (بون نيف) – قطاع هنرى الرابع سابقا (١) – بالذهاب الى كنيسة البارنابيين العتيقة ، التى اتخذت منذ ثلاث سنوات – أى منـــذ ١٢ مايو سنة ١٧٩٠ – مقرا

(١) كانت باريس مقسمة الى قطاعات ، منها (بون نيف) ،، الجسر الجديد .

للجمعية العامة للقطاع (٢) .

وكانت الكنيسة تقوم على بقعة ضيقة ، معتمة ، بالقرب من الاسوار الحديدية لقصر العدل .. وقد أسدل الزمن ستارا من الكآبة على الواجهة التى كانت تتألف من طبقتين - على الطراز القديم - ازدانتا بدعامات بارزة ، فى أوضاع مقاوبة ، وبمباخر ومواقد من الفخار .. وكانت النقوش الدينية قد كشطت عن الواجهة ، وكتب - فوق الباب - بحروف سوداء ، الشعار الجمهورى : **« الحرية ، والمساواة ، والاخاء .. أو الموت »** .

ودلف « ايفاريست جاميلان » الى بهو الكنيسة .. كانت القباب التى شهدت قساوسة مذهب القديس بولس - فى مسوح الطقوس الدينية - وهم يرتلون الترانيم ، قد قدر لها أن تشهد الوطنيين ذوى القلنسوات الحمراء ، فى اجتماعهم لانتخاب أعضاء مجلس المدينة ، ولمناقشة شؤون القطاع .. وقد انتزعت تماثيل القديسين من محاريبها ، وحلت محلها تماثيل نصفية لبروتوس ، وجان جاك ، ولوبيلتييه (٣) .. وعلى الهيكل العارى ، وضعت وثيقة « حقوق الانسان » !

فى هذا البهو ، كانت جلسات الجمعية العامة تعقد علانية ، مرتين فى الاسبوع ، من الساعة الخامسة حتى الحادية عشرة . وكان المنبر - وقد زين بعلم الامة ذى الالوان

---

(٢) اقامت الثورة لجنة ثورية فى كل قطاع ، لها جمعية عامة تتألف من نواب منتخبين يمثلون أهل القطاع .

(٣) لوسيوس - جونيوس بروتوس : الذى قلب الحكم القيصرى فى (روما) . وجان - جاك روسو : الذى كانت كتاباته من بواعث الثورة الفرنسية . وجان جابرييل لوبيلتييه : من كبار كتاب فرنسا فى الربع الاخير من القرن الثامن عشر .

الثلاثة ـ يستخدم كمنصة للمتناقشين . وفى الجانب المواجه للمنبر ، أقيمت منصة من الاخشاب السميكة ، خصصت للنساء والاطفال الذين كانوا يفدون ـ فى جموع كبيرة ـ على هذه الاجتماعات .

***

وفى هذا الصباح . استوى المواطن الشيخ « دوبون » ـ النجار بميدان (تيونفيل) ، وأحد أعضاء لجنة المراقبة الاثنى عشر ـ امام مكتب ، فى أسفل المنبر ، وقد ارتدى قلنسوة حمراء و « الكارمانيول » (٤) . وكانت أمامه ـ على المكتب ـ زجاجة واكواب ، ومحبرة ، وكراسة اشتملت على نص الالتماس الذى كان يدعو المؤتمر (٥) الى ان يفصل الاعضاء الاثنين والعشرين الذين لم يكونوا جديرين بعضويته (٦) .

وتناول « ايفاريست جاميلان » القلم ، وسجل توقيعه ، فقال النجار الذى كان يشغل منصب القاضى : « كنت أعرف تماما انك ستسجل اسمك ايها المواطن جاميلان ، فأنت رجل صادق ، ولكن القطاع غير متحمس ، وينقصه الاخلاص وصدق النية . . لقد اقترحت على لجنة المراقبة ان لا تمنح شهادة « المواطن » الى أى امرىء لم يوقع الالتماس ! » .

---

(٤) معطف قصير شاع ارتداؤه فى عهد الثورة الفرنسية .

(٥) المؤتمر ـ أو الجمعية الوطنية كما يسميه بعض الكتاب ـ هيئة ثورية قامت فى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ ، لتحل محل الهيئة التشريعية فى فرنسا . وهى التى أعلنت قيام الجمهورية ، وقضت بالاعدام على لويس السادس عشر ، وسحقت العناصر الملكية ، ودحرت الدول الأوربية التى حاولت غزو فرنسا لاعادة الملكية .

(٦) النواب الجيرونديون الذين عارضوا المذابح ، وأبوا التصويت باعدام الملك ، وكانوا يرون الاصلاح بدستور يقيد سلطان الملك .

فقال جاميلان : « اننى على استعداد لأن اوقع بدمى حكم الاعدام على الخونة المتحالفين . لقد ابتغوا موت «مارا» (٧) ، فليهلكوا هم ! » . ورد « ديبون » الشيخ قائلا : « ان الذى يضيعنا هو روح عدم الاكتراث . ففى قطاع يضم تسعمائة مواطن لهم حق التصويت ، لاتجد خمسين يحضرون الاجتماع . لقد كنا فى أمس ثمانية وعشرين ! »

وقال جاميلان : « اذن ، فمن الواجب ان نجبر المواطنين على الحضور ، بفرض غرامة ! » . فهتف النجار مقطبا جبينه : « هه ! هه !.. لو انهم أتوا جميعا ، لكان الوطنيون أقلية بينهم .. هل لك – ايها المواطن جاميلان – فى كأس من النبيذ فى صحة الطيبين الذين بلا سراويل ؟ » (٨) .

وكنت تقرأ على حائط الكنيسة – الى جوار آيات الانجيل – هذه الكلمات يصحبها رسم اسود ليد تشير اصبعها السبابة الى الردهة المفضية الى الاورقة : « اللجنة المدنية » ، « لجنة المراقبة » ، « لجنة البر والمعونة » . وقبلها ببضع خطوات ، كان المرء يصادف باب المخزن الذى كان مخصصا – من قبل – للمخلفات المقدسة ، وقد علته هاتان الكلمتان : « اللجنة العسكرية » . فدفع « جاميلان » هذا الباب ، واذا بسكرتير اللجنة منهمك فى الكتابة ، على نضد كبير ازدحم بالكتب والاوراق ، وسبائك الفولاذ ، والقذائف (الخرطوش) ، وعينات من تراب البارود .

– سلاما أيها المواطن تروبير .. كيف أنت ؟

– انا ؟.. فى ابدع حال !

---

(٧) جان – بول مارا : من زعماء الثورة ، وقد حرض على مذابح سبتمبر ١٧٩٢ ، وفرض عهد الارهاب ، ثم اغتالته « شارلوت كورداى » سنة ١٧٩٣ .

(٨) الذين بلا سراويل ، ترجمة لمصطلح «السنكيلوت» ، الذى سنستعمله طوال الرواية .. وهو لقب اطلق على الثوريين من العامة ، اذ ذاك .

وكان سكرتير اللجنة العسكرية « فورتونيه تروبير » يبدى هذه الاجابة عينها - بلا تغيير - لمن يتساءلون عن صحته ، لا لينبئهم عن حاله ، وانما ليقتضب كل حديث فى هذا الامر . وكان فى الثامنة والعشرين من عمره ، جاف البشرة ، قليل الشعر ، احمر الوجنتين ، محدودب الظهر .. وقد كان يمتلك دارا عريقة فى القدم لصنع العدسات البصرية - فى (كيه ديز اورفيفر) - نزل عنها فى سنة ١٧٩١ لعامل كهل ، كى يفرغ الى مهامه فى بلدية باريس . وقد اورثته عينيه الجميلتين ، اللطيفتين ، الزاخرتين بالعاطفة ، وشحوبه ، وحياءه .. **اورثته كل هذا أم فاتنة ، ماتت فى العشرين من عمرها ، وظل بعض المسنين فى الحى يحتفظون لها باعذب ذكرى** .. كما ورث نفسا عادلة ، مثابرة ، عن ابيه الذى كان اخصائيا فى صناعة عدسات الابصار ، وكان يوفر للملك حاجته منها ، وقد أودت به علة زوجته قبل ان يبلغ الثلاثين .

وقال « تروبير » ، دون ان يكف عن الكتابة : « وانت أيها المواطن .. كيف حالك ؟ »

- بخير .. هل من جديد ؟

- ابدا .. لا شىء . كل شىء هادىء هنا ، كما ترى .

- والموقف ؟

- الموقف باق على حاله دائما .

كان الموقف داعيا الى الانزعاج . فقد كان أبدع جيش للجمهورية محاصرا فى (ماينس) ، وكانت (فالانسيين) محاصرة ، وقد استولى « الفانديون » **(٩)** على (فونتناى) ،

---

(٩) اشعل اشراف مقاطعة (فانديه) ورجال الكنيسة فيها نار حرب أهلية لصالح الملكية .

.. وكانت (ليون) ثائرة ، وجبال (السـيفين) حافلة بالقلاقل ، والحدود مفتوحة للاسـبانيين ، وثلثا المقاطعات بين مغزوة ومتمردة ، وباريس تحت مدافع النمسـويين ، بلا مال ولا خبز !

وواصل « فورتونيه تروبير » الكتابة بهدوء ، فقد كانت القطاعات مكلفة بأمر من مجلس الادارة ـ « الكومون » ـ (١٠) بحشد اثنى عشر الف رجل للقتـال الدائر فى (فانديه) ، فانهمك « تروبير » فى اصدار التعليمات الخاصـة بتجنيد وتسليح القوة التى فرض على (بـون نيف) ـ التى كانت تدعى (هنرى الرابع) سابقا ـ تقـديمها . وكان لابد من تخصيص كافة البنادق ـ ذات الرصاص ـ الى جنـود الجيش الرسمى ، أما رجـال الحرس الوطنى فى القطاع ، فكان لابد من تسليحهم ببنادق الصيد والحراب .

***

ووضع فورتونيه تروبير قلمه ، وقال : « اذهب اذن الى المؤتمر ـ ايهاالمواطن ايفاريست ـ واطلب موافاتنابتعليمات لحفر ارض الاقبية ، وغسل التراب وتحليله ، للحصـول على ملح البارود . فليس يكفى ان تكون لدينا مدافع ، بل لابد من البارود كذلك ! »

وولج مخزن المخلفات المقدسة السـابق ، أحدب ضئيل الجسم ، وقد دس قلما خلف اذنه ، وحمل ورقا فى يده . ذلك كان المواطن « بوفيزاج » ، من رجال لجنة المراقبـة . وقال : « ايها المواطنان ، لقد تلقينا انبـاء سيئة . فان « كوستين » قد أجلى عن لاندو » .

---

(١٠) هيئة ثورية أقيمت فى باريس فى ١٠ أغسطس ١٧٩٢ ، وكانت اقوى اداة لدعاة الارهاب .

فصرخ جاميلان : « ان كوستين خائن ! »

وقال بوفيزاج : « ستقضى عليه المقصلة ! »

فقال « تروبير » بصوته المتحشرج قليـــلا ، يشرح رأيه بهدوئه المعهـــود : « **ان المؤتمر لم ينشىء لجنة للأمن العام عبثا . فلسوف يفحص مسلك كوستين هناك ، وسواء كان غير كفء أو كان خائنا ، فسيعين فى مكانه قائد يعقد العزم على النصر .. هذا ما سوف يكون !** »

وقلب الاوراق ، واجرى خلالها بصر عينيه المكدودتين ، ثم قال : « لكى يؤدى جنودنا واجبهم بدون مشقة ولا معوق، يجب ان يعرفوا ان الاهـــل — الذين خلفوهم فى بيوتهم — يتمتعون بالامان والطمأنينة . فاذا كنت على رأيى هـــذا ، ايها المواطن جاميلان ، فعليك بأن تطالب معى — فى الاجتماع القادم — بأن تتعاون « لجنة البر والمعونة » مع « اللجنـــة العسكرية » على مساعدة الاسرات المحتاجة ، التى يكون لها اقرباء فى الجيش » .. وابتسم ، ثم غمغم : « هذا ما سوف يكون .. لسوف يكون ! »

لم يكن هذا السكرتير المتواضع للجنة بأحد القطاعات ، والذى كان يشتغل اثنتى عشرة ساعة ، بل اربع عشرة ساعة فى اليوم ، أمام نضد من الخشب الابيض ، لدفع الخطر عن وطنه .. لم يكن يرى شيئا من عدم التناسب بين ضخامة الواجب المفروض وضآلة الوسائل ، بل كان يشـــعر بأنه مندمج فى جهد مشترك بين جميع المواطنين ، وانه جزء من جسد واحد يمثل الامة ، وان حياته قد اندمجت فى حيـــاة

شعب كبير . كان من اولئك الذين يعدون العـــدة بعد كل هزيمة ، لنصر مستحيل يرون فى تحمس وصبر ان لابد من تحقيقه . وكان لابد لهم من النصر .. فان هؤلاء الرجال المغمورين الذين قوضوا الملكية ، وقلبوا نظام العالم القديم ، من امثال « تروبير » هذا ـ صانع عدســـات الابصار ـ و « ايفاريست جاميلان » هذا ، الرسام النـكرة .. هؤلاء الرجال المغمورون ، لم يكونوا يتوقعون من اعدائهم رحمـة ما !.. ولم يكن امامهم سوى ان يختاروا بين النصر والموت فحسب .. ومن هنا كان حماسهم وتحفزهم !

الفصل الثانى

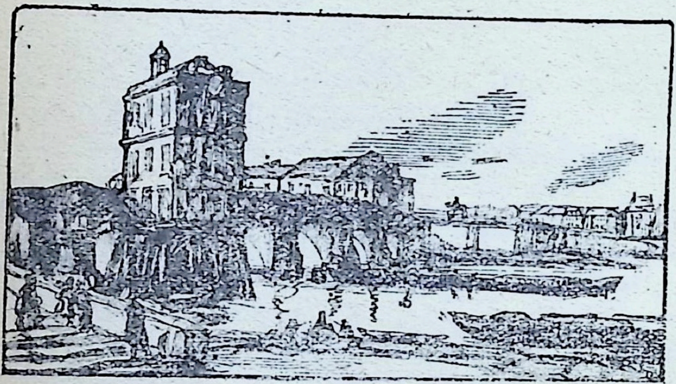

• **ما ان** غادر «ايفاريست جاميلان» كنيسة البارنابيين، حتى سار نحو ميدان ولى العهد ، الذى بات يدعى (ميدان تيونفيل) ، تكريما لمدينة منيعة صامدة .. وكان هذا الميدان يقع فى أشد احياء باريس ازدحاما ، ومن ثم فانه فقد ـ منذ قرابة قرن ـ حسن نظامه وتناسقه . فاذا القصور التى اقيمت على جوانبه الثلاثة ـ فى عهد هنرى الرابع ـ وشيدت على نسق واحد ، بالآجر الذى تتخلله سلاسل من الطوب الابيض ، لتكون مقارا لكبار رجال الدولة من ذوى الابهة .. اذا هذه القصور تستبدل أسقفها الاردوازية الشماء ، بطابقين أو ثلاثة من المساكن البائسة المبنية بالجص (الجبس)

.. واذا ببعضها يهدم عن آخره ، لتحل محله – فى غير ما احتفال – بيوت طليت بالجير طلاء زريا ، ولم تؤت سوى واجهات بائسة ، قذرة ، غير متناسقة ، تتخللها نوافذ لا حصر لها ، غير متساوية وضيقة ، تحمل أصص الزهور ، واقفاص العصافير ، وغسيلا نشر ليجف . **وهنا كان يقطن حشد من الصناع ، وصاغة الحلى والمجوهرات ، والنقاشين ، وصناع الساعات وعدسات الابصار ، والمشتغلين بالطباعة ، وباعة الاقمشة ، والحائكات ، والغسالات ، وبعض المسنين من رجال القانون الذين لم يصيبوا مغنما فى فوضى العدالة الملكية .**

وكان الفصل ربيعا ، واشعة الشمس الفتية تنسكب فى رفق كنبيذ خفيف ، فتنعكس على الجدران ، وتنساب مرحة الى المخادع المتواضعة . وكانت مصاريع النوافذ – المصنوعة من أخشاب متعارضة ، بشكل المقصلة – قد رفعت جميعا ، وبدت تحتها رؤوس ربات البيوت بشعور مشوشة .

وغادر كاتب محكمة الثورة بيته ، ليسعى الى عمله ، مربتا – فى سيره – وجنات الاطفال الذين كانوا يلعبون تحت الاشجار .. ومن ناحية (بون نبف) كان الصياح يسمع معلنا خيانة « ديموريه » الخسيس ! (١١)

وكان « ايفاريست جاميلان » يقيم فى ناحية (كيه دولورلوج) ، فى بيت يرجع الى عهد هنرى الرابع ، وقد ظل محتفظا بقسط كبير من مظهره ، فيما عدا طابق صغير أقيم من القرميد – تحت السقف الاعلى – فى عهد الطاغية

---

(١١) الجنرال شارل – فرانسوا ديموريه : كان قائدا مظفرا ، كسب عدة مواقع ، ثم أعفاه « المؤتمر » من القيادة ، فنقم على الثورة ، وانضم الى أعدائها ، وباع نفسه للانجليز .

السابق على الاخير . وقد أقيمت كثير من الجــــدران والحواجز ، لتهيئة المسكن الذى كان لبرلمانى ســـابق يوما ، ليناسب اسرات التجار والصناع متوسطى الحال . ومن ثم قدر للمواطن « ريماكل » ـ البواب والحائك ـ ان يقيـــم فى مسكن حشر بين طابقين من طوابق المنزل .. مســـكن اقتضب ارتفاعه بقدر ما اقتضب عرضه . وكان « ريماكل » يشاهد فيه ـ خلال الباب الزجاجى ـ وقـــد جلس عاقدا ساقيه على منضدة العمل ، وقفاه الى السقف ، وهو يقص حلة للحرس الوطنى .. فى حين تكون المواطنـــة ريماكل ـ التى لا مدخنة لموقدها سوى بئر السلم ـ ماضية فى تسميم السكان بدخان طبيخها ومقلواتها .. والصغيرة «جوزفين» ـ ابنتهما الجميـــلة ، التى كانت فى اشراق النهـــار ، والتى كانت دائما ملطخة بالعسل الاسود ـ منهمكة فى اللعب مع « موتون » ، كلب النجار ..

ولقد أونيت المواطنة « ريماكل » بســـطة فى القلب ، وفى البطن ، وفى الكليتين ، وعرف عنها انها كانت تغدق أفضالها على جارها المواطن الشيخ « دوبون » ، أحد الاعضاء الاثنى عشر للجنة المراقبة . على ان زوجها كان محتدم الشكوك ، ومن ثم كان الـــزوجان « ريماكل » يملآن البيت بضجيج يتناوبانه فى مشاجراتهما وصلحهما . أما الطوابق العليا من المنزل ، فكان يشغلها المواطن شابيرون الصائغ ـ الذى كان حانوته فى (كيه دولورلوج) ـ وموظف فى الصحة ، وأحـــد رجال القانون ، وصـــانع للحلى الذهبية ، وكثير من موظفى دار العدالة .

***

وصعد « ايفاريست جاميلان » السلم العتيق الى الطابق

الرابع والاخير ، حيث كان بمرسمه وغرفة امه . وهنـاك ، انتهى الدرج الخشبى المطعم بالبـلاط ، الذى كان يتلو الدرجات الحجرية العريضة المقامة فى الطابقين الاولين . وكان ثمة سلم متنقل ، أسند الى الجدار ، ليقود الى طابق ضيق منخفض تحت سقف الدار . ومن هذا الطابق ، هبط - اذذاك - رجل بدين طاعن السن ، ذو وجه جميـل متورد مزدهر ، كان يضم بين ذراعيه بعناء ، حزمة هائلة ، وهـو يهمهم - برغم ذلك - متغنيا : « لقد اضعت خادمى ! »

وتوقف عن الغناء ، ليلقى - فى ادب - بتحية الصباح الى « جاميلان » الذى حياه فى اخوة ، وسـاعده على انزال حزمته . فأبدى الكهل له امتنانه ، ثم قال وهو يعود فيرفع حمـله : **« هذا الدمى التى صنعتها ، وسـأحملها الى تاجر للعب بشـارع (ديلالوا) .. انها شعب كامل .. انها مخلوقاتى ، وقد حظيت منى باجساد قابلة للفناء معفاة من الشعور بالفرح والالم . فأنا لم امنحها فـكرا ، لأننى اله طيب ! »**

ذلك كان المواطن « موريس بروتو » ، محصـل الضرائب القديم ، والنبيل السابق .. وقد اغتنى ابوه من الاحزاب ، واشترى لقبا بثمن بخس . فكان موريس بروتو يدعى - فى أيام الرخاء - السيد « ديزيليث » ، وقد اعتاد ان يقيم فى داره ، بشارع (ديلا شيز) ، مآدب عشاء فخمة ، تنيرها عينا « مـدام دى روشـمور » الحسناء .. زوجـة احد الوكلاء القضائيين . وكانت امرأة بكل ما فى الكلمة من معان ، لم تفقد من خلة الوفاء الكريم قدر ما فقد « موريس بروتو ديزيليت » - بسبب الثورة - من مناصـبه ، ودخله ، وقصره ، وأراضيه ، واسمه .. فلقد أعفته الثورة من كل

هذه ،وصار يكسب عيشه برسم اللوحات تحت الابواب ذات الاقبية ، وبصنع الفطائر والعجين المقلو (نوع من الحلوى) على رصيف (الميجيسيرى) ، وبنظم الخطب لممثلى الشعب ، وبتلقين المواطنات الشابات دروس الرقص . أما الآن ، فقد باتت ثروة موريس بروتو — فى جحره الذى كان المرء يتسلل اليه على سلم متنقل ، ولا يملك ان يقف فيه منتصب القامة — قدرا من الفراء ، وحزمة من الخيط ، وصندوقا للالوان المائية ، وبضع قراضات لقص الورق .. وكان يصنع دميا يبيعها لتجار الجملة المشتغلين بتجارة اللعب ، فيبيعونها بدورهم الى الباعة المتجولين ، الذين يطوفون (الشانزليزيه) بها ، وقد علقوا الى اطراف اعواد من الخشب ، تلك الاشياء البراقة التى يهفو اليها صغار الاطفال . وكان فى غمرة الاضطرابات العامة والمحنة الكبرى — التى كان هو بالذات يتردى فيها — يحتفظ بروح صافية . فقد كانت سلوته الوحيدة هى قراءة ديوان « لوكريس » (١٢) الذى كان يحمله ابدا فى جيب سترته « الردينجوت » البالية !

***

ودفع « ايفاريست جاميلان » باب مسكنه ، فانصاع له الباب على الفور . اذ ان فقره اعفاه من ان يشغل باله بالاقفال . فاذا ما دفعت امه الرتاج — بحكم العادة — قال لها : **« وما جدوى ذلك ؟.. ان احدا لا يسرق نسيج العنكبوت !.. كما ان لوحاتى ليست ذات نفع ! »**

وفى مرسمه ، كانت اللوحات تتراكم تحت طبقة سميكة

---

(١٢) لوكريس : شاعر لاتينى ، ولد فى (روما) سنة ٩٥ قبل الميلاد . وقد نظم ديوانا فى « طبيعة الأشياء » ، وكان من رسل المادية الابيقورية .

من الغبار ؛ او تستلقى مرتكنة الى الجدران ووجوهها اليها .. لوحات رسمت فى بداية عهده بالفن ، وفقا لما كان شائعا اذذاك ، وقوامها مناظر للشجاعة رسمت فيها – بريشة ناعمة متردده – جعب السهام الخاوية ، وطيور محلقة ، ومغامرات خطره ، ورؤى خيالية للسعادة .. وازدحمت بحارسات الاوز ، وقد ازدانت صدور الراعيات بالورود .. ولكن هذا النمط لم يكن يناسب مزاجه ، ومن ثم فان التزمت الذى عولجت به هذه المناظر ، نم عن طهر وبراءة لاخلاص له منهما . وما كان هواة الفن ليغفلوا ذلك ، فان « جاميلان » لم يعتبر يوما ممن يجيدون رسم المناظر المثيرة للغرائز . ومع انه لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره ، فان هذه الموضوعات كانت تبدو له وكأنها ترجع الى عهد لا تكاد تعيه الذاكرة . وكان يلمس فيها حطة العهد الملكى ، والاثر المخزى الذى أحدثه فساد البلاط الملكى ؛ فكان يلوم نفسه اذ اتجه الى هذا النوع الحقير ، فساهم بنصيب مهين فى فن العبودية !

أما وقد أصبح مواطنا فى شعب حر ، فقد أخذ يرسم بالفحم لوحات قوية تمثل الحريات ، وحقوق الانسان ، والنظم الدستورية الفرنسية ، وفضائل الجمهورية ، والهراقلة – من ابطال الشعب – وهم يقضون على أفعى الاستبداد والظلم .. **وكان يودع هذه الاعمال جميعا ، كل ما اوتى من وطنية متأججة ، ولكنه – واأسفاه ! – لم يكن يكسب منها عيشه ، فقد كان الوقت سيئا بالنسبة لأهل الفن** . وما من شك فى ان ذلك لم يكن ذنب المؤتمر الذى راح يقذف بالجيوش – من كل صوب – فى وجه الملوك .. والذى مزق نفسه بيديه ، وقسا على نفسه وغدر بها ، فى

تصميمه الأبى العنيد على الصمود فى وجه أوربا المتآمـــرة المتعصبة .. والذى جعل الارهاب دستور حــكمه ، فاقام لمعاقبة المتآمرين محكمة لا ترحم ، حتى اعضاءها أنفسهم فلم تلبث ان تهشتهم .. والذى كان – فى الوقت ذاتــه – هادئا ، مطمئنا ، محبا للعلم والجمال ، فعـــدل التقويم الزمنى ، وانشأ مدارس خاصة ، واقام مباريات فى الرســم والنحت ، واعتمد الجوائز لتشـــجيع اهل الفن ؛ ونظم المعارض السنوية ، وفتح المتحف ، وطبع الاحتفال بالاعياد وبالذكريات القومية بطابع من السمو ، على غــرار ما كان يجرى فى اثينا وروما قديما .

بَيد ان الفن الفرنسى الذى كان ينتشر – فيما مضى – فى انجلترا والمانياوروسيا وبولندا ، لم يعد ذا اغراء فى الخارج . كما ان هواة الرسم ، وعشاق الفن ، وكبار السادة والماليين كانوا قد أفلســوا ، أو هاجروا ، أو اختبــأوا . اما الذين اكسبتهم الثــورة ثراء ، من فلاحين ، ومتجرين فى الشؤون المدنيـــة ، ومتجــرين فى الاوراق المـالية ، وموردين لمؤن الجيوش ؛ وقيمين على اموال المقامرين فى (الباليـــه – رويال) .. اما هؤلاء فلم يعودوا يجسرون على اظهـــار بذخهم ، ومن ثم فانهم لم يعودوا يحفلون بالرسم .. وكان لابد من سمعة « رينو » ، او اسم « جيرار » الشاب لبيع اية لوحة . أما « جريز » و « فراجونار » و « هوان » فقد هووا الى درك الفاقة . واصبح « برودون » يغذى زوجته وامراته بالنزر اليسير ، عن طريق رسم موضــوعات كان « كوبيا » يحفرها بطـــريقة النقش والتطعيم . كما ان الرسامين الوطنيين « انيكان » و « فيكار » و « توبينو – لوبرون » أصبحوا يعانون الجوع .

أما ((جاميلان)) فقد أصبح عاجزا عن تدبير نفقات لوحة واحدة ، ولم يعد قادرا على ان يدفع للنمـوذج (الموديل) أجرها ، ولا على شراء الالوان ، فتـــــرك لوحته الكبيرة ((الثائرون يطاردون الطاغية الى الجحيم)) ، ولما يتم رسمها .. وكانت تشغل نصف المرسم ، وقد ضمت صورا ناقصة مرعبة ، أكبر حجما من الاشكال الطبيعية ، وبحشـد من الثعابين الخضراء وقد ابرز كل منها لسانين حادين ملتويين .. وفي المقدمة — الى اليسار — كانت تتبدى معالم ((كارون))(١٣) هزيل وحشي ، في قاربه .. كانت تحفة قوية ، حسـنة الرسم ، ولكنها توحي بالقيود المدرسية في الفن . وكانت ثمة لوحة أقل حجما ، ولم تكتمل كذلك — وقد علقت في اكثر بقاع المرسم ضوءا — اكثر براعة وقربا من الطـــابع الطبيعي . تلك كانت صورة ((اوريست)) واخته ((اليكترا)) تنهضه في سرير أوجاعه . وكانت الفتاة ترى وهي ترفع — بحركة حانية — الشـعر المهوش الذي كان يحجب عيني أخيها . وكان راس ((اوريست)) جميلا وحزينا ، يستطيع المرء ان يتبين فيه شبها بوجه الرسام نفسه (١٤) .

وكثيرا ما كان ((جاميلان)) يتأمل هــــذا المنظر بعين متحسرة ، وذراعاه ترتجفان شوقا الى الرسم ، وتمتدان الى شكل ((اليكترا)) — الذي رسم بخطوط عريضــة — ثم تهويان في عجــز .. كان الرسام مفعما بالحماس ، وكانت روحه تنزع الى جلائل الاعمال . ولكنه كان مضطرا الى ان

---

(١٣) في الاساطير اليونانية ان الارواح تنتقل الى نهر (ستايكس) — الذي يحيط بعالم ما تحت الارض — في قارب تقوده شخصية خيالية هي ((كارون))

(١٤) ((اوريست)) مأساة كتبها يوربيدس سنة ٤٠٨ قبل الميلاد ، عن ابن ((اجا ممنون)) الذي قتل امه — بالاتفاق مع اخته ((اليكترا)) — انتقـاما لأبيه .

يعكف على الأعمال التى كان يطلب اليه اداؤها ، فينجزها فى غير تحمس ، لانه كان مضطرا الى ارضاء ذوق العامة ، ولأنه كذلك لم يكن يعرف كيف يسبغ على التوافه طابع الفن العبقرى . فكان يرسم مناظر رمزية صغيرة ، يحفرها زميله « ديماهى » بدقة بالغة ؛ لتطبع باللون الاسود أو بالالوان، فيأخذها ــ بثمن بخس ــ تاجر للصور المطبوعة على الخشب ، فى شارع (أونوريه) ، هو المواطن « بليز » . ولكن تجارة الصور المطبوعة على الخشب كانت تسير من سىء الى أسوأ ، كما كان «بليز» يقول .. فلم يعد أحد ــ منذ فترة من الزمن ــ راغبا فى الشراء !

على ان « جاميلان » اهتدى فى هذه المرة ــ وقد جعلته الحاجه أريبا ــ الى اختراع موفق ومبتكر ــ كما بدا له هو ، على الأقل ــ كفيل بأن يوفر الثروة لتاجر الصور الخشبية، وللحفار ، وله هو .. **تلك الفكرة تمثلت فى ورق اللعب ذى طابع وطنى ، فبدلا من الشائب (الروا) ، والبنت (الدام) ، والولد (الفاليه) التى كانت فى ورق اللعب ــ فى العهد القديم ــ ابتكر جاميلان ((العبقرية)) ، و ((الحرية)) و ((المساواة))** . واذ فرغ من تصميم كل هذه الاشكال ، واتم منها عددا ، تملكته اللهفة الى ان يحمل الى «ديماهى» ماوجده منها صالحا للحفر . وكان الشكل الذى بدا له أنه أفضلها ، يمثل متطوعا عسكريا يرتدى القلنسوة الثلاثية الاركان ؛ وسترة زرقاء ذات حواف حمراء ، وسروالا (بنطلون) اصفر ، وطماقين أسودين **(١٥)** ، وقد جلس على صندوق وقدماه على كومة من الرصاص ، وبندقيته بين ركبتيه . ذلك هو « المواطن القلب » الذى ابتكره ليحل محل

---

(١٥) « طزلك » .. وقاء من الجلد يلبس فوق الحذاء .

« الفاليه القلب » . ولقد ظل جاميلان يرسم متطوعين - منذ ستة شهور - وكان يرسمهم بشـــغف دائما .. وباع بعض صورهم فى ايام الحماس المتأجج .. وبقى كثير منهـا على جدران المرسم ، وخمس أو ست - مرســومة بالالوان المائية ، و « الجواش » ، ونوعين من الاقــلام - ملقاة على المنضدة أو على المقاعد .

***

وعندما اقيمت المنصات فى كافة ميـــادين باريس - فى شهر يوليه سنة ١٧٩٢ - لتسجيل أســـماء المتطوعين ، وازدانت الملاهى جميعا بأوراق الشجر ، وهى تضـــج بصيحات : « عاشت الامة !.. الحيـــاة الحرة أو الموت ! » ، بات « جاميـــلان » عاجزا عن ان يعبـــر الجسر الجـــديد (بون - نيف) ، أو ان يمر بدار البلدية ، دون ان يقفز قلبه نحو الخيمة المـــزدانة بالبيارق ، حيث كان النواب ذوو الاوشحة يثبتون اسماء المتطوعين على انغام « المارسلييز » .. ولكنه كان يخشى ان يترك امه بلا عائل ولا نصير ، اذا هو التحق بالجيوش .

ودخلت المواطنة الارملة « جاميلان » الى المرســـم ، تسبقها ضوضاء من صفير انفاسها المتعسرة ، وقد نضحها العرق ، واحمر وجهها ، وتتابعت لهثاتها ، وتدلت الشـــارة القومية من قلنسوتها باهمال ، توشك أن تفلت من مكانها . ووضعت سلتها على مقعد ، وراحت تشكو من غلاء المعيشة ، وهى تستوى معتدلة فى وقفتها لتتمكن من التنفس بمزيد من اليسر .. كانت تشتغل ببيع السكاكين فى شـــــارع (جرنيل - سان - جيرمين) ، عند اللافتـــة التى تحمل

عباره « مدينة شاتيليرو » ، عندما كان زوجها على قيد الحياة .. أما الآن - وقد غدت ربة بيت فقيرة - فانها أقامت معتكفة لدى ابنها الرسام . وكان أكبر الابنين اللذين رزقتهما . **اما الاصغر فكان فتاة ، هي ابنتها « جولى » التى كانت - من قبل - عارضة للازياء فى شارع (اونوريه) ، وكان من الافضل تجاهل ما صارت اليـــه ، اذ لم يكن من الخير القول بأنها هاجرت مع أحد « الأرستقراطيين » !**

وقالت المواطنة جاميـلان - متنهدة - وهى تعرض على ابنها رغيفا من عجين سميك لسمر : « رحماك يارب .. ان سعر الخبز قد تجاوز كل حـد .. فما بالك لو انه كان من الحنطة النقية . ولا وجود - فى الســوق - لبيض أو جبن . اننا لفرط أكل الكستناء سنغدو كستناء ! » **(١٦)**

.. وعادت تقول بعد صمت طويل : « لقد رايت فى الطريق نسوة لا يمتلكن شيئا يطعمنه أطفالهن . ان البؤس شـديد الوطأة على أهل الفقر ، ولسوف يظلون كذلك طالما ان الامور لم تستقر على ما كانت عليه ! »

فقال « جاميلان » ، وهو مقطب الجبين : « ان الضيق الذى نعانيه يا أماه راجع الى المحتكرين والمضاربين ، الذين يجيعون الشعب ، ويتآمرون مع الاعداء الذين فى الخارج على اظهار الجمهورية بغبضــة فى أعين المواطنين ، وعلى تقويض الحريات . هذا ما تهدف اليه مؤامرات البريسوتبين **(١٧)**،

---

(١٦) كان الكستناء (أبو فروة) ارخص من الخبز لتوفر أشجاره .

(١٧) البريسوتيون : اسم كان يطلق على حزب « الجيروندديين » ، نسبة الى « جاك - بيير بريسو » الذى كان من أبرز أعضائه ، وكان وانصــاره يؤلفون فريق اليمينيين فى الجمعية العامة ، ويعارضهم «الجبليون» . وكان اليمينيون ضد مذابح سبتمبر ١٧٩٢ ، وضد اعدام الملك ، فطردوا من المؤتمر ، واعدام زعماؤهم ومنهم بريسو .

وخيانات انصار بيتيون (١٨) ورولان (١٩) . ولكم نكون سعداء الحظ اذا لم يأت الحلفاء مسلحين الى باريس ليذبحوا الوطنيين الذين لم تعجل المجاعة بعد بهلاكهم !.. ليس ثمة وقت يبدد ، بل لا بد من تحديد سعر الدقيق ، واعدام اى مستغل لقوت الشعب ، وأى مثير للفتن او متحالف مع الاجنبى . ان المؤتمر ينشىء محكمة استثنائية لمحاكمة المتآمرين ، وهى تتألف من وطنيين ، ولكن .. هل يكون لدى اعضائها طاقة كافية للذود عن الوطن ضد كل أعدائه ؟.. ليكن لنا فى « روبسبيير » أمل ، فهو رجل مخلص .. وليكن لنا فى « مارا » — بوجه خاص — أمل ، فان هذا الاخير يحب الشعب ، ويتحرى مصالحه الحقيقية فيعمل من اجلها . ولقد كان الاول دائما فى كشف الخونة ، وفى احباط المؤامرات .. انه نزيه وغير هياب . وهو وحده القادر على انقاذ الجمهورية من الخطر ! »

وهزت المواطنة جاميلان راسها ، فأسقطت الشارة المهملة عن قلنسوتها ، وهى تقول : « حسبك يا ايفاريست !.. ان بطلك « مارا » انسان كغيره ، ولا يفضل سواه فى شىء . انك شاب ، وانك لتنساق للاوهام .. وكل الذى تقوله اليوم فى « مارا » ، قد قلته — من قبل — فى ميرابو ، وفى لافاييت ، وفى بيتيون ، وفى بريسو » . فصاح جاميلان وقد نسى ذلك حقا : « ابدا ! »

وأخلت المواطنة طرفا من المنضدة الخشبية البيضاء —

---

(١٨) بيتيون دى فيلنيف : عمدة باريس سنة ١٧١٩ ، ورئيس المؤتمر .

(١٩) رولان ديلا بلاتيير : وزير الداخلية سنة ١٧٩٢ . وكانت زوجته نصيرة للادب والفن ، ولها « صالون » للجيرونديين فيه القدح المعلى ، مما ادى بها — هى الأخرى — الى المقصلة . وهى صاحبة العبارة المأثورة « ايتها الحرية ، كم من الجرائم ترتكب باسمك » .

.. فقال چاميلان : ((حسبك يا أماه ، اصمتي !..)) (ص ٣٢)

المتخمة بالاوراق والكتب وفراجين الرسم والاقلام ــ فوضعت وعاء خزفيا مليئا بالحساء ، وطبقين من القصدير، وشوكتين من الحديد ، والرغيف الاسمر ، وابريقا به نبيذ خفيف . وتناول الابن والام الحساء فى صمت ،! وختما عشاءهما بقطعة صغيرة من شحم الخنزير ، وقد وضعت الام نصيبها على خبزها ، وقطعته الى لقم صغيرة راحت تنقلها بحذر ــ على سن مطواتها ــ الى فمها الخالى من الاسنان . ثم اخذت تمضغ هذا الغذاء ــ الذى تكلف ثمنا غاليا ــ فى استمراء وعناية .

وتركت الشطر الافضل فى الطبق لابنها الذى ظل يفكر مستغرقا ، فراحت تردد له فى فترات متساوية : ((كل يا ايفاريست .. كل !)) . وكانت هذه العبارة تتخذ على شفتيها وقار التعاليم الدينية .. وما لبثت الام ان استأنفت شكاواها من غلاء المعيشة ، فعاد جاميلان يدعو من جديد الى التسعير كعلاج اوحد لهذه العلل . ولكنها قالت :

ــ لم تعد هناك نقود ، فلقد نقلها المهاجرون عن آخرها .. ولم تعد هناك طمأنينة ، فكل شىء يدعو الى اليأس !

فصاح جاميلان : « حسبك يا اماه ، اصمتى !.. ما ضر ان نعانى الحرمان والآلام لفترة عابرة ، اذا كانت الثورة ستعمل لخير الجنس البشرى على مر القرون ؟! »

وغمست العجوز خبزها فى نبيذها ، وقد أشرقت اساريرها وهى تفكر مبتسمة فى أيام شبابها ، حين كانت تلعب على العشب فى عيد الملك . وعاودتها كذلك ذكرى اليوم الذى سألها فيه « جوزيف جاميلان » ــ بائع السكاكين فى بلدها ــ ان تتزوجه . واخذت تروى ــ بالتفصيل ــ كيف سارت الامور .. فلقد قالت لها أمها : « ارتدى ثيابك ،

فنحن ذاهبتان الى حانوت السيد بياناسى الصائغ – فى ميدان (جريف) – لنشهد اعدام « داميان » بتمزيقه آربا ! » .. ولقيتا عناء فى شق طريق لهما خلال الجموع المشبوبة الفضول . ووجدت الفتاة « جوزيف جاميلان » فى حانوت السيد بياناسى ، وقد ارتدى حلته الوردية الجميلة ، فأدركت لفورها سر مجيئه .. وطيلة الوقت الذى قضته لدى النافذة ، لتشهد قاتل الملك وهو يكوى بالكلابات المحمية ، ثم يصب عليه الرصاص المصهور ، ويشد الى خيول أربعة فتمزقه ، ثم يلقى به الى النار .. **طيلة هذا الوقت كان السيد « جوزيف جاميلان » يقف وراء الفتاة ، ولا يكف عن اطراء لون بشرتها ، وشكل شعرها ، وقوامها !**

وأفرغت ثمالة كوبها ، واستطردت مستعيدة ذكرى حياتها :

– ولقد جلبتك الى الدنيا يا « ايفاريست » بأسرع مما كنت انتظر ، من جراء رعب انتابنى ، اذ كنت حبلى ، وكادت الجموع – التى كانت تهرع لتشهد اعدام السيد « دولالى » (٢٠) – ان توقعنى على الجسر الجديد . ولقد كنت من صغر الحجم – عند مولدك – الى درجة ان الطبيب كان يخشى ان لا تعيش ،ولكنى كنت اوثق من أن الله سينعم على فيصونك . وربيتك على خير ما كان بوسعى ، دون ان أضن بعناية ولا بنفقة . ومن الانصاف يا ايفاريست ان أقول انك قد اظهرت لى عرفانا بالجميل ، وانك سعيت – منذ طفولتك – الى مجازاتى بقدر وسائلك . **ولقد كنت**

---

(٢٠) توماس – ارثر دولالى ، بارون تولوندال ، الذى كان حاكما للبقاع الفرنسية فى الهند ، فهزمه الانجليز ، واتهم بخيانة فرنسا فاعدم سنة ١٧٦٦ .

بفطرتك محبا ولطيفا . وما كانت اختك بالجاحدة القلب ، ولكنها كانت انانيــــة وعنيفة . على انك أوتيت من الرحمة بالبائسين فوق ما اوتيت هى .. وعندما كان الصغار من صعاليك الحى يغيرون على اعشاش الطيور فوق الاشجار ، كنت تنتزع الفروخ من ايديهم لتردها الى امهاتها . وكثيرا ما كنت لا تنثنى الا بعـــد أن يركلوك ويضربوك بقسوة .. وفى السابعة من عمرك ، كنت تمضى فى الشارع — فى هدوء — وانت تردد درسك الدينى ، بدلا من التشاجر مع اقــران السوء ، وكنت تأتى بكل من تلتقى بهم من الفقراء الى المنزل لمساعدتهم ، حتى اضطررت الى ان اسوطك لتقلع عن هذه العادة . وكنت لا تقوى على ان ترى مخلوقا يتألم دون ان تذرف الدموع . وعندما اســـتكملت نموك ، غدوت بارع الحسن . وشد ما كانت دهشتى اذ لم يبد انك كنت تفطن الى ذلك ، فكنت — فى ذلك — جد مختلف عن سواد الفتية ذوى الجمال ، الذين يختالون ويزدهون بأشكالهم !

***

ولقد قالت الام العجوز صدقا ، اذ كان لايفاريست — فى سن العشرين — وجه وقور فاتن ، ذو جمـــــال يجمع بين الصرامة والانوثة فى آن واحد .. وجه له قسمات وجــه « مينرفا » **(٢١)** . اما الآن ، فان عينيه المكتئبتين وخديه الشاحبين اصبحت تعبر عن روح حزينة عنيفة . بيـد ان نظرته استردت — للحظة — رقة باكورة الشباب ، عنـدما التفت الى امه . فاستأنفت حديثها قائلة :

— كان بوسعك ان تستغل محاسنك للايقاع بالفتيات ،

---

(٢١) ربة الحكمة والفن عند الاغريق .

ولكنك كنت تستطيب البقاء بالقرب منى فى الحانوت . فكنت اعمل احيانا على ان اقصيك عن التعلق بذيلى ، وعلى ان تنطلق لتمرح قليلا مع اقرانك . وانى لأشهد لك ياايفاريست - الى ان أسجى على فراش الموت - بأنك كنت ابنا بارا . فبعد وفاة أبيك ، آليت على نفسك - بشهامة - أن تكفلنى ، وبالرغم من ان مهنتك لا تدر عليك دخلا ، فانك لم تدعنى افتقد شيئا .. واذا كنا اليوم معا فى عوز وفاقه ، فلست املك ان ألومك ، اذ ان الذنب فى ذلك ذنب الثورة !

وندت عنه حركة احتجاج ، ولكنها هزت كتفيها واستطردت :

- **اننى لست ارستقراطية . فقد عرفت العظماء فى أوج سلطانهم ، وبوسعى ان اقول انهم كانوا يسيئون استغلال امتيازاتهم .. لقد شهدت اباك يضرب بعصى أتباع دوق « كانالبيل » ، لانه لم يسرع بالتنحى عن طريق مولاهم .** وما أحببت النمسوية (٢٢) قط ، فلقد كانت مسفة فى الغطرسة ، وكانت مبذرة كل التبذير . اما الملك ، فكنت اعتقد انه طيب ، ولولا محاكمته وادانته والحكم باعدامه لما غيرت رأيى فيه . وقصارى القول اننى لا آسف على العهد القديم ، وان كنت قد قضيت فيه لحظات هانئة . ولكن لا تقل لى ان الثورة ستقر المساواة ، لأن البشر لن يكونوا متساوين قط .. ان هذا غير ممكن ، واقصى ما يستطاع هو قلب المعانى رأسا على عقب ، وسيبقى هناك دائما كبار وصغار ، وسمان وعجاف !

وكانت - وهى منهمكة فى الكلام - قد جمعت الآنية ..

---

(٢٢) مارى انتوانيت ، زوجة لويس السادس عشر . فقد كانت اميرة نمسوية .

ولم يعد الرسام يصغى اليها ، اذ راح يفكر فى رسم لواحد من « السانكيلوت » ، بقلنسوة حمـــراء و « كارمانيـــول » ، ليحل – فى اوراق اللعب التى ابتكرها – محل « الفاليـــه البستونى » البائد !

وانبعثت طرقات على الباب ، ثم ظهرت فتـــاة ريفية ، عرضها يفوق طولها ، شقراء ، معوجة الســاقين ، تحجب عينها اليسرى وراء عدسة ، بينما كانت عينها اليمنى ذات زرقة جد باهتة ، حتى لتكاد تبدو بيضاء .. وكانت شفتاها كبيرتين ، واسنانها تبرز فوق الشفتين .

وسألت « جاميلان » عما اذا كان هو الرسام ، وعما اذا كان بوسعه ان يرسم خطيبها فيران (جول) ، المتطوع فى جيش (الاردين) . فأجاب جاميلان بأنه على استعداد لأن يرسم الصورة – عن طيب خاطر – عنـــد عودة المحارب الباسل . وسألته الفتاة – فى الحاح رقيق – ان ينجز مـا طلبته فورا ، فابتسم الرسام – على الرغم منه – واعتــذر بأنه لا يملك ان يصنع شيئا بدون النمـوذج الاصلى . ولم تجبه المسكينة ، فما كانت قد توقعت هذه العقبة . وظلت جامدة ، صامتة – وقد مال رأســها على كتفها اليسرى ، واشتبكت يداها على بطنها ، وبدت رازحة تحت وطــأة الاسى . وتأثر الرسام ، كما استظرف مثل هذه السذاجة ، فشاء ان يسرى عن العاشقة البائســـة ، ودفع الى يدها باحدى صور المتطوعين التى رسمها بالالوان المائية ، وسألها عما اذا كان خطيبها بهذا الشكل .

والقت الفتاة على الورقة نظرة حـــزينة من عينها ، لم تلبث ان انتعشــــــت رويدا ، ثم اشرقت ؛ ثم تألقت .. وانبسط وجهها الكبير فى ابتسامة وضاءة . وقالت اخيرا : « هذا شبهه حقا .. هذا هو فيران (جول) بشكله الطبيعى .. هذا هو فيران (جول) بكل سماته ! »

وقبل ان يفكر الرسام فى انتزاع الورقة من يديها ، كانت الفتاة قد طوتها – بعناية – بين اصابعها الحمراء الغليظة ، وجعلت منها مربعا جد صغير دسته فوق قلبها ، بين المشد والقميص . والقت الى الرسام ورقة مالية من فئة الخمسة ليبرات ، وتمنت له مساء طيبا وهى تخرج جذلة خفيفـــة الحركة !

الفصل الثالث

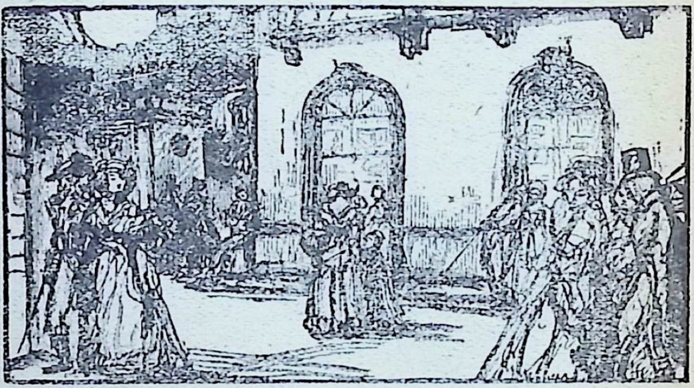

• ذهب « ايفاريست » ، فى عصر ذلك اليـــوم ، لزيارة المواطن « جان بليز » ، تاجـــر الصور ، الذى كان يبيع التحف ، وادوات الزينة المصنوعة من الورق المقوى ، وكافة الطرائف كذلك .. بشارع (اونوريه)، فى مواجهة معهـــد الخطابة والبيان ، بالقرب من رصفة (الميســاجيرى) ، فى حانوت اطلق عليه « لامور بانتر » ، اى «رسام الغرام» !.. وكان المتجر فى الطابق الارضى لدار عتيقة ــ عمرها ستون عاما ــ يفضى اليه مدخل يعلوه راس مقوس ، حمل فى اعلاه صورة رأس ضخم ذى قرنين . وقد ملأ قنطرة القوس رسم زيتى يمثل « الصقلى .. او رسام الغرام » ــ نقلا عن لوحة لبوشيه ــ وكان والد « جان بليز » قد ثبت هذا الرســم

فى مكانه ، فى سنة ١٧٧٠ ، وتعاونت الشمس والمطر - منذ ذلك الحين - على محوه !

وعلى كل من جانبى الباب، كان ثمة فراغ مقبى آخر، يعلو قنطرته رأس حورية من حوريات الماء ، وقد سد بأكبر صفحة من الزجاج تسنى العثور عليها ؛ وخصص لعرض الصور المحفورة على الخشب - التى كانت شائعة إذذاك - واحدث مبتكرات النقش بالالوان . **وقد لاح فى النافذتين - فى ذلك اليوم - رسمان ابدعتهما ريشة « بوالى » فى حذق يخالطه شىء من الجفاف ، واطلق عليهما : « دروس فى الغرام الزوجى » ، و « صد رقيق » .. وقد فضح فيهما البعاقبة ، فاستنكرهما ذوو العقول الطاهرة فى الوسط الفنى ..** ولوحة « المتنزه العام » لديبوكور ، وفيها شاب من علية القوم ، ارتدى سروالا فاقع الصفرة ، وقد استلقى على ثلاثة مقاعد .. وصور لبعض الخيل من رسم « كارل فيرنيه » الشاب ، وصور مناطيد هوائية ، ولوحة « حمام فيرجينى » ، وبعض مناظر أخرى منقولة عن التحف القديمة !

ومن بين المواطنين الذين كانوا يمرون زرافات أمام المتجر، كان اكثرهم رثاثة هم أطولهم مكثا أمام النافذتين البديعتين . فقد كانوا سريعى الانجذاب الى الصور لخلو حياتهم منها ، شديدى الشوق الى ان ينالوا - ولو بأعينهم - نصيبا من متاع الدنيا .. وكانوا يفغرون أفواههم اعجابا ؛ فى حين ان الارستقراطيين كانوا يلقون على النافذتين نظرة عابرة ، ويقطبون الجباه ، ثم يمضون !

وما ان لمح « ايفاريست » المكان عن بعد ، حتى صعد نظراته صوب احدى النوافذ التى كانت مفتوحة فوق المتجر

.. تلك هى النافذة اليسرى ، حيث كان ثمة اصيص للقرنفل الاحمر ، خلف سياج الشرفة الحديدى المبيض . وكانت هذه النافذة تغدق النور على حجرة ((ايلودى)) ، ابنة ((جان بليز)) . اذ كان تاجر الصور يقطن مع وحيدته فى الطابق الاول من المنزل .

وبعد أن وقف « ايفاريست » لحظة أمام « لامور بانتر » ، كما لو كان يلتقط انفاسه ، ادار مقبض الباب ، فوجد المواطنة ايلودى — التى كانت قد باعت صورتين من لوحات « فراجونار » الابن و « نايجون » ، اختيرتا بدقة من بين الصور الكثيرة الاخرى — ترفع الاوراق المالية بين عينيها الجميلتين وضوء النهار ، قبل ان تغلق عليها الخزانة ، لتفحص العلامات المائية — المؤلفة من شبكة من الخطوط الدقيقة — وهى قلقة . اذ كانت الاوراق الزائفة متداولة أكثر من الاوراق الحقيقية ، مما احدث انزعاجا كبيرا فى أوساط التجارة . وكما كانت الحال — فيما مضى — ازاء اولئك الذين كانوا يقلدون توقيع الملك — فان مزيفى النقود القومية كانوا يعاقبون بالموت . ومع ذلك فان لوحات (كليشيهات) طبع الاوراق المالية ، كانت توجد فى كل قبو .. وكان السويسريون ينتجون الاوراق المزيفة بالملايين ، فكانت تلقى فى الفنادق الريفية بالحزم .. وكان الانجليز يفرغون على سواحلنا — يوميا — طرودا منها ، لكى يزعزعوا الثقة فى الجمهورية ويهووا بأهل الوطن الى الفاقة .. وقد كانت « ايلودى » تخشى ان تتسلم أوراقا زائفة ، وتخشى — اكثر من ذلك — ان تدفع اوراقا من هذه الى الغير ، فتتهم

بالتآمر مع « بيت » (٢٣) .. ولو أنها كانت تثق فى حظها ، مطمئنة الى نجاتها من كل ما يصادفها فى هذا الصدد !

***

وتأملها « ايفاريست » بتلك النظرة الساجية التى هى أبلغ من الابتسام فى الافصاح عن الحب . وتأملته هى بنظرة شذرة ، يخالطها شىء من السخرية ، انبثقت من عينيها السوداوين .. وقد انبعث هذا التعبير لديها من ادراكها انها كانت محبوبة ، وانه ما كان يغضبها ان تكون محبوبة .. ومن ان هذه النظرة تثير العاشق ، وتحمله على أن يشكو الظلم ، أو تستدرجه الى ان يبوح بالحب اذا لم يكن قد فعل ، كما كان شأن ايفاريست !

واذ أودعت الخزانة تلك الاوراق المالية ، أخرجت من سلة التطريز وشاحا أبيض ، كانت قد بدأت تطريزه ، وعكفت على الشغل . وكانت نشيطة وذات دلال .. ولما كانت تجيد تحريك الابرة بالفريزة ، لتفتن ولتصنع ما تزدان به — فى آن واحد — فانها كانت تطرز بأساليب تتباين تباين أولئك الذين يشاهدونها .. **فكانت تطرز بعدم اكتراث أمام أولئك الذين كانت تريد أن تثير فيهم وجدا لطيفا .. وكانت تطرز بدلال مائع لأولئك الذين كان يلذ لها ان تكربهم قليلا . على انها راحت تطرز بعناية لايفاريست الذى كانت ترجو ان تثير فيه عاطفة جادة !**

وما كانت « ايلودى » فى مقتبل الشباب ، ولا كانت جد جميلة . بل ان المرء كان يجدها قبيحة فى بادىء الامر .

---

(٢٣) وليم بيت : أصغر من تولوا رئاسة الوزارة فى انجلترا ، والد عدو للثورة الفرنسية ، وقد تحالف مع النمسا ورومانيا ضدها .

فقد كانت سمراء ، تبدو فى لون الزيتون ، تحت المنديل الابيض الكبير ، الذى كان معقودا باهمال حول راسها ، والذى كانت تفلت منه خصلات من شعرها صبغت بلون ازرق خفيف .. كما كانت عيناها جذوتين تلهبان محجريهما فتسودهما .. وفى وجهها المستدير ، البشوش ، ذى الوجنتين البارزتين ، والانف الافطس قليلا ، والقسمات البدوية التى تنم عن شهوة متاججة .. فى هذا الوجه وجد الرسام صورة لراس تمثال لربة الرعى ــ كان قد اعجب به لدى آل « بورجيز » (٢٤) ــ وقد صيغ على جسد فاره ، جمع بين القداسة والشيطنة !.. وكانت ثمة شعيرات قصيرة وخطت شفتيها الحارتين المتاججتين ، وصدر بدا كأنه منتفخ بالحنان تحت الوشاح المعقود الطرفين ، على النمط الذى كان شائعا فى ذلك العام . وكان قوامها لدنا ، وساقاها رشيقتين ، فكان جسمها المتين البنيان يتحرك كله بدلال جامح لذيذ . أما نظرتها ، واما انفاسها ، واما اختلاجات جسدها .. كل شىء فيها كان ينادى القلب ، ويدعو الى الحب !.. وكان منظرها خلف نضد المتجر ، يوحى بصورة حورية من حوريات الرقص ، او راقصة « الاوبرا » التى تقوم برقصة وحشية عنيفة ، وقد تجردت من جلد النمر الذى ترقص فيه ، وصولجانها المتخذ من فروع الشجر ، واكاليلها ، فاذا بها ملتفة ــ بسحر ساحر ــ فى ستر الحشمة الذى يلف ربات البيوت فى لوحات « شاردان » .

وقالت للرسام : « ان ابى ليس هنا ، فانتظره لحظة . ولن يلبث ان يعود ! »

---

(٢٤) آل « بورجيز » : أسرة رومانية اشتهرت بحبها للفن .

وكانت يداها السمراوان الصغيرتان تجريان الابرة خلال النسيج الرقيق ..

ـ هل تجد هذا الرسم ملائما لذوقك يا سيد جاميلان ؟

وكان جاميلان يعجز عن الكذب والرياء ، وقد أهاج الحب صراحته والهب شجاعته ، فقال : « انك لتطرزين بمهارة ايتها المواطنة ، ولكن ـ اذا شئت ان أصارحك القول ـ فان الرسم الذى نقلته ليس من البساطة بمكان ، كما انه عار اكثر مما ينبغى ، ويتمشى مع الذوق الكاذب الذى ساد فرنسا زمنا طويلا ، فى فن توشية الاقمشة والاثاث والسقوف والجدران .. فهذه الفروع ، وهذه الاكاليل ، تعيد ذكرى ذلك الاسلوب التافه الزرى الذى كان شائعا فى عهد الطغيان . لقد تجدد الذوق ، وان كنا ـ للاسف ! ـ قد قطعنا شوطا بعيدا قبل التجدد . فقد كان لفن الزخرفة ـ منذ زمن لويس الخامس عشر المرذول ـ طابعا صينيا ، فكانت خزانات الثياب تصنع ببطون منتفخة ومقابض معوجه بشكل سخيف ، ولا تصلح الا لأن توضع فى النار لتدفئة الوطنيين .. **ان البساطة وحدها جميلة ، فيجب الرجوع الى القديم . ان « دافيد » يقتبس رسم الاسرة والمقاعد عن نقوش الاوانى الشرقية ورسوم هيركولانوم » (٢٥)**

فقالت ايلودى : « لقد رأيت هذه الاسرة والمقاعد ، وانها لبديعة !.. لن يلبث الناس ان يعافوا غيرها .. اننى اعجب بالقديم مثلك ! »

فاستأنف ايفاريست حديثه قائلا : « بديع يامواطنة !.. لو انك زخرفت وشاحك هذا بزخرفة اغريقية من اوراق

---

(٢٥) هيركولانوم : مدينة ايطالية قديمة ، اكتسحها ثوران بركان فيزوف سنة ٧٩ ، ثم كشفت اعمال الحفر عنها فى القرن الحادى عشر .

اللبلاب ، ومن الافاعى أو السهام المتقاطعة ، لكان جديرا بفادة اسبرطية .. وبك ! على ان بوسعك ان تحتفظى بهذا الرسم اذا عمدت الى تبسيطه ، والى تقويم خطوطه ! »

وسألته عما ينبغى ان تمحوه من الرسم ، فانحنى على الوشاح ، واذا وجنتاه تمسان خصلات « ايلودى » . **والتقت يداهما على قطعة القماش ، وامتزجت انفاسهما ، فتذوق « ايفاريست » – فى تلك اللحظة – سرورا لا حد له .. ولكنه حين أحس بشفتى « ايلودى » قريبتين من شفتيه ، خشى ان يكون قد أساء الى الفتاة ، وارتد بسرعة .**

وكانت المواطنة « بليز » تحب ايفاريست جاميلان ، اذ كانت تراه بديع الحسن بعينيه الواسعتين النفاذتين ، ووجهه البيضاوى الجميل ، وشحوبه ، وشعره الاسود الغزير ، وطلعته المهيبة ، وهدوء اعصابه ، وصرامة مسلكه ، ورزانة كلامه الذى لم يكن ينطوى على شىء من الملق . والى جانب حبها له ، فانها توسمت فيه نبوغا فنيا متقدا ، لن يلبث ان يتفجر يوما فى تحفة فنية ، فيذيع اسمه .. وقد زادها هذا حبا له . **ولم يكن لدى المواطنة بليز أى ايمان بطهر الرجولة ، فلم يكن ليخرق مبادئها الخلقية أن يستلين الرجل لعواطفه وميوله وشهواته** . ولقد احبت « ايفاريست » الذى كان عفا طاهرا ، ولكنها لم تحبه لانه كان عفا ، وانما الفت فيه ما كان عليه من فضيلة تجعله بمنأى عن التزمت ، وعن الغيرة ، وعن الشكوك ، وعن التوجس من المزاحمين والمنافسين !

على انها – فى تلك اللحظة بالذات – قضت بأنه كان **متحفظا اكثر مما ينبغى . واذا كانت « اريسى » – التى ابتدعها خيال « راسين » – قد أحبت « ايبوليت » ،**

واعجبت بما لهذا البطل الشاب من فضيلة خشنة غير مصقولة ، فانما اقترن ذلك بالامل فى ان تنتصر على هذه الفضيلة ، ولكنها لم تلبث ـ بعد قليل ـ ان وجدت فيه صرامة خلقيـــة لم تذعن قط او تلين لها . وكانت كلما وجدت الفرصة ، تجهر بأكثر مما ينبغى ـ مما فى نفسها ـ لتستدرجه الى ان يبوح بما فى نفسه . **وعلى نمط «اريسى» الرقيقة هذه ، لم تكن المواطنة بليز جد بعيـدة عن الاعتقاد بأن المرأة خليقة بأن تكون السـباقة الى المصارحة ، فيما يتعلق بالحب !..** وكانت تقول لنفسها : « ان اشدهم حبا هم اكثرهم حياء ، فهم يحتاجون الى معونة وتشجيع . وانهم ـ الى ذلك ـ لمن السذاجة بحيث أن فى وسع المرأة ان تمهد نصف الطريق ـ بل اكثر ـ اليهم دون ان يلمحوا ذلك ، بأن تهيىء لهم مظاهر توحى اليهم بأنهم قاموا بهجوم جرىء ، وظفروا بالنصر فى الغزو ! » .. وهذا هو ما طمأنها الى مجرى الامور ، فقـد كانت تدرك عن يقين ـ وما كان لديها شك بهذا الصدد كذلك ـ ان ايفاريست كان قبـل ان تجعله الثورة بطلا ، قد أحب كأى انسان ، امرأة متواضعة ، كانت حارسة أبواب المعهد الفنى « الاكاديمى » !

ولكن « ايلودى » ـ التى لم تكن قط ساذجة ـ كانت تعرف انواعا مختلفة للحب . وكانت العاطفة التى اوحاها « ايفاريست » اليهـا من العمق بحيث جعلتها تفكر فى ان تربط حياتها به . كانت ميالة كل الميل الى الزواج منه ، لولا انها كانت تتوقع أن لا يقر أبوها ارتباط وحيدته بفنان مغمور ، فقير . فما كان « جاميلان » يمتلك شيئا ، بينما كان تاجر الصور قد جمع أمـوالا طائلة .. كان « لامور بانتر » يدر عليه الكثير ، وكان الاتجار فى الاوراق الماليـة

يدر عليه اكثر ، كما انه كان شريكا لاحد المتعهدين الذى كان يورد لفرسان الجمهورية التبن والشعير .

وموجز القول ان ابن بائع السكاكين بشارع (سان دومنييك) كان شخصية ضئيلة بالقياس الى ناشر الصور الذى كان معروفا فى اوربا بأسرها ، وكان معروفا بشخصه لدى أهل (بليزو) و (باسان) و (ديدو) بوجه خاص ، والذى كان يتردد على دارى المواطنين « سان بيير » و « فلوريان » (٢٦) .. ولم تكن « ايلودى » سوى ابنة مطيعة ، ومن ثم فانها كانت تحرص على موافقة ابيها كضرورة لزواجها . **وكان أبوها قد ترمل فى سن مبكرة ، كما كان سهل الخلق ، خفيف الروح ، كل همه الجرى وراء الفتيات وادارة اعماله ، فلم يشغل قط بابنته ، بل انه تركها تنمو حرة ، دون ارشاد ، ودون صداقة** .. ولم يكن يشغل بمراقبة ابنته ، بل حرص على تجاهل مسلكها ، اذ كان يلمس فيها — وهو الخبير بالنساء — مزاجا حاميا ، ووسائل أخرى اقوى اغواء من الوجه الجميل .. كانت اكرم من ان تتحفظ وتتحوط ، وأذكى من ان تضل .. حكيمة فى نزواتها ، لم ينسها قط ميلها الى الحب شيئا من قواعد اللياقة الاجتماعية . وكان ابوها يعرف — ولا حد لاغتباطه — هذه الفطنة .. ولما كانت قد أخذت عنه ادراكه التجارى ، وذوقه فى الممارسة والعمل ، فانه لم يشغل بالدواعى الغامضة التى عاقت زواج فتاة لها هذا النضج ، واستبقاها فى البيت ، حيث كانت تعدل ربة بيت واربعة من المساعدين . وقد أحست — وهى فى السابعة

(٢٦) **جان بيير كلارى دى فلوريان : ابن ابنة أخت فولتير ، برع فى الأساطير والقصص الخرافية ، واشتهر كرسام وشاعر وكاتب**

والعشرين ـ بأنها قد بلغت من السن والتجربة ما يمكنهـا من ان توجه حياتها بنفسها ، دون أن تعانى أية حاجة الى أن تطلب مشورة أب صغير السن متساهل مشغول البال عنها ، أو الى ان تتبع ارادته . على أنه كان لزاما ـ لكى تتزوج من جاميلان ـ أن يهىء السيد بليز مستقبلا لهذا الصهر الفقير . فيشركه فى الدار ، ويكفل له أعمالا كما كان يكفل لكثير من الفنانين .. وقصارى القول ، أن يخلق له موارد بطريقـة أو بأخرى .. وهذا ما حدست استحالة أن يعرضه أحد الرجلين وأن يقبله الآخر ، لاسيما وأنه لم يكن بين الرجلين سوى قدر ضئيل من التعاطف .

***

ولقد حيرت هذه العقبة « ايلودى » الرقيقـة ، العاقلة . فتمثلت ـ فى غير جزع ـ فكرة الارتباط بصاحبها بروابط سرية ، وأن تتخذ خالق الطبيعة شاهدا وحيدا على وفائهما المتبادل . **ولم تر فلسفتها ما يستحق الاستنكار فى اتحـاد كهذا ، كان الاستقلال الذى تعيش فيه يجعله ممكنا ، وكان خلق ايفاريست الأمين وفضائله تضفى عليه طمأنينة وضمانا .** على أن جاميلان كان يجد عناء كبيرا فى أن يعول أمه العجوز ويقيم أودها ، ولم يكن فى حياة شـديدة الضيق ـ كهذه ـ مجال لغرام ؛ ولو تسنى تبسيطه الى مجرد علاقة طبيعية (٢٧) . فضلا عن أن جاميلان لم يكن قد باح بعد بعواطفه ولا أفضى بنواياه .

وخالج الأمل الموطنـة بليز فى أن تضطره الى ذلك عمـا قريب . فما لبثت أن أوقفت كلا من تأملاتها وأبرتهـا عن

---

(٢٧) المقصود هنا الزواج العرفى ، بدون قس او موثق .

الاسترسال ، وقالت : « ان هذا الوشاح لن يروق لى - أيها المواطن ايفاريست - الاذا راق لك أنت الآخر . فأرجو ان ترسم لى نموذجا . وفى انتظاره سأنكث ما تم عمله فى غيابك ، أسوة بما فعلت بنيلوبى ! » **(٢٨)** .

فاجاب فى حرارة رزينة : « سأعكف على ذلك أيتها المواطنة .. سأرسم لك حسام « أرموديوس » .. سيفا فى اكليل من الزهور!» . واستل قلما ورسم سيوفا وزهورا بالأسلوب التجريدى الرصين الذى كان يحبه . وراح - فى الوقت ذاته - يشرح آراءه : « يجب على الفرنسيين - بعد أن بعثوا من جديد - أن يطرحوا عنهم كافة مخلفات الاستعباد : الذوق السقيم ، والتكوين السقيم ، والرسم السقيم .. لقد كان « واتو » ، و «بوشيه» ، و «فراجونار» يعملون للطغاة وللعبيد ، فليس فى منتجاتهم لمحة من الأسلوب الطيب والرسم الطيب ، ولا أثر للطبيعة وللحقيقة .. انما فيها أقنعة ، ودمى ، وأسماك ، وتقليد مضحك .. لسوف تحتقر الأجيال القادمة أعمالهم التافهة . ولن تمضى مائة سنة حتى تبلى لوحات « واتو » مهملة فى الأقبية ، ولسوف يغطى طلبة الرسم لوحات بوشيه بتجاربهم ومسوداتهم فى سنة ١٨٩٣ . لقد فتح « دافيد » الطريق ، واتجه الى القديم ، ولكنه لم يصبح بعد بسيطا ، عظيما ، مجردا ، بالقدر الكافى . ولا يزال لدى فنانينا كثير من الأسرار التى تتطلب دراسة ، فى نقوش الهيركولانوم ، وفى الرسوم الرومانية البارزة ، وفى زخارف الآنية الشرقية » .

---

(٢٨) فى الأساطير الاغريقية ان « بنيلوبى » تكاثر عليها الخطاب ، بعد ان غاب زوجها «اوليس » عشرين عاما . ولتتخلص منهم استمهلتهم حتى تفرغ من سجادة كانت تنسجها . وراحت بالليل تنقض ما نسجته بالنهار . فصار مثلا لوفاء الزوجة .

وتكلم طويلا عن الجمال القديم ، ثم عاد الى «فراجونار»، فذكره فى مقت مشبوب : « أفتعرفينه أيتها المواطنة ؟ » . فأومأت « ايلودى » أن نعم ..

ـ وانك لتعرفين كذلك « جريز » الشيخ الذى يعتبر ـ بلا شك ـ مضحكا بسترته القرمزية وسيفه ! .. ولكنه اذا قيس بفراجونار ، بدا فى مظهر حكماء الاغريق .. لقد التقيت ـ منذ مدة ـ بهذا الكهل التعس ، وهو يتمشى الهوينا تحت أقواس قصر المساواة ، وقد نثر « البودرة » على شعره ، وبدا أنيقا ، مرتعش الأطراف ، مغرورا ، بشعا .. وازاء هذا المنظر ، تمنيت لو ان احد اصدقاء الفن الاقوياء اقتدى بأبولو ، فعلقه الى احدى الاشجار ، وسلخه ـ كما سلخ مارسياس ـ ليكون عبرة خالدة للرسامين المسيئين !

ورمقته « ايلودى » بنظرة ثابتة من عينيها المرحتين العابثتين ، وقالت : « انك لتعرف الكراهية ياسيد جاميلان، فهل يؤخذ من هذا انك تعرف الـ ... ؟ ! »

ـ اهذا انت ياجاميلان ؟

انبعث بهذا السؤال صوت جهورى .. صوت المواطن بليز الذى كان قد دخل حانوته، وحذاءاه يصرفان، ورصيعة سلسلة ساعته تصلصل ، وذيل سترته يرفرف ، وقد ارتدى قبعة سوداء كبيرة ، تصل حوافها الى كتفيه !

***

وحملت « ايلودى » سلتها ، وصعدت الى غرفتها . بينما قال المواطن بليز: « وبعد ياجاميلان !.. **هل أحضرت** لى شيئا جديدا ؟ »

فقال الرسام : « ربما ! » .. وراح يعرض فكرته : « ان

أوراق اللعب عندنا تناقض وضعنا الأدبى تناقضا مذهلا . فان اسمى « الفاليه » و « الروا » يخدشان أذنى أى وطنى . ولقد ابتكرت وأعددت مجموعة من أوراق اللعب الثورية الجديدة ؛ يستعاض فيها عن بطاقات « الفاليه » و « الروا » و « الدام » ببطاقات الحرية والمساواة والآخاء .. أما « الآس » فيحاط ببساقات ويسمى « القانون » .. فنقول « حرية سباتى » ، و « مساواة بستونى » و « اخاء دينارى » ، و « قانون قلب » ! .. واعتقد أن هذه البطاقات رسمت بمهارة رائعة ، فانى انتوى ان اعمل على أن يحفرها «ديماهى» حفرا دقيقا ، وأن احصل على اذن بنشرها » .

وأخرج الرسام من حافظته بعض صور كاملة بالألوان المائية ، وبسطها الى تاجر الصور . ولكن المواطن بليز رفض ان يتناولها ، وأشاح عنها قائلا : « أحمل هذه ياصفيرى الى المؤتمر ، الذى سيكرمك فى جلسته . ولكن، لاتطمع قط فى ان تحصل على « سول » (٢٩) واحد من ابتكارك الجديد ، الذى ليس جديدا ! .. لقد كنت جد متأخر فى يقظتك ، فان مجموعة ورق اللعب الثورية التى ابتكرتها هى ثالث مجموعة أحضرت الى . لقد عرض على زميلك « دوجور » — فى الأسبوع الماضى — مجموعة من ورق اللعب بها أربع بطاقات « عبقرية » ، وأربع « حرية »، وأربع « مساواة » .. واقترحت على مجموعة أخرى فيها حكماء وشجعان و « كاتو » و « روسو » و « هانيبال » . ومن لا أدرى غيرهم ! وكانت هذه المجموعة تمتاز على مجموعتك ياصديقى ، بأنها مرسومة بخطوط غليظة ،

(٢٩) السول : جزء من عشرين من الفرنك .

ومحفورة بالسكين على الخشب . ما أقل معرفتك بالرجال حتى تعتقد أن اللاعبين يستعملون أوراقا رسمت على طريقة ((دافيد)) ، وحفرت على طريقة ((بارتولوتزى)) !..

((.. لو انك زخرفت وشاحك هذا بزخرفة اغ

(ص ٤٣)

وانه لوهم غريب ـ كذلك ـ أن تعتقد انه لابد من طريقة كهذه لتعديل أوراق اللعب القديمة وفقا للآراء الحالية . ان « السانكيلوت » قد صححوا الأوضاع غير الوطنية من تلقاء أنفسهم ، بأن اطلقوا اسم « الطاغية ! » ، أو « الخنزير السمين » **(٣٠)** ، وانهم ليستعملون أوراق اللعب المطوية الأطراف ، القديمة ، دون أن يشتروا سواها .. ان أعظم استهلاك لأوراق اللعب يحدث فى مباءات قصر المساواة ، فأنصحك أن تذهب الى هناك ، وأن تعرض على اللاعبين والمشرفين بطاقاتك الممثلة للحرية ، والمساواة ، و .. ماذا سميتها «قانون قلب» . ثم تعال فقل لى كيف استقبلوك!»

وجلس المواطن « بليز » الى طاولة تسلم النقود ، وجعل ينقر بأصابعه سرواله الاصفر ، لينفض عنه ذرات من التبغ ، ثم قال وهو يرمق جاميلان فى عطف لطيف : « اسمح لى ان أقدم لك نصيحة أيها المواطن الرسام : اذا شئت أن تكسب عيشك فدع عنك أوراق اللعب الوطنية ، وآلهتك المنتقمة التى تطارد الجريمة ، وعباقرة الحرية ، وارسم لى غيدا حسانا . **ان حمية المواطنين نحو التجديد تفتر مع الزمن، والرجال يحبون النساء دائما . فارسم لى نساء متوردات اللون ، ذوات أقدام دقيقة ، وأكف صغيرة .** وضع نصب عينيك ان أحدا لم يعد يهتم بالثورة ، ولم يعد هناك من يرغب فى سماع ذكرها ! »

واذا جاميلان يقفز من مكانه فجأة ، صائحا : « ماذا ! .. لم يعودوا يسمعون ذكر الثورة ! .. كيف تقول هذا واقرار الحرية ، وانتصارات جيوشنا ، والقصاص من

---

(٣٠) المقصود انهم اطلقوا هذين الاسمين على الملك ، وبالتالى على بطاقة « الروا » فى ورق اللعب .

الطغاة .. كلها أحداث ستدهش، ابعد الأجيال القادمة عن عصرنا ؟ .. كيف لم يتسن أن نهزم فى كل هذه ؟ .. ماذا ! .. ان طائفة الثائر يسوع تقوم منذ ثمانية عشر قرنا ، فكيف يقال أن عقيدة الحرية ستمحى ولما تنقض أربع سنوات على قيامها ! »

ولكن « جان بليز » قال فى شعور بالتعالى والتفوق: « انك تعيش فى حلم ياصديقى ، أما أنا فأعيش فى الحياة . صدقنى ياصاحبى ، فان الثورة معجزة ، وقد مكثت أكثر مما ينبغى .. خمس سنوات من التحمس ، خمس سنوات من العناق والفرح ، ومن المذابح ، ومن الخطب ، ومن « المارسلييز » ، ومن دق النواقيس لاستنفار القوم ، ومن الارستقراطيين المعلقين على أعمدة المصابيح ، ومن الرؤوس المحملة على الحراب ، ومن النساء على الجياد التى تجر المدافع ، ومن أشجار الحرية تعلوها القلنسوة الحمراء ، ومن الفتيات والشيوخ يساقون فى ثياب بيضاء فى عربات الزهور ، ومن السجن ، ومن المقصلة ، ومن تحديد المؤن ، ومن المنشورات ، ومن الشعارات ، ومن المنصات ، ومن السيوف ، ومن « الكارمانيولات » .. انها لقائمة طويلة ! ثم أن القوم بدأوا يفطنون الى أنهم لا يفهمون شيئا . لقد رأينا أكثر مما ينبغى من هؤلاء المواطنين الكبار الذين لم تقودوهم الى (الكابيتول) الا لتلقوا بهم بعد ذلك من أعلى صخرة (تاربيينى) (٣١) ، أمثال نيكر ، وميرابو ، ولافاييت ،

---

(٣١) الكابيتول معبد للرب « جوبيتر » وحصن أقامه الرومان على جبل (كابيتولان) أو (تاربينى) ، احد الاعمدة السبعة التى قامت عليها (روما). وكان الرومان يكرمون الابطال فى المعبد ، ويلقون الخونة من فوق صخرة (تاربيينى) القريبة منه . فالعبارة اشارة الى أن الفرنسيين كانوا لايلبثون ان يهدموا الزعماء الذين يرفعونهم .

وبيلى ، وبيتون ، ومانويل ، وكثير سواهم ! .. ومن يذرينا انكم لم تعدوا المصير ذاته لابطالكم الجدد ؟ .. لم يعد احد يدرى .. »

فقال جاميلان بلهجة ردت تاجر الصور الى صوابه: «اذكر أسماءهم أيها المواطن بليز . اذكر أسماء هؤلاء الأبطال الذين نعدهم للتضحية ! » . فبادر بليز قائلا ، وقد وضع يده على قلبه : « **اننى جمهورى ووطنى .. اننى أفوقك تحمسا للجمهورية ، كما اننى أكثر منك وطنية ، أيها المواطن أيفاريست جاميلان . ولست أرتاب فى وطنيتك ، ولاأتهمك بشىء من المروق** . ولكن .. اعلم أن وطنيتى واخلاصى للصالح العام تشهد بهما أعمال كثيرة . أما مبادئى ، فهذه هى : اننى اضع ثقتى فى كل فرد قادر على خدمة الأمة . وانى لأنحنى أمام الرجال الذين يختارهم الرأى العام للمهمة الخطيرة ، مهمة السلطة التشريعية ، مثل مارا ، ومثل روبسبيير . وانى لعلى استعداد لأن أعاونهم فى نطاق وسائلى البسيطة ، وان أقدم لهم الجهود المتواضعة التى يستطيعها المواطن الصالح . وان اللجان لتشهد على حماسى وعلى ولائى . فبالاشتراك مع وطنيين صادقين ، وفرت الشعير والعلف لفرساننا البواسل ، والأحذية لجنودنا . وقد أرسلت ـ فى هذا اليوم بالذات ـ ستين ثورا الى (فيرنون) لجيشنا فى (ميدى) ، عبر بلاد موبوءة بقاطعى الطرق ، ومغلوبة أمام بعثات « بيت » و « كونديه » . اننى لا أتكلم، وانما أعمل ! »

وأعاد «جاميلان» الصور ذات الألوان المائية بهدوء الى حافظته ، التى عقد اربطتها ثم دسها تحت أبطه ، وقال وهو يصر على أسنانه : « انه لتناقض غريب أن يساعد امرؤ

جنودنا على أن يحملوا فى عرض الدنيا وطولها هذه الحرية التى يخونها فى موطن اقامته ، اذ يبث الاضطراب والقلق فى نفوس المدافعين عنها .. سلاما أيها المواطن بليز ! »

***

وقبل أن يعرج الى الزقاق الممتد بطول معهد الخطابة والبيان ، التفت جاميلان — وقلبه مفعم بالحب وبالسخط — ليلقى نظرة على القرنفلات الحمراء المزدهرة على حافة نافذة معينة ..

وما قطع الشاب رجاءه فى نجاة وطنه .. بل كان من جراء عدم وطنية « جان بليز » أن راح جاميلان يزن ايمانه الثورى. **والفى لزاما عليه أن يعترف بأن هذا التاجر لم يكن بلا أسباب ظاهرة ، اذ زعم أن أهل باريس لم يعودوا مهتمين بالأحداث. فوا أسفاه !** .. كان من المؤكد — كل التأكيد — أن الحماس الذى تجلى فى الساعة الأولى ، قد أعقبه عدم اكتراث عام.. فلن ترى ثانية تلك الجموع التى كانت تحتشد فى سنة ١٧٨٩ ، ولن ترى مرة أخرى تلك الملايين المنسجمة التى كانت تتزاحم — فى سنة ١٧٩٠ — حول المذبح الذى أقسم عنده المتحدون **(٣٢)** .. لا بأس ! ان المواطنين الصالحين لن يلبثوا أن يضاعفوا الحمية والحماس ، وأن يوقظوا الشعب الوسنان ، بأن يخيروه بين الحرية والموت !

هكذا راح « جاميلان » يفكر ، وطيف « ايلودى » يعزز روحه المعنوية . فلما وصل الى منطقة الميناء ، أبصر الشمس

---

(٣٢) اقيم فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ احتفال عظيم ، لمرور عام على سقوط الباستيل . وهناك وجد النواب الجدد لثلاث وثمانين دائرة ، أن ٦٠٠٠٠٠ من الشعب جاءوا يؤازرونهم فى تأييد الدستور الجديد . وحضر لويس السادس عشر الاحتفال ، واقسم على صيانة هذا الدستور .

تنحدر عند الأفق ، تحت سحب ثقال ، شبيهة بجبال من حمم متأججة .. وكانت سقوف المدينة تسبح فى ضوء ذهبى ، وزجاج النوافذ يعكس وميضا متألقا . فتمثلت لخيال جاميلان رؤى «التيتان» (٣٣) ، وقد انقضت عليهم الصواعق فأحالتهم حديدا محميا .. واطلال العوالم القديمة المضطرمة .. و (ديسه) مدينة النحاس الأحمر !

واذ لم يكن يملك لقمة واحدة لأمه ولنفسه ، فقد راح يحلم بالجلوس الى المائدة التى لا نهاية لها ، التى يدعى اليها الكون وتجلس اليها البشرية بعد بعثها وتجددها . وفى انتظار يوم هذه المائدة ، راح يقنع نفسه بأن الوطن أم رؤوم تطعم أبناءها البررة . وكافح — فى ذهنه — سخريات تاجر الصور ، وأخذ يحث نفسه على الايمان بأن فكرته بصور أوراق اللعب الثورية كانت جديدة وصالحة ، وان بطاقاته المصورة ، الملونة ، لن تلبث أن تحرز نجاحا كبيرا ، وان الثروة فى متناوله حقا . ومضى يقول لنفسه : « لسوف يحفر ديماهى البطاقات ، وسنتولى بنفسينا طبع ونشر اللعبة الوطنية الجديدة ، وكلنا ثقة من بيع عشرة آلاف — بسعر عشرين « سول » للواحدة — فى بحر شهر واحد ! »

وفى تلهفه على تحقيق هذا المشروع ، يمم صوب ضفة (لافيران) ، حيث كان « ديماهى » يقيم ، فوق حانوت تاجر للزجاج . ودخل عن طريق المتجر ، فأنبأه تاجر الزجاج بأن المواطن «ديماهى» لم يكن فى مسكنه . ولم يثر هذا كثير دهشة لدى الرسام ، اذ كان يعرف أن صديقه أوتى

(٣٣) فى الأساطير أن « التيتان » كانوا شعبا خليطا من أبناء السماء والأرض ، تمردوا على الآلهة ، وحاولوا أن يرقوا الى السماء ، بوضع جبل فوق جبل . ولكن « جوبيتر » صعقهم . ويتخذون — فى الأدب — رمزا لمن يحاولون تحقيق مشروعات مستحيلة .

ميلا الى التشرد والانحلال .. انما الذى كان يدهشه حقا ، هو أن يستطيع امرؤ مثله أن يحفر كثيرا من الصور ، وبمثل مهارته ، برغم قلة مثابرته على العمل . ورأى جاميلان أن ينتظر صاحبه هنيهة ، فقدمت اليه زوجة تاجر الزجاج مقعدا . وكانت امرأة نكدة ، راحت تشكو الأحوال التى كانت قد ساءت بالرغم مما قيل من أن الثورة قد اغنت تجار الزجاج ، بما حطمت من نوافذ !

وأرخى الليل سدوله ، فاستأذن جاميلان زوجة تاجر الزجاج فى الانصراف ، وقد عدل عن انتظار زميله . وفيما كان يجتاز الجسر الجديد (بون – نيف) ، رأى فريقا من الحرس الوطنى مقبلين من رصفة (مورفوندى) ، وقد امتطوا الخيل ، وامسكوا بالمشاعل ، وراحوا يفسحون طريقا بين المارة ، وقد انبعثت من سيوفهم صلصلة عالية ، وهم يرافقون عربة صغيرة كانت تقل – ببطء – الى المقصلة رجلا لم يكن ثمة من يعرف اسمه .. كان احد الأشراف السابقين ، وكان اول من قضت عليه المحكمة الثورية الجديدة بالاعدام . وكان يرى بعناء بين قبعات الحرس ، وقد جلس ويداه معقودتان خلف ظهره ، ورأسه عار يتأرجح . ووجهه نحو مؤخرة العربة .. والجلاد يستوى واقفا على مقربة منه ، وقد اتكأ على سياج العربة .. وكان المارة يقفون عن السير ، ويقولون فيما بينهم أنه – ولا بد – احد الذين كانوا يجيعون الشعب ، فيرمقونه فى غير احتفال .

واذ اقترب جاميلان ، تبين ((ديماهى)) بين النظارة ، وهو يزاحم الحشد ، ويحاول أن يشق طريقا خلال الموكب . فناداه ، ووضع يده على كتفه . والتفت اليه ((ديماهى)) ، فاذا هو شاب جميل ، قوى .. قيل فى معهد الفنون –

يوما — أن له رأس « باكوس » (٣٤) على جسد هرقل . وكان أصدقاؤه يسمونه « باربارو » لشبهه بهذا النائب من نواب الشعب .

وقال له جاميلان : « تعال ، فانى أريد أن أحدثك فى مسألة هامة ! » . ولكن ديماهى أجاب فى عنف : « دعنى ! » . وألقى ببضع كلمات غير مسموعة ، وهو يتعجل لحظة الاندفاع بين الحشد : « اننى أتعقب امرأة من السماء ، ذات قبعة من القش .. انها من العاملات فى احدى دور الأزياء ، ولها شعر أصفر مسترسل على ظهرها .. لقد فصلتنى عنها هذه العربة اللعينة .. لقد سبقتنى الفتاة ، وهى الآن عند نهاية الجسر ! »

وحاول جاميلان أن يتشبث بسترته ، مقسما أن الأمر الذى كان لديه هاما . ولكن ديماهى كان قد أفلت منه بين الجياد والحرس والسيوف والمشاعل ، وانطلق فى أثر الآنسة المشتغلة بالأزياء !

---

(٣٤) باكوس اله الخمر عند الرومان .

الفصل الرابع

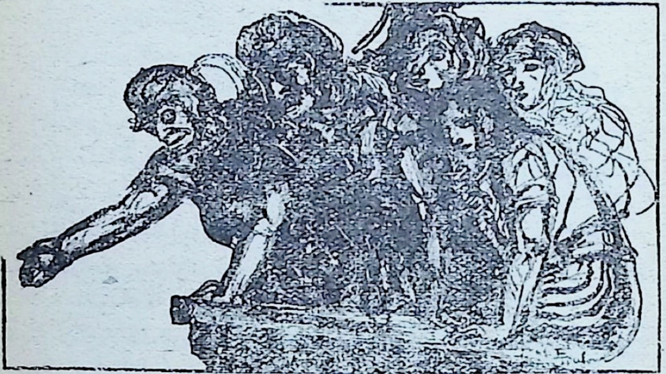

• **كانت** الساعة العاشرة صباحا ، وشمس شهر ابريل تغمر بالضوء أوراق الأشجار الفضة .. وشاعت فى الهواء عذوبة رقيقة ، بعد أن نقته الزوبعة - التى هبت بالليل - من أوشابه . وبين فترات طويلة ، كان أحد الفرسان يمر فى درب الأرامل (آليه ديه فيف) ، فيبدد السكون الموحش. وعلى حافة الدرب الظليلة - فى مواجهة كوخ « ليلواز الحسناء » - راح « ايفاريست » ينتظر « ايلودى » ، على مقعد خشبى . ولم يكن قد عاد الى « لامور بانتر » منذ اليوم الذى التقت فيه أصابعهما على قماش الوشاح ، وامتزجت فيه أنفاسهما . **اذ أن كبرياءه - التى كانت تتحدى كل ألم - وحياءه الذى كان يزداد جموحا باستمرار ، أبقياه**

بمناى عن « ايلودى » . ولقد كتب لها خطابا رزينا ، حزينا ، حارا ، عبر فيه عن الأمور التى ساءته من المواطن « بليز » ، واعلن - وهو يكتم هواه ، ويتحاشى ذكر لوعته - عزمه على أن لا يعود الى متجر الصور . وأبدى فى تنفيذ هذا العزم حزما فوق ما تحتمله أو تقره أية عاشقة !

على أن « ايلودى » كانت ذات طبيعة على النقيض من هذا ، وكانت حريصة على أن تذود عن مصلحتها فى كل المناسبات ، ومن ثم فانها عكفت لفورها على التفكير فى استعادة صاحبها . ولقد خطر لها أن تذهب فتزوره فى مسكنه .. فى المرسم القائم فى ميدان (تيونفيل) . ولكنها كانت تدرك انه ذا مزاج آس ، وقد حدست من خطابه أن نفسه مهتاجة ، ولكنها خشيت ان يبسط سخطه على الأب فيلف به الابنة ، وان يكون رأيه قد استقر على أن لا يراها ثانية ، فرأت أن من الأفضل أن تتيح له لقاء عاطفيا شاعريا لا يستطيع فيه أن يتملص من رؤيتها ، بل يتسع لها الوقت - خلاله - لاغرائه وارضائه ، وتتآمر معها - فيه - العزلة على فتنته والتغلب عليه .

وكانت الحدائق الانجليزية جميعا - لا سيما المتنزهات الحديثة - تضم فى تلك الأيام أكواخا أقامها أساتذة فى فن المعمار ، لتستهوى ما فى نفوس سكان المدن من نزوات فطرية برية . فكان كوخ « ليلواز الحسناء » - الذى شغله بائع لشراب الليمون - يقوم بمظهره المتواضع على أطلال حصن قديم ؛ قلدت بمهارة فنية ، بحيث امتزجت فى شكله فتنة الريف وكآبة الاطلال . وكأنما لم يكن يكفى لاثارة النفوس الحساسة بمرأى كوخ وحصن متهدم ، فأقام بائع شراب الليمون قبرا تحت صفصافة ، وعمودا تعلوه احدى الجرار

الجنائزية وقد نقش عليها : « من كليونيس الى حبيبها الوفى آزور » ! .. **اكواخ ، وأطلال ، وقبور .. لقد أقامت الارستقراطيه ـ قبل هلاكها ـ فى المتنزهات الموروثة هذه الرموز التى تنم عن البؤس ، والفناء ، والموت ! ..** وقد أصبح سكان المدن الوطنيون يستطيبون الشراب والرقص وتطارح الحب فى هذه الأكواخ الزائفة ، وفى ظلال دهاليز زائفة اصطنع فيها البلى والتهدم ، وبين قبور زائفة .. فلقد كانوا سواء فى حب الطبيعة والتتلمذ على «جان ـ جاك» ، وكانوا سواء اذ اوتو قلوبا مرهفة الحس، مفعمة بالفلسفة !

***

ولما كان « ايفاريست » قد وصل الى الملتقى قبل الموعد المحدد ، فانه راح ينتظر ، وكأنما كان قلبه بندول ساعة يحصى الدقائق بخفقاته . ومرت شرذمة من الجند تسوق بعض المسجونين . وبعد عشر دقائق ، تسللت الى الكوخ امرأة فى ثياب كلها وردية اللون ، وقد حملت فى يدها باقة من الزهر ـ على مألوف العادة اذ ذاك ـ وفارس ذو قلنسوة ثلاثية الأركان ، وسترة حمراء ، وصديرى وسروال مخططين . **وكانا يبدوان معا على نسق عشاق العهد الماضي، مما كان يوحى ـ مصداقا لقول المواطن بليز ـ بأن ثمة طباعا فى بعض النفوس ، لم تبدل الثورة منها شيئا البتة !**

وبعد لحظات اخرى ، اقبلت من (رويى) أو من (سان كلو) امرأة عجوز ، حملت على ساعدها صندوقا اسطوانيا ، طلى بألوان زاهية . فجلست على المقعد العريض الذى كان جاميلان يجلس عليه منتظرا . ووضعت امامها صندوقها الذي كان غطاؤه يحمل ابرة متحركة ، تشير الى السلع

التى تستخرج من جوفه . فقد كانت العجوز المسكينة تبيع الحظ لصغار الأطفال ، فى الحدائق . كانت تتجر فى « الحظوظ المشتهاة » ، وهو اسم جـديد أطلق على نوع قديم من الحلوى ، كان يسمى منذ عهد لا سبيل الى تذكره بـ « النسيان » .. وسواء لأن اسم « النسيان » يوحى بفضاضة الفناء ومرور العمر ، أو لأن الاهواء قد تقلبت ، فان « النسيان » أصبح يسمى « الحظ المشتهى » !

ومسحت العجوز العرق عن جبينها بطرف من مرولتها، ثم رفعت رأسها تنفث شكاواها للسماء ، متهمة الله بالظلم اذ جعل الحياة عسيرة على مخلوقاته . فقد كان زوجها حارسا لموقع لصيد السمك فى (سان كلو)، على ضفة النهر. **وكانت هى تفـد ـ فى كل يوم ـ الى (الشانزليزيه) تدق صندوقها بعصاتها وتنادى : « هاهى ذى الحظوظ المشتهاة ياسيداتى ! » .. وما كان الزوجان ليحصلا من كل هـذا العمل على ما يقيم أودهما فى شيخوختهما .**

واذ انست من الشاب ـ الذى كان يجاورها على المقعد ـ ميلا الى سماع شكواها ، اسهبت فى شرح علة شقائها .. تلك هى الجمهورية التى حرمت الفقراء من لقمة العيش ، حين جردت الأغنياء من ثرواتهم . ولم يك ثمة ما يدعـو للأمل فى تحسن الأحوال ، بل ان العجوز كانت ترى ـ من بعض الشواهد ـ أن الأمور لم تكن تسير الا من سىء الى اسوأ . ففى (نانتير) ولد طفل وله راس أفعى ، وأنقضت الصاعقة على كنيسة (رويى) فصهرت الصليب الذى يعلو برج الجرس ، وشوهد ذئب مسعور فى غابة (شافيل) ..

كما أن رجالا ملثمين سمموا موارد المـاء ، ونثروا فى الهواء مساحيق تجلب الأمراض (٣٥) ..

***

ورأى ايفاريست « ايلودى » تثب من مربـة ، فجـرى نحوها . وكانت عينا الشابة تلمعان فى الظل الرقيق الذى القته عليهما حواف قبعتها المصنوعة من القش .. والشفتان تبتسمان ، وهما اكثر حمرة من القرنفلات التى أمسكتهـا بيدها . وعلى صدرها تقاطع طرفا وشاح اسود ، ليلتقيا فى عقدة على الظهر . وكان ثوبها الأصفر يشف عن حركات الركبتين السريعة ، وينحسر عن القـدمين اللتين انتعلتا حذاءين مبسوطى النعلين (بلا كعبين !) . وكان الفخـذان متحررين ـ تقريبا ـ من قيود الثوب ، اذ أن الثورة كانت قد حررت ازياء المواطنات ، بينما كانت « الجونلة » تنتفخ فوق الردفين ، فتموه شكلهما اذ تضاعف من حجميهما ، وتخفى الحقيقة اذ تصورها مضخمة !

وود أن يتكلم ، فاستعصت عليه الكلمات ، ولام نفسـه على هذا الارتباك الذى كانت « ايلودى » تفضله على ارق ترحاب .. ولاحظت انه كان قد عقـد رباط رقبته بأناقة تفوق ما اعتاد ، فاستبشرت بهذه البادرة . وبسطت اليه يدها قائلة : « لقد اردت أن اراك لأتحدث اليك . اننى لم أرد عن خطابك ، اذ انه ساءنى ، ولم أعثر فيه على شىء من نفسك .. ولو انه كان طبيعيا ، لجاء أكثر لطفا مما هو . وانه لمن الاساءة الى شخصيتك والى روحك أن تفكـر فى

---

(٣٥) كانت الشائعات الخرافية ، التى تصادف موقعا من نفوس الجهلاء السذج ، سلاحا من الاسلحة التى استغلها اعداء الثورة .

العزوف عن الرغبة فى العودة الى التردد على« لامور بانتر »، لمجرد انك صادفت خلافا بسيطا فى السياسة مع رجل يكبرك سنا بكثير . الا ثق من انه ليس لك أن تخشى البتة أن يسيء ابى استقبالك ، اذا ما جئت لتزورنا . **انك لاتعرفه، فهو لايذكر ما قاله لك ، ولا ما رددت به عليه . ولست أجزم بأن ثمة تعاطفا قويا بينكما ، ولكنه لا يكن لك موجدة، وأصارحك بأنه لا يشغل كثيرا بك .. ولا بى أنا ، فهو لا يفكر الا فى شؤونه وملذاته !))**

وسارت على مهل نحو الاشجار المتكاثفة حول الكوخ ، فتبعها على شيء من المضض ، اذ كان يعلم أن هناك ملتقى العشاق الذين يشترون الهوى والعاشقات اللائى يبعنه ، ومرتع الحب العابر . واختارت الشابة مائدة كانت اكثر الموائد تواريا عن الانظار .

ـ ما أكثر ما لدى من أشياء أريد ان أقولها لك ياايفاريست ! .. ان للصداقة حقوقا ، فهل تسمح لى بأن أفيد منها ؟ .. لسوف أتحدث اليك كثيرا عن نفسك .. وقليلا عن نفسى » اذا راق لك ذلك !

وكان بائع شراب الليمون قد أحضر قنينة وكوبين ، فصبت الشراب بنفسها فى مهارة ربة البيت ، ثم راحت تروى له قصة طفولتها .. وحدثته عن جمال أمها التى كانت تحب ان تستعيد ذكراها بحكم عاطفة البنوة ، ولأنها كانت مصدر جمالها الشخصى .. واطنبت فى وصف بأس اجدادها وشهامتهم ، اذ كانت تعتز بدمها « البورجوازى ». وحكت كيف فقدت تلك الأم الرائعة ـ وهى فى السادسة عشرة ـ فاصبحت تعيش بلا حنان وبلا نصير . فكونت

نفسها بنفسها لتصبح على ما كانت عليه : نشيطة مرهفة الحس ، شجاعة .

واردفت قائلة : « لقد قضيت يا ايفاريست صباى فى جو حزين موحش الى الدرجة التى مكنتنى من أن أعرف قيمة قلب مثل قلبك . **وأصارحك بأننى لن أتخلى من تلقاء نفسى ، ولا دون نضال ، عن عطف ظننت أن لى أن أعول عليه ، وكنت أعتز به ! »**

فرمقها ايفاريست بحنان ، وقال : « أمن الممكن حقا ـ ياايلودى ـ ان أكون شيئا يذكر لديك ؟ .. هل لى أن أعتقد هذا .. ؟ » . وامسك خشية أن يجمح به القول ، فيسىء الى صداقة وثيقة كهذه . فمدت اليه يدا صغيرة عارية ، خرجت ـ الى منتصف الساعد ـ من كمين طويلين ضيقين مزدانين بـ « الدانتيلا » ؛ وقد ارتفع صدرها فى انفاس طويلة . وقالت : « أنسب الى يا ايفاريست كل العواطف التى تبغى أن تكون لدى نحوك ، ولن تكون مخدوعا فى ميول قلبى ! »

ـ ايلودى ، ايلودى ! .. أصحيح هذا الذى قلت ؟ .. هل ترددينه ثانية اذا عرفت .. ؟

وامسك مترددا ، فغضت بصرها .. وأكمل عبارته بصوت خفيض : « **.. اننى أحبك ؟ »**

وتضرج وجهها عند سماع هذه الكلمات الأخيرة ، فقد كانت عذبة . وبينما طفحت عيناها بنشوة حنون ، طفت ـ على الرغم منها ـ ابتسامة ساخرة رفعت ركنا من شفتيها .. وقالت لنفسها : « كأنه يظن أنه الأسبق الى البوح ؟ ! .. ولعله يخشى أن يكون قد اغضبنى ! »

وقالت له فى ترفق : « ألم تر اذن ياصديقى اننى .. أحببتك ؟ »

وخيل اليهما أن ليس فى العالم سواهما . وفى غمرة النشوة ، رفع ايفاريست عينيه صوب السماء المتألقة بالنور والزرقة الصافية ، وهتف : « أنظرى ! ان السماء ترقبنا ! .. انها لفاتنة وعطوف مثلك ، يا أعز حبيبة ! .. ان لها اشراقك ، ولطفك ، وابتسامتك ! »

وأحس بأنه قد امتزج بالطبيعة كلها ، فأشركها معه فى حبوره وتوفيقه . وبدا لعينيه أن زهور الكستناء كانت تشتعل كالشموع ، وأن أشجار الحور كانت تتأجج كمشاعل سامقة ، لتحتفل بخطبتهما .

وانتشى اغتباطا بنفوذه وعظمته . أما هى فقد أسلمت نفسها للضعف ، اذ كانت بطبعها أكثر رقة ونعومة وليونة وانقيادا . وما أن رأته ينهزم ، حتى خضعت له .. **وبعد أن جعلته تحت سلطانها ، جعلت منه السيد والبطل والاله، وراحت تتحرق شوقا الى أن تطيعه ، وأن تتعبد اليه ، وأن تقدم له نفسها . وفى ظلال الخميلة ، منحته قبلة طويلة ، ملتهبة ، مالت برأسها تحت وطأتها .. وبين ذراعى ايفاريست أحست بجسدها ينصهر عن آخره ، وكأنه شمع !**

ومكثا طويلا فى شغل بنفسيهما عن الكون كله . وراح ايفاريست يشرح — بوجه خاص — آراءه التى كانت خالصة نقية ، ومبهمة فى آن واحد ، والتى ألقت ايلودى فى أحضان الحيرة .. أما « ايلودى » — من ناحيتها — فقد تحدثت عن أشياء رقيقة ، نافعة ، وذات طابع شخصى . حتى اذا قدرت ان ليس بوسعها أن تمكث أكثر من ذلك ، نهضت فى عزم ،

فأعطت حبيبها القرنفلات الحمراء الثلاث ، التى تنمو فى نافذتها ، وقفزت برشاقة الى العربة التى كانت قد جاءت بها . وكانت عربة من عربات الأجرة ، مطلية باللون الأصفر، ومرتفعة جدا فوق العجلات . ولم يكن فيها ما يستغرب اللهم الا الحوذى . ولكن جاميلان لم يكن قد اعتاد — هو ومن كانوا يحيطـون به — ركوب العـربات . فما أن رأى العربة تجرى على عجلاتها ، حتى تولى قلبه انقباض ؛ وأحس بشعور محزن يستبد به ، وبنوع من الهوس العقلى. خيل اليه أن حصان العربة كان يقل « ايلودى » من حيث الواقع والحاضر ، منطلقا بها الى مدينة غنية طروب ، والى مساكن مترفة مفعمة بالمباهج ، لن يقدر له هو ان ينفذ اليها قط !

***

واختفت العربة ، فهدأ اضطراب ايفاريست ، وأن بقيت فى نفسه لوعة حادة . وشعر بأن الساعات المفعمة بالحنان والسلوى التى عاشها ، لن يقدر له ان ينعم بمثلها ثانية . وانطلق خلال (الشانزليزيه) ، حيث كانت النسوة يجلسن على مقاعد من الخشب ، وهن فى اثواب خفيفة ، يتجاذبن اطراف الحديث ، بينما كان أطفالهن يلعبون تحت الاشجار. **وصادف امرأة تبيع حلوى « الحظوظ المشتهاة » ، وقـد حملت صندوقا على هيئة الطبل ، فذكرته ببائعة الحلوى التى صادفها فى درب الأرامل (آلليه ديه فيف) ، وخيـل اليه أن دهرا من حياته قد انقضى بين المصادفتين .**

وعبر ميدان الثورة .. وفى حدائق (التويلرى) سـمع الضجيج الهائل المـألوف فى الايام الحافلة بالاحـداث ، ينبعث من بعيد .. تلك الاصوات المتصاعدة فى اجمـاع ،

والتى كان أعداء الثورة يزعمون انها ستقضى على نفسها بنفسها ، فلا تقوم لها قائمة قط . وغذ الخطى نحو الصخب المتضاعف ، حتى بلغ شارع (أونوريه) ، فألفاه زاخرا بحشد من الرجال والنساء ، الذين كانوا يهتفون : « الحياة للجمهورية .. الحياة للحرية ! » . وكانت أسوار الحدائق ، والنوافذ، والشرفات، وسطوح المنازل، غاصة بالنظارة الذين راحوا يلوحون بالقبعات وبالمناديل . وكان ثمة جندى يفسح طريقا للموكب الذى ضم موظفى البلدية ، والحرس الوطنى، والمدفعية ، والشرطة ، والفرسان ، وقد التفوا حول رجل كان يتقدم ببطء على رؤوس المواطنين .. رجل أصفر الوجه ، طوق جبينه تاج من زهور أشجار السنديان ، وقد التف جسده فى عباءة قديمة خضراء ، ذات ياقة من فراء السمور . وكانت النساء يرمينه بالازهار ، وهو يجيل حوله نظرات ثاقبة من عينيه الصفراوين ، كما لو كان يبحث — فى هذا الحشد المتحمس — عن مزيد من أعداء الشعب ليفضحهم ، ومن الخونة ليسوقهم للعقاب . **وعندما مر بجاميلان ، ضم هذا صوته الى مائة ألف صوت ، وصاح وقد خلع قلنسوته : « ليحى مارا ! »**

ودخل الزعيم المظفر قاعة « المؤتمر » وكأنه القضاء ، بينما تفرقت الجموع على مهل . وجلس جاميلان على حجر بشارع (أونوريه) ، وهو يضغط على قلبه بيده ليخفف من حدة خفقاته . فان ما رآه ملأ صدره بانفعال علوى ، وبتحمس مشبوب . فقد كان يبجل « مارا » .. كان يعتز بهذا المريض ذى الأعصاب الملتهبة ، الذى كانت القرح تنهش جسده ، والذى كرس ما تبقى من قواه لخدمة الجمهورية، والذى كان يستقبله — فى منزله المتواضع ، المفتوح الأبواب

للجميع - وهو باسط ذراعيه ، فيحدثه فى حمية عن الصالح العام ، ويسأله أحيانا عن مشروعات الخونة الأشرار . **وكان جاميلان جد مغتبط لأن أعداء هذا الزعيم البار قد مهدوا لانتصاره بتآمرهم على هلاكه . ولقد حمد للمحكمة الثورية أنها اذ برأت «صديق الشعب» ردت الى المؤتمر أشد المشرعين حمية ، وأوفرهم صدقا وطهرا .**

وتمثل لعينيه ذلك الرأس الملتهب بالحمى ، المطوق بأكليل الوطنية .. والوجه الذى كان يحمل طابع الاعتزاز بالفضيلة، والحب المجرد من الضعف .. ذلك الوجه المكدود ، المشوه، - الذى يحمل برغم ذلك سمات القوة - والفم الملتوى ، والصدر العريض .. ذلك القوام الربعة الذى كان مشرفا على الفناء ، والذى بدا كأنه يقول لمواطنيه من فوق محفة النصر المؤلفة من أكتاف ورؤوس الأحياء : « كونوا - مثلى - محبين للوطن حتى الموت ! »

واقفر الشارع ، وكساه الليل بظلمته . واقبل العامل الموكل بايقاد المصابيح ، وقد حمل مشعله ، فغمغم جاميلان: « اجل .. حتى الموت ! »

الفصل الخامس

• فى الساعة التاسعة صباحا ، وجد ايفاريست «ايلودى» فى انتظاره على أحد مقاعد حديقة (لوكسمبورج) .

كانا مذ تبادلا الاعتراف بالحب – منذ شهر – يتزاوران: اما فى « لامور بانتر » ، أو فى مرسم ميدان (تيونفيل) . وكانت لقاءاتهما جد عاطفية ، يصحبها دائما تحفظ كان يفرضه على حبهما طابع شخصية المحب الرزين الورع ، والمواطن المؤمن بالطبيعة ، والذى كان على استعداد لأن يتحد مع حبيبته العزيزة أمام القانون ، أو أمام الله وحده – تبعا للظروف – ولكنه لم يشأ ان يفعل ما لم يكن فى وضح النهار ، وجهارا . ولقد أدركت « ايلودى » – تمام الادراك –

ان هذا العزم كان شريفا كريما ، ولكنها فى قنوطها من زواج كان كل شىء يجعله مستحيلا ، وفى أبائها أن تتحدى قواعد العرف الاجتماعى ، تمثلت - فى قرارة نفسها - رابطـة يكسبها التكتم طابع الحشمة ، الى أن يجعلها مرور الزمن جديرة بالاحترام . وفكرت فى أن تتغلب يوما على وساوس عاشق أكثر وقارا مما ينبغى . ولم تشأ أن تتلكأ فى الكشف له عن بعض الأمور الضرورية ، فسألته أن يلقاها ساعة فى الحديقة الخالية من الرواد ، بالقرب من دير (شارترو) .

ورمقته بنظرة كلها حنـان وصراحـة ، وتناولت يده فاجلسته الى جانبها ، وقالت له وهى تستجمع كل قواها الفكرية :

- اننى أقدرك يا ايفاريست الى الدرجـة التى ينبغى عندها الا اكتمك شيئا . اننى لأعتقد اننى أهل لك ، وماكنت لأصبح كذلك اذا لم أقل لك كل شىء . فانصت الى ، وكن قاضيا فى امرى . لست أحمل وزر اثم ألوم عليه نفسى ، وضيعا كان أو مجرد عمل أنانى . لقد كنت ضعيفة ، وغريرة اصدق كل شىء بسهـولة .. ولا تغفـل ياحبيبى الظروف العسيرة التى كنت فيها ، وانك لتعرفها .. فقد حرمت من الأم ، وكان أبى لا يزال شابا ، فلم يفكر الا فى ملاهيه ، ولم يشغل باله بأمرى . وكنت مرهفـة الحس ، اذ وهبتنى الطبيعة قلبا رقيقا ، ونفسا كريمة .. ومع أنها لم تأب على ادراكا أكيدا .. وسليما ، الا أن العاطفة كانت تسود العقل عندى ، فى ذلك الوقت . وياللأسف ! .. وكان من الممكن أن تطغى عليه اليوم كذلك ياايفاريست ، لولا أن العقـل والعاطفة اتفقا وأجمعا على أن أمنحك نفسى باكملها ، والى الأبد !

وكانت تتكلم بقدر ، وبحزم .. كان حديثها معـدا من قبل ، فقد عقدت العزم على الأدلاء باعترافها هذا منذ زمن طويل ، لأنها كانت صريحة ، ولأنه كان يروقها أن تحــذو حذو « جان ـ چاك روسو » ، ولأنها كانت تقول لنفسها عن منطق وتفكير : « لسوف يعـرف ايفاريست يوما أسرارا لست أكتمها وحـدى ؛ ومن ثم فالخير فى اعتـراف تكون حريتى ـ فى ارسـاله أو امسـاكه ـ عامـلا يستوجب لى الثناء .. فأطلعه على ما سوف يعرفه يوما فلا يستوجب اذ ذاك سوى خزيى وعارى ! » . ونظرا الى ما كانت عليه من رقة ، ولمـا فطرت عليه من وداعة ؛ فانها لم تر نفسها عظيمة الحرم . ومن ثم كان اعترافها أقل ايلاما وعناء . وقد آلت ـ من قبل ـ أن لا تقول سوى ما كان قوله ضرورة لازمة . ومن ثم فانها تنهـــدت قائلة : « آه ! .. لماذا لم تسقك الاقدار الى ، ياعزيزى ايفاريست ، فى تلك الفترة التى كنت فيها وحيدة ، مهملة ؟ » ...

وكان « جاميلان » قد اخذ طلب « ايلودى » اليه أن يكون قاضيا فى أمرها ، بمعناه الحرفى . واذ كان معدا ـ بطبيعة دراسته الأدبية ـ لممارسة البت فى الأمور الشخصية ، فقد تأهب لتلقى اعترافات « ايلودى » . فلما ترددت ، أومأ لها كى تتكلم . فقالت فى بساطة تامة :

ـ لقد قدر لى أن يعجب بى يوما شاب كانت خصـاله الطيبة قليلة بالنسبة لمـا أوتى من خصال ذميمة ، ولكنـه لم يكن يبدى سوى الأولى .. فشغل بى فى الحاح أدهش أهله ، اذ كان فى مقتبل الشـبـاب ، مفرط الحسن ، على علاقة بنساء فاتنات لم يكن يخفين شيئا من شغفهن به . وما اهتممت به لجماله ، ولا للباقته .. ولكنه عرف كيف

يؤثر على ، بما راح يشهدنى عليه من حبه ، فاعتقدت أنه قد أحبنى حقا .. كان رفيقا ، ملحاحا . ولم ابتغ أن أرتبط بغير قلبه .. وكان قلبه متقلبا ! .. لست أوجه الاتهام

الا لنفسى ، وهذا اعترافى بذنبها ، وليس بذنبه . لست أشكوه ، فانه لم يعد سوى غريب بالنسبة لى . آه ! .. أقسم لك ياايفاريست أنه أصبح بالنسبة لى كأنما لم يكن له وجود البتة !

***

وسكتت . فلم يحر جاميلان جوابا ، بل عقد ذراعيه ، وجمد بصره فى اكتئاب . وراح يفكر فى حبيبته وفى أخته « جولى » ، فى آن واحد .. كانت « جولى » قد أنصتت ـ هى الاخرى ـ الى عاشق ، ولكنها ـ كما جال بفكره ـ كانت على النقيض من «ايلودى» التعسة .. **فقد استسلمت للفتنة ، لا نتيجة خطأ قلب مرهف الحس ، وانما لتحظى بالترف والمتعة ، بعيدا عن أهلها . وكان جاميلان ـ فى صرامته ـ قد أدان اخته ، وقد مال الى ان يدين حبيبته !**

وعادت «ايلودى» تقول بصوت مفرط النعومة والعذوبة :

ـ كنت مليئة بالفلسفة (٣٦) ، وكنت اعتقد ان الرجال امناء بطبيعتهم . وكان سوء حظى ان التقيت بحبيب لم تهذبه مدرسة الطبيعة والمبادىء الخلقية ، ولكن الترهات والنعرات الاجتماعية ، والطموح ، وحب النفس ، وسوء التقدير للشرف ، جعلته انانيا ونذلا !

وانتجت هذه الكلمات ـ المنتقاة من قبل ـ الاثر المنشود . فلانت نظرة جاميلان ، وسألها : « من كان ذلك الذى اغواك ؟ .. أفأعرفه انا ؟ »

ـ لا ، انك لا تعرفه .

---

(٣٦) تقصد فلسفة « روسو » الذى كان يدعو الى الحب الطبيعى ، والى أن يتعاشر المحبان دون عقد رسمى ، اكتفاء بانهما يشهدان الله والطبيعة على زواجهما !

– سميه لى !

وكانت قد توقعت هذا السؤال ، وعقدت العزم على ان لا تجيبه . وبسطت حجتها قائلة : « ارجـو ان تعفينى .. لمصلحتك ولمصلحتى على السواء . فانى أرانى قد قلت اكثر مما ينبغى ! » . فلما ألح قالت : « ان المصلحة المقدسة لحبنا تستوجب ان لا اقول شيئا يكشف لذهنك ذلك .. الغريب . اننى لا أبغى ان ألقى على تفكيرك شبحا يثير غيرتك .. لا اريد أن أقيم ظلا مزعجا بينى وبينك . وما ينبغى ان اعرفك بهذا الرجل فى الوقت الذى نسيته انا فيه! »

وراح « جاميلان » يلح عليها لتبوح له باسم **« الغاوى »** .. وهو اللقب الذى أخذ يستخدمه فى اصرار ؛ اذ انه لم يرتب فى ان « ايلودى » قد اغويت ، وخدعت ، وغرر بها .. **بل انه لم يتصور ان من الممكن ان يكون الامر قد جرى على الوجه الآخر ، وان « ايلودى » قد انصاعت للشهوة – الشهوة الجامحة – وانها اصغت الى النصائح المعسولة المنبعثة من لحمها ودمها .. لم يتصور قط أن هذه المخلوقة المثيرة ، الناعمة العواطف .. ان هذه الضحية الجميلة قد قدمت نفسها بمحض اختيارها !..** بل رأى – لكى يرضى خياله – انها ولابد قد أخذت قسرا او بالحيلة ، فاغتصبت، وراحت تتخبط فى احابيل نصبت فى طريق كل خطوة من خطواتها . ومضى يوجه اليها اسئلة تناسب الحال ولكنها دقيقة ، ومحرجة ، ضيقت الخناق عليها . سألها : كيف نشأت تلك الصلة ؛ وهل كانت طويلة الأجل أو قصيرة ، وهل كانت هادئة أو محفوفة بالمتاعب ، وعلى أى وجه انقطعت.. وكان لا يكف عن العودة الى السؤال عن الوسائل التى استخدمها ذلك الرجل للاغواء ، وكأنما كان موقنا من انه

استخدم وسائل عجيبة ومزعجة . على ان كل هذه الاسئلة كانت عبثا ، فقد لاذت الشابة بالصمت فى اصرار رقيق لين ، وظل فمها مغلقا ، وعيناها مغرورقتين .

غير انها لم تلبث ان اجابت ، عندما سألها ايفاريست اين كان ذلك الرجل فى تلك الآونة : « لقد غادر المملكة ! » .. واستدركت فى عجلة : « .. فرنسا » . فصاح جاميلان : « اذن فهو مهاجر ! »

ورمقته فى صمت ، وقد طمأنها — واحزنها فى الوقت ذاته — ان تراه يوحى الى نفسه بحقيقة تتمشى مع مشاعره السياسية ، وتسبغ على غيرته لونا يعقوبيا لم يكن يكبد احدهما ثمنا !

والواقع ان عشيق « ايلودى » كان كاتبا صغيرا لدى أحد المحامين .. وكان فتى بارع الحسن ، مرحا كالجدول الطروب ، تدلهت الفتاة فى حبه ، وظلت ذكراه تبعث دفءا فى صدرها ، رغم انقضاء ثلاث سنوات !.. وكان يجرى وراء الفنيات المسنات ، وقد هجر ايلودى من اجل سيدة ذات تجارب تلائم مواهبه !.. وقد التحق — بعد مصادرة المكتب الذى كان يعمل فيه — بالهيئة الادارية لباريس .

وعاد جاميلان يردد : « اذن فهو نبيل ! .. مهاجر ! » .. وحرصت على أن تضلله ، وهى مطمئنة الى انه لن يعرف الحقيقة بأكملها اطلاقا .. وعاد يقول : **« وتخلى عنك بنذالة ؟! »**

ونكست رأسها ، فضمها الى قلبه قائلا : « ايتها العزيزة .. انك ضحية الفساد الملكى ، ولسوف ينتقم لك غرامى من ذلك الخسيس . الا ليت السماء تسوقنى الى لقائه .. سوف اهتدى اليه ! »

واشاحت عنه بوجهها ، وقد استولى عليها الاسى والابتسام وخيبة الرجاء معا ؟.. وودت لو انه كان اكثر فطنة الى امور الهوى ، واكثر انسياقا للطبيعة ، واشد جموحا وضراوة فى عواطفه . وبدا لها انه ما غفر لها بمثل هذه السرعة ، الا لانه اوتى خيالا باردا ، ولأن الاعتراف الذى ادلت به اليه لم يوقظ فى نفسه شيئا من الرؤى التى تعذب اصحاب العواطف الملتهبة .. ولانه ـ باختصار ـ لم ير فى زلتها سوى مسألة خلقية واجتماعية !

ونهضا ، فراحا يجوسان خلال دروب الحديقة الخضراء ، وقال لها انه اصبح اكثر تقديرا لها من قبل ، لما عانته من عذاب . وما كانت « ايلودى » لتسأله اكثر من هذا ، فانها كانت تحبه على علاته ، وكانت تعجب بالعبقرية الفنية التى كانت تراها تتأجج فيه !

وعند خروجهما من حديقة (لوكسمبورج) ، صادفا جموعا محتشدة فى شارع المساواة (دى ليجاليتيه) ، وحول مسرح الامة من كل جانب . وما كان هذا بالامر الذى يدعو الى الدهشة ، فقد كان ثمة اضطراب عظيم يسيطر على الاحياء الشديدة الوطنية ـ منذ بضعة ايام ـ اذ كان ثمة استنكار للتمرد الذى نشب فى (اورليان) ، وعلى انصار « بريسو » الذين قيل انهم كانوا يتآمرون على تخريب (باريس) وتذبيح الجمهوريين . وكان جاميلان نفسه قد وقع ـ من مدة وجيزة ـ التماس الجمعية العامة الذى كان يطالب بطرد الواحد والعشرين (**انظر الهامش رقم ٦**) .

وكان عليهما ـ حين اوشكا ان يجتازا القنطرة التى كانت تصل المسرح بالمنزل المجاور ـ ان يمرا خلال جمع من المواطنين الذين ارتدوا « الكارمنيول » ، يخطب فيهم ـ من

أعلى ساحة المسرح ـ شاب فى ثوب عسكرى ، وفى جمال الحب كما صوره « براكسيتيل » ، وقد ارتدى قلنسوة من جلد الفهد . وكان هذا الجندى الفاتن يتهم « صديق الشعب » بالتهاون ، ويقول : «انك تنام ياماراً بينما يصوغ لنا الحلفاء الاغلال ! » .. وما ان صوبت « أيلودى » عينيها نحوه ، حتى قالت فى عجلة : « هيا ياايفاريست ! » .

وزعمت أن الزحام ازعجها ، وانها كانت تخشى ان يغشى عليها لفرط التدافع .

وافترقا فى ميدان الامة ، بعد ان تبادلا الايمان على الحب الابدى !

***

فى ساعة مبكرة من ذلك الصباح ، كان المواطن « بروتو » قد قدم الى المواطنة « جاميلان » هدية فاخرة ، تمثلت فى ديك سمين . ولم يكن من الحكمة ـ من جانبه ـ ان يذكر كيف حصل عليه ، اذ انه كان قد أخذه من سيدة فى سوق المدينة (لاهال) ، كان يعمل كاتبا لها أحيانا .. وكان المعروف ان سيدات (لاهال) يغذين مشاعر أنصار الملكية ، ويراسلن المهاجرين !

وتلقت المواطنة جاميلان الديك بقلب مفعم بالعرفان ، فما عادت مثل هذه النعم ترى فى تلك الايام .. اذ عزت الاقوات ، وأصبح الناس يخشون المجاعة .. وقيل ان الاوستقراطيين كانوا يتطلعون الى هذه المجاعة ، وان الاحتكاريين كانوا يمهدون لها !

ودعى المواطن «بروتو» ليأكل نصيبه من الديك فى الغداء، فجاء ملبيا الدعوة، وأطرى مضيفته لما كان لمطبخها من أريج ذكى تفوح فى المسكن كله . والحق ان المرسم كان يعبق

برائحة المرق الدسم . وقالت السيدة العجـــوز ترد على اطرائه : « انك مفرط اللطف ياسيدى .. لقد اعـــددت ـ لتهيئة المعدة لتتلقى ديكك ـ حساء من مرق الخضر وجلد الخنزير المفروم وقطعة كبيرة من عظام البقر . فليس افضل من عظمة ذات نخاع ، ليكون للحساء عبير شهى ! »

فأجاب الشيخ بروتو : « **انها لفكرة بديعة أيتها المواطنة . وانك لتحسنين صنعا اذا أعدت هذه العظمة الثمينـــة الى قدر الحساء فى غد ، وبعد غد ، وبقية الاســـبوع ، حتى لا يعوزه العبير !..** لقد كانت عـــرافة (بانزوست) تفعل ـ فيما مضى ـ شيئا من هذا القبيل .. كانت تصنع حساء من الكرنب الاخضر ، ومفـــروم دهن الخنزير الاصفر ، و « سافورادو » قديمة .. فهكذا تســـمى العظمة ذات النخاع الكثير والعبير الشذى ، فى بلادها .. التى هى بلادى انا الآخر ! »

وقالت المواطنة جاميلان : « ألم تكن هذه السيدة ـ التى تتحدث عنها ياسيدى ـ شحيحة بعض الشىء ، اذ تستخدم العظمة الواحدة امدا طويلا ؟ » . فأجاب بروتو : « لقـــد كانت ضئيلة الدخل .. كانت فقيرة ، برغم انها عرافة ! »

وأقبل ايفاريست جاميلان فى تلك اللحظة ، وهو شـــديد التأثر بما سمع من اعترافات . وقد عاهد نفســـه على ان يعرف الرجل الذى اغوى « ايلودى » ليثأر منه للجمهورية ولحبه فى آن واحد !

وبعد المجاملات المعتادة ، وصل المواطن بروتو حبـــل الحديث قائلا : « من النادر لمن يمارسون مهنـــة التنبؤ بالمستقبل ان يثروا ، فان الناس سرعان ما يفطنـــون الى خدعهم ، ولا تلبث حيلهم ان تجعلهم مكروهين . على انهم

خليقون بأن يفقدوا أشـــــد تعرضا للمقت ، لو أنهم كانوا يكشفون المستقبل حقا . ذلك لأن حياة الانسان تغدو غـير محتملة ، اذا هو عرف ما كتب له ان يصيبه . انه ـ اذذاك ـ يكتشف عللا مقبلة ، فيعانيها مقدما ، ولا يعود يهنأ بالنعم الحاضرة ، التى اطلع على نهايتهـا . **ان الجهل هو الشرط الذى لاغنى عنه لهناء البشر ، ومن الواجب أن يدرك الناس أنهم فى أغلب الاحيان يفيدون منه** . اننا نجهل كل شىء عن انفسنا تقريبا .. وكل شىء تماما عن سوانا . ان الجهل هو الذى يكفل لنا الطمأنينة .. والوهم الكاذب يكفل لنا راحة البال ! »

ووضعت المواطنة جاميلان الحســـاء على المائدة ، وتلت صلاتها ، ودعت ابنها وضـــيفها الى الجلوس . ثم شرعت تأكل وهى واقفة ، وقد رفضت المكان الذى افســـحه لها المواطن بروتو الى جـواره ، اذ كانت تعرف ـ كما قالت ـ ما يتطلبه حسن السلوك !

الفصل السادس

• **الساعة** العاشرة صباحا ، وليس من نسمة تحرك الهواء .. كان ذلك أسخن « يوليو » عرفه الناس . وفى شارع (اورشليم) الضيق ، اصطف حوالى مائة من المواطنين سكان القطاع أمام باب الخباز ، تحت اشراف اربعة من الحرس الوطنى الذين راحوا يدخنون غلايينهم ، وهم متكئون على اسلحتهم .

وكان « المؤتمر » الوطنى قد عين الحد الاقصى للاسعار ، فسرعان ما اختفى القمح والدقيق . وبات لزاما على الباريسيين — وقد أصبحوا كبنى اسرائيل فى الصحراء — أن ينهضوا قبل مطلع النهار ، اذا هم ارادوا ان يأكلوا .

ومن ثم وقف كل هؤلاء الناس متلاصقين – رجالا ونساء واطفالا – تحت سماء كأنها الرصاص المصهور ، تبخر الماء العطن فى البالوعات ، وتثير روائح العرق والنتن .. وهم يتململون ، ويتساءلون ، وينظر بعضهم الى بعض بكل العواطف التى يمكن للمخلوقات البشرية ان تستشعرها فيما بينها : من نفور ، واشمئزاز ، واهتمام ، ورغبة ، وعدم اكتراث . **فقد كانوا يعرفون – بالتجربة القاسية – ان ليس ثمة خبز يكفى جميع الناس ، ومن ثم فان الذين وصلوا متأخرين سعوا الى ان يندسوا بين المتقدمين ، وراح الذين فقدوا أماكنهم فى الصف يشتكون وينفعلون ويطالبون مهتاجين – دون جدوى – بحقهم المغتصب ..** واعملت النساء سواعدهن وأردافهن – فى غبط محموم – ليحتفظن بأماكنهن أو ليكسبن خيرا منها . فاذا ما اشتد الزحام وأصبح خانقا ، تعالت صيحات : « لا تتدافعوا ! » ، فينفى كل واحد انه ساهم فى الدفع ، قائلا ان سواه كان يدفعه !

ولتفادى هذه الفوضى اليومية ، خطر للجنود المنتدبين من القطاع ان يشدوا الى باب المخبز حبلا يمسكه كل امرىء بدوره . ولكن الايدى كانت تتقارب بسرعة ، ثم تلتقى على الحبل ، وتندمج فى عراك . وما كان ليقدر لليد التى تفلت الحبل ان تعود الى الامساك به . وكان المستاءون – أو الماجنون – يقطعون الحبل ، فلم يكن ثمة بد من العدول عن هذه الطريقة !

وكان من الواقفين فى هذا الصف من يختنقون ، ومن يخشون ان يموتوا ، ومن يطلقون المزح والنكات ، ومن يتراشقون بالعبارات البذيئة ، ومن ينطلقون بسباب الاوستقراطيين والمتحدين ، متهمين اياهم بأنهم أصل كل

شر . فاذا مر كلب ، انطلقت النكات تســميه « بيت » . واحيانا كان يدوى رنين صفعة قوية ، توقعها يد احــدى المواطنات على صدغ أحد الوقحين .. بينما تتنهد احــدى الخادمات الشابات ، فى رفق وانتشــاء ، وعيناها نصف مغمضتين ، وفمها نصف مفتوح ، اذ التصق بها جارها !.. وعند كل كلمة ، وكل اشــارة ، وكل تصرف يوقظ روح الفكاهة الخليعة التى يتسم بها الفرنسيون المرحون ، كانت ثلة من الشباب الماجن تنطلق بالنشيد الوطنى ، على الرغم من احتجاجات شيخ يعقوبى مسن ، راح يستنكر اقحامهم — فى مجونهم القذر — نشيدا يعبر عن الايمان الجمهــورى بمستقبل مفعم بالعدالة والرفاهية !

وأقبل احد لاصقى الاعلانات — وســلمه تحت ابطه — فألصق على الجدار المواجه للمخبز ، بيانا من الجمعية العامة بتحديد مقدار ما يباع من اللحم لكل فرد .. ووقف بعض المارة ليقرأوا الورقة — وهى بعد لزجة مبتلة .. وصاحت بائعة كرنب — كانت تسير حاملة سلتها على ظهرها — بصوت اجش متقطع : « لقد راحت العجول الطيبة .. فلنقنــع بشواء المصارين ! »

وارتفعت من احدى البالوعات — على حين غرة — رائحة شديدة القبح ، حتى ان كثيرين اصيبوا بالغثيان . وساءت حال امــراة فأغمى عليها ، وارتمت على اثنين من الحرس الوطنى فحملاها الى مضخة ماء كانت على بضع خطوات .. وسدت الانوف ، وانبعثت زمجرة متذمرة ، وتبودلت عبارات مليئة بالضيق والسخط . وتساءل البعض عما اذا كانت تلك رمة حيوان مدفون هناك ، أو سما بث عن سوء نية .. **أو لعلها فى الغالب جيفة احد الذين ذبحوا فى مذابح سبتمبر**

ـ نبيلا كان او من رجال الدين ـ وقد نسـيت فى سرداب مجاور .

ـ وهل كانوا يوضعون هناك ؟

ـ لقد كانوا يوضعون فى كل مكان !

ـ انه ولابد واحد ممن كانوا فى « شاتيليه » **(٣٧)** . فقد رأيت فى اليوم الثانى من الشهر ثلاثمائة من جثثهم مكدسة على جسر (اوشانج) .

وكان الباريسيون يخشون ان ينتقم اولئك لأنفسهم ـ فى موتهم ـ بأن يسمموهم بعفنهم .

***

وانضم « ايفاريست جاميلان » الى الصف ، فقد كان راغبا فى ان يجنب امه العجوز متاعب الانتظار الطـويل . ورافقه جاره ـ المواطن بروتو ـ وهو هادىء النفس ، باسم الثغر ، وديوان أشعار « لوكريس » فى جيب « ردينجوته » العتيق . ووصف الكهل الطيب هذا المنظر ـ فى حذلقة ـ فشبهه بلوحة مليئة بالاشجار ، جديرة بريشة رسام حديث يحذو حذو « تانييه » .

وقال : « ان هؤلاء الحمالين ، وهاته الثرثارات ، أبهج منظرا من الاغريق والرومان الذين يعتز بهم رسامونا اليوم . اما انا ، فقد كنت أوثر دائما الطريقة الهولندية ! » .. **اما الذى لم يذكره اطلاقا ـ عن حكمة وكياسة ـ فهو انه كان يمتلك قاعة مليئة باللوحات الهولندية ، لم تكن تعادلها ـ فى**

(٣٧) الحصن الأصغر من حصنين قديمين كانا يقومان على ضفة « السين » فى باريس . وكان هذا الحصن يستخدم كسجن .

عدد الصور وقيمتها الفنية ـ سوى خزانة المسيو دى شوازيل (٣٨) .

ورد عليه الرسام قائلا : « لا جمال الا فى القديم وما يوحى به ، ولكنى أوافقك على ان الاشجار ـ فى لوحات تانييه ، وستين ، واوستاد ـ تفضل فى القيمة الزخارف المأخوذة عن القرون الوسطى فى لوحات واتو ، وبوشيه ، وفان لو .. هنا تجد البشرية مشوهة ، ولكنها أبدا غير مهينة ولا مزدراة كما فى لوحات بودوان أو فراجونار » .

ومر مناد كان يصيح : « نشرة المحكمة الثورية !.. قائمة اسماء الذين قضى عليهم بالاعدام ! »

فقال جاميلان : «ان محكمة ثورية واحدة لاتكفى . يجب أن تقام فى كل مدينة واحدة .. ماذا أقول ؟ .. بل فى كل مديرية ، وفى كل اقليم . يجب ان ينصب الآباء فى الاسرات ـ والمواطنون أجمعون ـ أنفسهم قضاة . فعندما تكون الامة تحت مدافع الاعداء ، وتحت خناجر الخونة ، يصبح التساهل جريمة منكرة . أجل !.. ان ليون ومارسيليا وبوردو قد شقت عصا الطاعة ، وكورسيكا ثائرة ، وفانديه فى نار ، وماينس والفالنسيين سقطت تحت سلطان المتحالفين .. والخيانة فى الريف ، وفى المدن ، وفى المعسكرات .. الخيانة تتربع على مقاعد المؤتمر الوطنى .. الخيانة تجلس فى مجالس الحرب ، وفى مجالس قادتنا ، وفى يدها الورقة الكفيلة بأن تقلب الميزان !.. الا ليت المقصلة تنقذ الوطن ! »

فرد الشيخ بروتو : «مامن اعتراض جوهرى املك ابداءه

---

(٣٨) الدوق اتيين فرانسوا دى شوازيل . كان وزيرا للخارجية فى عهد لويس الخامس عشر .

ضد المقصلة . ان الطبيعة ـ وهي مولاتي الوحيدة، ومعلمتي الوحيدة ـ لم تلقنني على أي وجه، أن حياة الانسان ذات قيمة.. بل انها علمتني على النقيض ـ وبكل الطرق ـ أن ليس لحياة الانسان قيمة البتة . ويبدو ان النهاية الوحيدة للكائنات ، هي ان تغدو غذاء لكائنات أخرى مكتوب عليها ان تسير الى النهاية عينها !.. **ان القتل هو قانون الطبيعة ، ومن ثم فان الحكم بالموت أمر مشروع ، على شريطة ان لا يمارس باسم الفضيلة ولا باسم العدالة ، وانما بحكم الضرورة ، او الرغبة في الحصول على كسب ما** .. ومع كل ، فلابد انني اوتيت فطرة شاذة ، اذ انني اعاف رؤية لون الدم ، وهو عيب لم تفلح بعد كل فلسفتي في اصلاحه ! »

فقال ايفاريست : « ان الجمهوريين قوم ذوو انسانية ورشاد . وليس سوى المستبدون من يتشبثون بأن عقوبة الاعدام امتياز ضروري للسلطان . اما وقد غدا الشعب هو السلطان ، فانه لن يلبث أن يلغيها يوما ما . لقد كافحها روبسبير ومعه كافة الوطنيين ، ولن يطول تأخر صدور القانون الذي يلغيها .. بيد ان من الواجب ان لا ينفذ هذا الالغاء ، الا بعد ان يهلك آخر عدو للجمهورية ، تحت سيف القانون ! »

وكان قد تجمع وراء جاميلان وبروتو ـ في تلك الاثناء ـ كثير من المتأخرين ، بينهم عدد من نسوة القطاع ، ومنهن حسناء بارعة في حبك الصوف (التريكو) ، وقد احاطت رأسها بمنديل ، وانتعلت نعلين خشبيين (قبقابا) ، وحملت سيفا في قراب .. كما كانت بينهن فتاة جميلة ، شقراء ، شعثاء ، بدا وشاحها شديد التجعد .. وأم شابة ، هزيلة ، صفراء اللون ، ألقمت ثديها طفلا أعجف . فأخذ الطفل

يبكى ، اذ لم يجد فى الثدى لبنا ، ولـــكن صرخاته كانت واهنة ، والعبرات تخنق صوته .. كان طفلا يثير الرحمة فى القلوب ، وقد شحب لونه وامتقع ، واحتقنت عيناه .. وكانت امه تتأمله فى أسى ملتاع .

وقال جاميلان ؛ وهو يلتفت الى الرضيع التعس ــ الذى كان ينتحب خلفه ــ وســـط تزاحم اولئك الذين وفدوا متأخرين : « ما أصفره ! »

ــ ان عمره ستة اشهر ، هذا الحبيب المسكين !.. ابوه فى الجيش ، فهو أحد الذين ردوا النمسويين عن (كونديه) ، ويدعى دومونتيى (ميشيل) . وهو عامـــل نسيج ؛ بحكم حرفته . لقد سجل اسمه متطوعا ، فى سرادق كان قد اقيم أمام دار البلدية . لقد اراد الحبيب المسكين ان يذود عن وطنه ، وان يتفرج على البلاد .. **وكتب الى ، يدعونى الى التذرع بالصبر . ولكن ، كيف ترانى أغذى بول المسكين ــ فان الطفل يسمى : بول ــ وانا لا استطيع ان اغذى نفسى ؟**

وهتفت الجميلةالشقراء : « آه !.. لا يزال امامنا ساعة ، ولابد من ان نكرر هذا الاجراء أمام باب البدال فى المساء .. ان المرء ليتعرض للموت فى سبيل الحصول على ثلاث بيضات وقطعة من الزبد ! » . فتنهدت المواطنة دومونتيى قائلة : « الزبد ؟!.. هاقد انقضت ثلاثة اشهر دون أن أراه ! »

واخذ فريق النساء ينعى ندرة القوت وغـــلاء اثمانه ، ويهيل السباب على المهاجرين ، وينذر للمقصلة منـــدوبى القطاع الذين كانوا يعطون النسوة الخليعات دجاجا وارغفة ــ من التى تزن اربع ليبرات (٣٩) ــ فى مقابل خـــدمات

---

(٣٩) الليبرة وحدة قديمة للوزن ، يطلق اسمها خطأ على ما يعـــادل نصف الكيلو جرام .

مخجلة !.. وانتشرت قصص تثير الفزع عن قطعان من الماشية اغرقت فى (السين) ، واكياس من الدقيــــق أفرغت فى البالوعات ، وخبز القى فى المراحيض .. لقد كان الملكيون والرولانديون والبريسوتيون هم الذين يعملون على اجاعة اهل باريس ، ويسعون الى اهلاكهم !

***

وفجأة ، اخذت الجميلة الشقراء – ذات الوشاح المجعد – تصرخ ، كما لو كانت النار قد علقت بثوبها ، الذى راحت تنفضه بعنف وتقلب جيوبه ، معلنة ان كيس نقودها قد سرق .. وعلى ضجيج هذه السرقة ، سرى استنكار عظيــم فى اولئك القوم المتواضعين ، الذين اقتحموا قصـور ضاحية (سان جيرمان) ، وغزوا (التويلرى) ، دون ان يستولوا على شىء .. **اولئك الصناع وربات البيوت الذين احـرقوا قصر (فرساى) بنفوس مطمئنة ، ولكنهم كانوا يخشـون العار اذا هم سرقوا دبوسا** . واخذ الفتية الماجنون ينشئون بعض النكات البذيئة على نكبة الفتاة الصغيرة الحسـناء ؛ ولكنهم سرعان ما خرسوا امام زجرات القوم . ونادى البعض اذذاك بشنق السارق على عمود المصباح . وانهمك القـوم فى تفتيش صاخب ومتعصب . واشارت الفتاة الماهـرة فى حبك الصوف بأصبعها نحو كهل اشتبه فى انه كان راهبا خلع عنه مسوحه ، واقسمت ان هذا « الكبوشى » **(٤٠)** هو الذى ارتكب السرقة ، فسرعان ما اقتنع الحشـد ، ونادى بموته !

وكان الكهل الذى قضى عليه بقصاص الجمهور – بهـذا

---

(٤٠) الرهبان « الكبوشيون » اتباع القديس فرانسوا . وكانوا يتكفلون باطفاء الحرائق فى باريس ، قبل الثورة .

الحماس ـ يقف امام المواطن « بروتو » فى تواضع جم .. وكان له ـ والحق يقال ـ كل سمات رجل الدين السابق.. كان بمظهره وقورا جليلا : لم ينل منه الاضطراب الذى الم بالرجل المسكين من جراء هياج الحشد وذكرى أيام شهر سبتمبر التى كانت بعد حية فى النفوس . على ان الخوف الذى ارتسم على وجهه دعم شك القوم الذين اعتقدوا ـ فى قرارات نفوسهم ـ ان المذنبين وحدهم هم الذين يخافون احكام الرأى العام ، وكأنما لم يكن هذا الاندفاع المتهور كافيا لأن يلقى الذعر فى قلوب اكثر الناس براءة .

وكان « بروتو » قد جعل لنفسه ديدنا ان لا يعترض الشعور العام ، لا سيما حين يتجلى هذا الشعور أرعن ضاريا « لأن صوت الشعب يكون اذذاك من صوت الله » ، كما كان يقول . ولكن بروتو لم يرع هذا الديدن ، فأعلن ان هذا الرجل ـ كبوشيا كان او غير كبوشى ـ لم يكن يستطيع ان يسرق المواطنة ، لأنه لم يقربها لحظة واحدة .

ورأى القوم ان الذى كان يدافع عن السارق لابد ان يكون شريكا له ، فانقلبوا يتحدثون عن وجوب معاملة الشريرين بالشدة ؛ واذ تكفل جاميلان بضمان بروتو ، نادى أكثر القوم حكمة بارساله مع الآخرين الى الجمعية العامة للقطاع . ولكن الفتاة الجميلة صرخت ـ فجأة ـ فى ابتهاج ، معلنة أنها وجدت كيسها . وسرعان ما انهالت عليها السخريات والوعيد بأن تساط علانية ، كما لو أنها كانت راهبة !

وقال رجل الدين لبروتو : « اشكر لك انبراءك للدفاع عنى يا سيدى .. ليست لاسمى قيمة تذكر ، ولكنى أرى من واجبى أن اذكره لك .. فأنا أدعى « لوى دى لونجمار » .. وأنا قس حقا ، ولكنى لست « كبوشيا » ـ كما قالت هذه

النسوة ـ وانما انا قس نظامى من طائفة البرنابيين ، التى قدمت للكنيسة زرافات من الاطباء والقديسين . ولسنا نصيب الحقيقة تماما اذا ارجعنا منشأ هذه الطائفة الى القديس شارل بوروميه ، بل يجب أن نعتبر القديس بولس هو منشئها الحقيقى . ومن ثم فانها تثبت شعاره على لوائها وشارات الشرف الخاصة بها . وقد اضطررت الى أن أهجر ديرى ـ اذ أصبح مقرا للجنة قطاع (بون نيف) ـ وان ارتدى زيا مدنيا » . فقال بروتو ، وهو يتأمل العباءة الطويلة الفضفاضة التى كان السيد دى لونجمار يرتديها : « ان ثوبك يا أبى ، يشهد بما فيه الكفاية ، على انك لم تنبذ مهنتك . فان الذى يراه يعتقد انك لم تهجر مذهبك .. بل يؤمن بأنك جددته . وانك لتعرض نفسك بسذاجة ـ تحت هذا المظهر المتقشف ـ لأذى قوم ملحدين ! » . فأجاب رجل الدين : « **ولكنى لا أستطيع كذلك أن أرتدى حلة زرقاء كالراقص ! »**

ـ ان ماأقوله عن ثوبك يا ابى ، ليس غير تحية لشخصيتك، وتحذير لك ضد الاخطار التى تتهددك !

ـ على العكس يا سيدى ، خليق بك أن تشجعنى على أن أجهر بعقيدتى . ذلك لاننى لا أميل كثيرا الى التخوف من الخطر . لقد هجرت زيى يا سيدى ، وهذا نوع من العقوق .. وكنت اوثر ـ على الاقل ـ ان لا اهجر البيت الذى ارتضاه الله لى طيلة هذه السنين الطويلة ، لأنعم فيه بحياة آمنة وادعة . لقد ظفرت باذن بالبقاء هناك ، ولزمت صومعتى ، الى ان حولوا الكنيسة والدير الى شبه دار صغيرة للبلدية ، اسموها « الجمعية العامة للقطاع » . ولقد رايت يا سيدى .. شهدت بعينى تحطيم رموز وشارات الحقيقة القدسية .. شهدت اسم بولس الرسول وقد حلت

محله قلنسوة من قلنســـوات المسجونين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .. بل اننى ساهمت – فى بعض مرات – فى جلسات الجمعية العامة للقطاع ، فسمعت اخطاء مذهلة تعرض . وقصارى القول اننى هجرت هذا المأوى المدنس ، واصبحت أعيش على المائة البيستول (٤١) – التى قررتهـــا لى الجمعية العامة – فى حظيرة استولوا على خيلها وارسلوها لخدمة الجيوش . هناك أقيم القداس بحضور بعض المؤمنين الذين يفدون ليشهدوا بخلود كنيسة يسوع المسيح ! »

فرد عليه الآخر : « اما أنا يا أبى فأدعى – اذا شئت أن تعرف – بروتو ، وقد كنت من قبل جابيا للضرائب » . فقال الاب لونجمار : **« لقد تعلمت من المثال الذى ضربه القـديس ماتيـــو – يا سيدى – ان من الجائز أن يسمع المرء حديث الخير من موظف حكومى ! »**

– انك لصالح ، بالغ اللطف ، يا أبى !

فقال جاميلان : « الا أعجب – أيها المواطن بروتو – بهـذا الشعب الطيب ، الذى يشتهى العـــدالة أكثر مما يشتهى الخبز . فقد كان كل امرىء هنا على استعداد لأن يترك مكانه لشنق السارق .. ان هـــؤلاء الرجال ، وهـــؤلاء النساء صارمون فى أمانتهم برغم فقرهم ، وبرغم أنهم يرزحون تحت كل هـــذا الحرمان . فهم لا يستطيعون أن يطيقوا عملا غير شريف ! »

فأجابه بروتو : « من الواجب الاعتراف بأن هؤلاء النـــاس فى حميتهم الشديدة لشنق السارق ، قد شنوا حملة سيئة على هذا القس الطيب ، وعلى من دافع عنه ، وعلى من دافع عن المدافع عنه !.. **ان ما أوتوه من ضن بمتاعهم ، ومن حب**

---

(٤١) عملة ذهبية كانت شائعة فى فرنسا ، فى الماضى .

اثانى لمصلحتهم ، هما اللذان دفعاهم الى ذلك ، فان اللص الذى يسطو على احدهم ، يهــدد البــاقين ، ومن ثم فهم يحافظون على أنفسهم بمعاقبتــه .. ومع ذلك ، فمن الجائز ان غالبية هؤلاء الصناع وربات البيوت افاضــل يحترمون متاع الغير .. وان هذه المشاعر قد غرسها آباؤهم وأمهــاتهم فى نفوسهم منــذ الصغر ، اذ كانوا يجلدونهم جلدا مبرحا ، حتى اضطروهم الى انتهاج الفضيلة قسرا ! »

ولم يخف جاميلان عن الشيخ بروتو ان مثل هذه اللهجة لا تبدو جديرة بفيلسوف . وقال : « **ان الفضيلة خلة طبيعية فى الانسان ، أودع الله بذرتهــا فى قلوب المخلوقات** » .. وكان الشيخ بروتو زنديقا ، يستمد من زندقته لذة فياضة ، فقال : « أرى أيها المواطن جاميلان انك وان كنت ثوريا فيما يتعلق بالارض ، الا انك ـ فيمــا يتعلق بالسماء ـ محافظ ، بل رجعى .. وان روبسبيير ومارا ليفوقانك فى ذلك . وشد ما أعجب من أن الفرنسيين لم يعــودوا يطيقــون ملــكا فانيا ، يرتضون احتمال ملك غير فان ، هو أكثر ظلما وطغيانا .. والا ، فما (الباستيل) أو غرفة التعذيب بالقياس الى الجحيم ؟.. **ان الانسانية ترسم آلهتها على غرار طغاتها .. واذا بكم تحرصون على الصورة ، وأنتم الذين تنبــذون الاصل !** »

فصاح جاميلان : « ويحــك يا مواطن !.. ألا تخجل من ازجاء كلام كهذا ؟.. كيف تخلط الآراء اللاهوتية المعتمــة ـ المتولدة عن الجهل والخوف ـ بخالق الطبيعــة ؟.. ان الايمان برب طيب أمر لا غنى عنه للاخلاق . فالكائن الاعلى هو منبع الفضائل جميعا ، ولن يكون المرء جمهوريا اذا هــو لم يؤمن بالله . لقد عرف روبسبيير ذلك ، فرفع من قاعة

اليعاقبة تمثال الفيلسوف « هلفيتيوس » ، الذى يحمل وزر خنوع الفرنسيين للعبودية ، اذ لقنهم الكفر بالله .. وما دامت الجمهورية قد انشأت مذهب الايمـان بالعقل ، فانى آمل ـ ايها المواطن بروتو ـ ان لا تأبى اعتناق عقيدة حكيمة كهذه ، على الاقل ! »

ورد بروتو قائلا : « اننى أحب العقـل ، ولكنى لست متطرفا فى ذلك ، ان العقل يرشدنا ويضىء لنا السبيل . اما اذا جعلتم منه ربا قدسيا ، فانه سيعميكم ويضلكم ويغريكم بالاجرام ! »

وواصل « بروتو » الجدال وقدميه فى ماء البالوعة الآسن ، كما اعتاد أن يفعل ـ من قبل ـ وهو فى أحد المقاعد المريحة المذهبة ، فى دار البارون « دولباخ » الذى أفاد ـ على حد تعبيره ـ الفلسفة الطبيعية فوائد جوهرية .. فقال : « ان جان جاك روسو ، الذى أبدى بعض المواهب ـ لا سيما فى الموسيقى ـ كان دعيا زعم انه استمد مبادئه الخلقيـة من الطبيعة ، وهو قد استمدها ـ فى الواقع ـ من مبـادىء كالفن . ان الطبيعـة تعلمنـا أن نفترس بعضنا بعضـا ، وتقدم لنا النماذج لكل الجرائم ولكافة الرذائل والشرور ، التى يصلحها الوضع الاجتماعى أو يتستر عليهـا . ان من الواجب حب الفضيلة ، ولكن من الخير معرفة انهـا حيلة ساذجة ابتكرها البشر ليعيشوا معا فى وئام . **وليس هـذا الذى ندعوه بالقانون الخلقى سوى محاولة يائسة منـا جميعا ، ضد نظام الكون الذى يتمثل فى الصراع ، والتذبيح ، والصدام الاعمى بين القوى المتضادة . ان الكون يهدم نفسه بنفسه ، وكلما أمعنت تفكيرا فى ذلك ، ازددت اقتنـاعا بان**

الكون مجنون!.. ان اللاهوتيين والفلاسفة ـ الذين يجعلون الله خالق الطبيعة ومهنـــدس الكون ـ اظهروه لنا شريرا ، ومناقضا للعقل .. وهم يقولون انه طيب لأنهم يخـافونه ، ولكنهم مسوقون الى أن يعترفوا بانه يسلك مسلكا ظالما .. انهم ينسبون اليه خبثا نادر الوجود ، حتى لدى الانسان ، وهم يتوسلون بهذا الى أن يجعلوه معبودا على الارض . ذلك لأن جنسنا التعس لا يعتنق عقيدة تمت الى ارباب عادلين رحيمين ، وليس فيها ما يدعو الى الخوف . انهم لا يرون مصلحة فى عرفان لا يجدى .. فبدون المطهر والجحيم ، لا يكون الاله الطيب غير مولى مسكين ! »

فقال الاب لونجمار : « لاتتكلم قط عن الطبيعة يا سيدى، فأنت لا تدرى كنهها ! »

ـ لعمر الله يا أبت ، انى لأعرفها بقدر ما تعرفها انت !

ـ ليس بوسعك أن تعرفها ، مادمت بلا دين ، فان الدين وحده هو الذى يعرفنا بماهية الطبيعة ، ومواطن نفعها ، وكيف تطرق اليها النقص . وفيما عدا ذلك لا تنتظر منى ردا ، فان الله لم يمنحنى من حرارة اللهجـة ، ولا من قوة الذكاء ، ما يكفى لتفنيد اغلاطك . وأخشى أننى لن أزودك ـ بعجزى هذا ـ الا بفرص للتجديف ، وأسباب للجحود .. ولمـا كنت أحس رغبة جامحة لخدمتك ، فاننى أخشى ان لا أجنى ثمرة لهذا البر المستتر سوى ...

وقطع عليه الحديث هرج عظيم ، بدأ عند راس الصف ، معلنا جميع الجوعى الواقفين أن المخبز قد فتح أبوابه . وبدأ الصف يتحرك الى الأمام ، ولكن فى بطء شديد . وكان احد رجال الحرس الوطنى ـ فى زيه الرسمى ـ يدخـل المشترين واحدا بعد آخر . وكان الخباز وزوجته وابنه

يتلقون العون فى بيع الخبز من اثنين من مندوبى الجمعية العامة ، وقد لف كل منهما ذراعه اليسرى بشريط ذى ثلاثة الوان (٤٢) .. وكانا يهتمـــان بالتـــأكد من أن المشترين ينتمون الى القطاع ، وان كل واحد لا يتلقى سوى النصيب الكافى لاطعام من يعولهم .

***

كان المواطن « بروتو » يتخـذ من السعى وراء السرور غايته الوحيدة فى الحياة .. كان يرى أن العقل والحواس هى صاحبة الحكم الوحيدة فى غياب الله ، ولم يستطع ان يهتدى الى سواها . فلما وجد فى آراء الرسام شيئا من التطرف الذى يجاوز المعقول ، وفى آراء رجل الدين شيئا من البساطة أكثر مما يروق له تماما ، آثر هـذا الرجـل العـاقل ان يطبق مذهبـه على مسلكه فى تلك الظـروف الراهنة ، ويدخل شيئا من التسرية على نفسه فى هـذا الانتظار الطويل ، فأخرج من جيب سترته «الردينجوت» ــ التى كانت فى لون البراغيث ــ اشـعار «لوكريس» التى ظلت اشهى متعة له ، ومبعث الرضى الحقيقى لديه . وكان الغلاف الجلدى الاحمر قد تجعد وتثنى لكثرة الاستعمال . **وقد كان المواطن « بروتو » من الحـكمة بحيث محا عن الغلاف شعار أسرته ، الذى كان مؤلفا من رسـم بالذهب لثلاث جزر صغيرة اشتراها أبوه فى مقابل مبالغ له كانت فى حكم الضائعة .**

وفتح الكتاب عند جزء روى فيه الشاعر الفيلسوف ــ

---

(٤٢) كانت الألوان الثلاثة ــ الاحمر والابيض والازرق ــ هي شعار الثورة الفرنسية .

الذى كان يبغى ابراء الناس من متاعب الحب التى لاطائل منها - كيف فاجأ امراة بين أذرع خادماتها ، فى حال تؤذى شعور اى عاشق . وراح المواطن «بروتو» يقرا هذه الأبيات ، دون ان يشغل بذلك عن القاء النظرات على عنق جارته الجميلة المستتر وراء خصلات ذهبية ، ولا عن ان يتنسم - فى نشوة - عبير بشرتها البضة المتسخة ! .. والشاعر «لوكريس» لم يؤت سوى ناحية واحدة من نواحى الحكمة ، اما تلميذه «بروتو» فقد أوتى نواحى كثيرة ! .. ولقد راح يقرا ، ويتخذ خطوتين الى الامام فى كل ربع ساعة .. وكان صخب الثرثارات - عن غلاء الخبز والسكر والبن والشمع والصابون - يطرق عبثا أذنيه اللتين كانتا تطربان للنظم الموزون ذى القوافى العديدة ، التى صيغ فيها الشعر اللاتينى . وعلى هذا النحو ، بلغ عتبة المخبز وهو ناعم البال . وفوق راسه ، لمح «ايفاريست جاميلان» - الذى كان خلفه - حزمة من القمح الذهبى ، ثبتت الى حديد الكوة التى تعلو الباب .

ودخل الحانوت بدوره ، فاذا السلال والصناديق قد خوت ، ودفع اليه الخباز بالقطعة الوحيدة من الخبز التى تبقت ، والتى كانت تزن لبرتين . ودفع ايفاريست الثمن ، ثم اغلق الخباز الباب فى اثره ، خشية أن يغير القوم الصاخبون على المخبز . **على انه لم يكن ثمة ما يدعو الى الخوف ، فان هؤلاء الفقراء - الذين تعلموا الطاعة على أيدى طغاتهم السابقين ، وعلى أيدى محرريهم الراهنين - داروا على اعقابهم ، وجروا أقدامهم وقد نكسوا رؤوسهم !**

وما ان بلغ «جاميلان» ناصية الشارع ، حتى ابصر المواطنة « دومونتي » جالسة على حجر ، ورضيعها بين

ذراعيها . وكانت جامدة ، وقد غاض لونها ، ونضب دمعها، وزاغ بصرها. . اماالطفل فقدراح يمتص أصبعه فى نهم . ووقف جاميلان لحظة أمامها حائر مرتبكا ، فلم يبد عليها أنهـا رأته . وغمغم ببضع كلمات ، ثم أخرج مطواته من جيبه — وكانت مطواة ذات نصل معقوف ومقبض من العظم — فشطر خبزة نصفين ، وضع أحدهما على ركبتى الأم الشابة ، التى تطلعت فى دهشة .. ولكنه كان قد انعطف وراء ناصيـة الشارع !

واذ دخل داره ، الفى أمه جالسة الى النافذة ، ترفـو الجوارب . فوضع بقيـة الخبز فى يدهـا ، وقال بمرح : « الا اغفرى لى يا امى الطيبة ، فقد اضنانى الوقوف طيلة هذا الوقت ، وارهقنى الحر ، فاذا بى آكل نصف نصيبنا من الخبز ، لقمة اثر لقمة ، اثناء سيرى فى الشارع ، وفى دخول البيت . فلم يكد يبقى سوى نصيبك انت !»

وتظاهر بأنه ينفض فتات الخبز عن سترته !

الفصل السابع

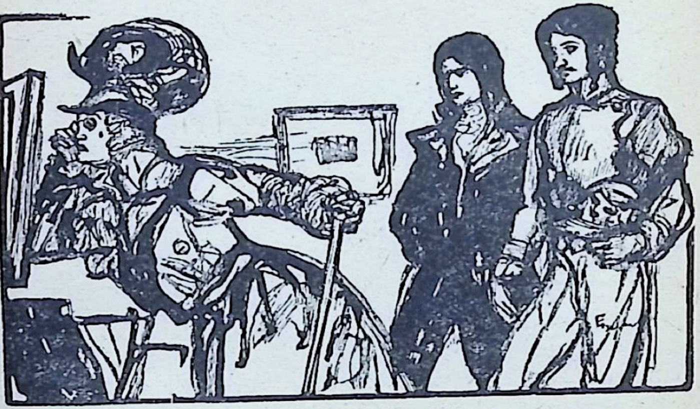

• قالت المواطنة الارملة جاميلان ، مرددة قولا جد قديم : « اننا لطول أكل الكستناء ، سنصبح .. كستناء!»

كانت فى ذلك اليوم - الثالث عشر من يولية - قدتناولت وابنها غداء من حساء الكستناء . وفيما هما يأتيان على هذه الوجبة التقشفية ، دفعت الباب سيدة ، فملأت المرسم فجأة ببهرجها وشذى عطورها . وعرف «ايفاريست» لتوه أنها المواطنة «روشمور» . وظن أنها أخطأت الباب ، وانها كانت تنشد المواطن «بروتو» - صديقها القديم - فخطر له أن يرشدها الى المخزن الذى كان يقيم فيه هذا ، أو أن يناديه ليوفر على المرأة الانيقة مشقة سلم كسلم الطاحون . غير أنه بدا - من أول الامر - أن مهمتها

كانت لدى ((ايفاريست جاميلان)) ذاته • فقد أعربت عن سعادتها لمقابلته ، ولاستطاعتها أن تؤدى له خدمة ما • ولم يكن كل منهما غريبا عن الآخر تماما ، اذ كانا قد تقابلا عدة مرات فى مرسم «دافيد» ، وفى احدى جلسات الجمعية العامة ، وفى منتدى اليعاقبة ، وفى مطعم «فينوا» .. وقد استرعى انتباه المواطنة الى «ايفاريست» جماله ، وشبابه، ومظهره المثير للاهتمام •

وكانت المواطنة «روشمور» ترتدى قبعة ذات شريط ملتف بشكل حلزونى ، وذات ريش ، وكأنها قبعة رسمية لمندوب ديبلوماسى .. كما كانت مثقلة بالمساحيق ، مخضبة، مخططة ، معطرة ، وما زال لحمها يبدو نضرا تحت هذه الألوان المستعارة .. كانت هذه الزينة الصارخة المصطنعة – التى شاعت اذ ذاك – تنم عن اللهفة التى تدأكت النساء للاستمتاع بالحياة – فى تلك الايام – قبل أن تدهمهن الايام المقبلة غير المؤكدة الظروف •• وكان للجزء الأعلى من ثوب المواطنة قلابتان عريضتان ، وحواف واسعة ، مرصعة بأزرار فولاذية كبيرة .. وكان الثوب بلون الدم ، ولا يملك أحد أن يميز ما اذا كان ينم عن طابع ارستقراطى أو عن طابع ثورى •• وما اذا كان لونه يرمز الى دماء الضحايا ، او الى شعار الجلاد .. وكان برفقتها شاب عسكرى ، من فرقة الحرس •

واخذت تطوف بالمرسم ، وفى يدها عصا طويلة من الصدف ، وقد بدت فارعة ، جميلة ، عريضة المنكبين ، ممتلئة الصدر • وأخذت تفحص لوحات الرسام وهى تقرب من عينيها الرماديتين ، منظارها الذهبى ذا العدستين .. ضاحكة ، متهللة ، وقد استخفها الاعجاب بجمال الفنان ،

وراحت تطرى لتتلقى بدورها الاطراء !.. وتساءلت : ((ما هذه اللوحة الرفيعة ، المؤثرة ، التى تمثل أمرأة رقيقة المشاعر ، وجميلة ، بالقرب من شخص مريض ؟)) . فأجاب جاميلان بأنها كانت تمثل «أوريست» حين أيقظته اخته ، وأنها جديرة بأن تكون اقل لوحاته رداءة ، اذا قدر له ان يتمها .. وأضاف قائلا : -

ـ ان الموضوع مأخوذ عن قصة «أوريست» التى وضعها «يوريبيد» . فلقد قرأت ـ فى ترجمة قديمة لهذه المأساة ـ منظرا أخذ بمجامع قلبى اعجابا .. ذلك هو المنظر الذى ترفع فيه «اليكترا» أخاها الشاب عن سرير أوجاعه ، وتمسح الزبد الذى طفح من فمه ، وتقصى عن عينيه الشعر الذى كان يحجب عنهما النور ، وتتوسل الى أخيها الحبيب ان يصغى الى ما كانت توشك أن تقوله له فى هدوء انفعالاته المهتاجة .. وكنت كلما قرأت هذه الترجمة ، مرارا وتكرارا ، أحس غشاوة تحجب عنى الصور الاغريقية ، دون أن أملك تبديدها .. وخيل الى ان الأصل ولا بد أكثر اثارة للنفس ، وانه يجرى بأسلوب آخر . وشعرت برغبة ملحاحة فى أن أؤلف فكرة دقيقة لنفسى ، فرجوت السيد «جايل» الذى كان يلقى دروسا فى اللغة اليونانية ، فى «الكوليج دى فرانس» ـ وكان ذلك فى سنة ١٧٩١ ـ ان يشرح لى هذا المنظر كلمة بكلمة ، فشرحه لى حسب طلبى . واذ ذاك تبينت أن القدامى اكثر بساطة وألفة مما نتصور .. فهنا قالت اليكترا لاوريست: «ياأخى العزيز ، ما أشد ما سببه لى نعاسك من فرح ! أفتريد ان اعينك على النهوض ؟ » .. وأجاب أوريست : ((أجل ، ساعدينى ، وخذينى بين ذراعيك ، وامسحى هذه البقيه

من الزبد الملتصقة حول فمى وعينى . اسندى صدرى الى صدرك واقصى عن وجهى الشعر الملبـــد ، اذ انه يحجب عينى .. » . وملأ نفسى هذا الشعر الفتى الحى ، وهـــذه التعبيرات الساذجة القوية ، فرسمت اللوحة التى ترينها يا مواطنة !

ولقد أعتاد الرسام أن يوجز فى الحـــديث عن لوحاته ، ولكنه لم يقتضب فى حديثه عن هذه اللوحة بالذات. وشجعته اشارة أبدتها له المواطنة روشمور ، وهى ترفـــع منظارها ، فاستطرد يقول : « لقد أوضح هنيكان فورات «أوريست» فى براعـــــة ، ولكن أوريســـت يهز قلوبنـــــا فى اســـاه أكثر ممـــا يهزها فى هيـــاجه . اى حظ كان حظه ! ... فانه بدافع من شفقة البنوة ، ومن اطاعة لأوامر قدسية ، ارتكب هذا الجرم الذى كان الآلهـــة خليقين بأن يحلوه من وزره ، ولكن البشر لم يغتفروه له قط . ولكى ينتقم للعدالة المهدورة ، جحـــد الطبيعة ، وخـــرج عن انسانيته ، ومزق أحشاءه بيديه . ولكنه ظل أبيا تحت أثقـــــال عمله الفظيع ، والصالح كذلك .. وهذا ما أردت أن ابينه فى هذه اللوحة ، اذ جمعت بين الأخ والأخت ! »

وأقترب من اللوحة ، وتأملها فى رضى ، ثم قال : « ان بعض اجزاء منها قـــد قاربت الأكتمال .. مـــثل راس أوريست وذراعه » .

- أنها لوحة رائعة .. وأن أوريست ليشبهك ايها المواطن جاميلان !

فقال الرسام بأبتسامة رزينة ! « اترين ذلك ؟ »

وتقبلت المقعد الذى قدمه اليهـــا جاميلان ، بينما وقف الضابط الشاب الى جوارها ، ويده على مسند المقعد الذى

جلست عليه . وهو امر أبدى مدى ما فعلته « الثورة » . فما من رجل كان يمس فى العهد الماضى مقعدا جلست فيه امرأة ، ولو بأصبعه ، بحكم مـا كان ينشأ عليه من قيود ـ شديدة أحيانا ـ تحف بآداب السلوك ، وتجعله يقـدر أن التزام التحفظ فى الأماكن العامة أمر ذو قيمة فذة لأى سر يؤدى اهماله الى فقدان الاحترام .

***

كانت « لويز ماشيه دى روشمور » أبنة ضابط ممن كانوا موكلين بخدمة الملك فى الصيد ، وأرملة أحد رجال القانون ، والصديقة الوفية للمالى « بروتو ديزيليت » زهـاء عشرين عاما .. وقد أعتنقت اخيرا المبادىء الحديثة ، فرؤيت فى شهر يوليو سنة ١٧٩٠ ـ وهى تحفر الارض فى (شان دى مار). **وقد حملها ميلها الشديد الى السلطان ، الى التشيع بسهولة للجيرونديين وللجبليين ، بينما كانت روحها المتسامحة ، وتهورها فى التحمس ، وما أوتيته من موهبة للتـآمر .. كانت هذه كلها تربطها بالارستقراطيين وخصوم الثورة ، فى الوقت ذاته !..** كانت امرأة كثيرة الظهور فى المجتمعـات ، تغشى الحانات والمسارح والمطاعم التى تقـدم ابدع انواع الشواء الشائعة ، والمنتديات الصاخبة ، والصـالونات ، وادارات الصحف ، والاجتماعات السرية للجان .. ولقـد واتتها الثورة بأمور جديدة ، وبطرائف مسلية ، وابتسامات ، ومسرات ، واعمال ومشروعات مثمرة .. كانت تتدخل فى المؤامرات السياسية وغير السياسية ، وتعزف على القيثارة ، وترسم المناظر الطبيعية ، وتغنى أهازيج الهـوى ، وتؤدى الرقصات الاغريقية ، وتقيم مآدب العشاء ، وتسـتقبل فى

دارها جميلات النساء ـ مثل كونتة دى بوفور ، والممثلة ديكوان ـ وتلازم مائدة اللعب والميسر طيلة الليل ، ثم تجد ـ مع ذلك ـ وقتا تبدى فيه عطفها ولطفها لاصدقائها . كانت شديدة الفضول ، كثيرة العمل والكلام ، قوية الفتنة ، محبة للهو ، خبيرة بالرجال ، جاهلة بالجماهير . وقد كانت بعيدة عن الاراء التى تجهر بها ، بقدر بعدها عن الاراء التى كان عليها أن تتنكر لها .. ولم تكن تفهم شيئا ـ على الاطلاق ـ مما كان يجرى فى فرنسا ، وان راحت تبدى ادراكا بكل شىء .. وكانت جريئة ، ممتلئة بالجسارة والاقدام ، بفضل جهلها بما فى ذلك من اخطار ، وبفضل ثقة لاحد لها بمدى سلطان مفاتنها !

وكان العسكرى ـ الذى رافقها ـ فى شرخ الشباب ، تعلو راسه خوذة نحاسية ، مزدانة بجلد الفهد ، وقد حليت قمتها بريشة حمراء ، وصيغت على شكل طائر استرسلت على ظهره ذؤابة طويلة ، بشعة .. وكانت سترته حمراء ، بشكل الصديرى ، وقد انسدلت الى خاصرته حرصا على أن لاتخفى رشاقة انعطافهما .. وكان يتدلى من خاصرته سيف ضخم ذو مقبض براق على شكل راس صقر ، واحتضن عضلات ساقيه الرشيقتين سروال يميل لونه الى الزرقة ، وقد تخللت النقوش الكثيرة على فخذيه ، خيوط مجدولة داكنة الزرقة . فبدا الشاب كراقص فى زى عسكرى أنيق ، فى لوحة تمثل « اخيل فى سيروس » ، او « زفاف الاسكندر » وقد رسمها أحد تلاميذ « دافيد » متعمدا أن يلف القوام بأحكام .. وتذكر « جاميلان » ـ فى شىء من الابهام ـ أنه قد رآه من قبل ، فقد كان هذا العسكرى ـ فى الواقع ـ هو الذى صادفه منذ خمسة عشر يوما ، وقد راح يخطب فى

الجمهور من شرفات مسرح الامة .
وقدمته المواطنة روشمور قائلة : « المواطن هنرى ، عضو اللجنة الثورية ، شعبة حقوق الانسان » .. وكانت تستبقيه دائما فى اذيالها ، مرآة للحب ، وشهادة حية على وطنيتها .

وهنأت المواطنة الرسام بمواهبه ، وسألته عما اذا كان يقبل أن يرسم بطاقة لتاجرة للازياء كانت تهتم بأمرها .. وأقترحت لذلك رسما مناسبا ، لامرأة تجرب وشاحا امام مرآة كبيرة ـ مثلا ـ أو عاملة شابة تتأبط صندوقا من صناديق القبعات . ولقد ذكروا لها ابن فراجوران ، ودوسى الشاب ، كما ذكروا برودوم ، على انهم خير من يستطيعون تحقيق عمل فنى صغير من هذا القبيل . ولكنها آثرت أن تقصد المواطن ايفاريست جاميلان . بيد انها لم تمض فى ذكر شىء من التفصيلات ، فى هذا الموضوع ، مما اظهر انها لم تطلب الرسم الا لكى تفتح باب الحديث فحسب . والواقع انها كانت قد جاءت لأمر آخر بعيد عن هذا كل البعد . فقد طلبت من المواطن جاميلان صنيعا .. اذ أنها علمت بما بينه وبين المواطن ((مارا)) من تعارف ، فجاءت تسأله أن يقدمها الى ((صديق الشعب)) ، الذى كانت ترجو أن تلقاه . فأجاب « جاميلان » بأنه كان أضأل شأنا من أن يقدمها ، لاسيما وهى فى غير حاجة الى اكثر من ان تتقدم بنفسها الى «مارا » ، فما كان هذا ـ بالرغم من استغراقه فى الأعمال ـ بالرجل الذى يشق على امرىء ان يلقاه ، كما قيل لها . واردف جاميلان قائلا : « لسوف يستقبلك أيتها المواطنة ، اذا كنت منكودة الحظ ، اذ ان قلبه الكبير يتأثر بالمصائب ، ويرثى للآلام .. ولسوف

يستقبلك اذا كانت لديك بعض أسرار تفضين بها اليـه من أجل الصالح العام ، فقد كرس أيامه للكشف عن الخونة !»

واجابت المواطنه «روشمور» بأنها تسعد اذا قدر لهـا أن تحيى فى شخص «مارا» مواطنـا عالى الشـأن ، أدى للبلاد خدمات جليله ، وبوسـعه أن يؤدى لهـا مزيدا من خدمات أجل .. وقالت انها تطمع فى أن تمكن هذا المشرع من الاتصـال برجال حسنى النوايا ، ومحبين للبشرية ، آثرتهم الأقدار بثروات تمكنهم من ان يمدوه بوسائل جديدة لارضاء حبه المتأجج للانسانية .. وأضـافت قائلة : « من المستحب تمكين الأغنيـاء من التعاون على تحقيق الرخاء للشعب ! » ..

***

وحقيقة الأمر ان المواطنة كانت قد وعدت « مورهارت » المـالى بأن تمكنه من تنـاول العشـاء مع « مارا » . وكان « مورهـارت » سويسريا كصـديق الشعب ، اشرك معـه عددا من نواب المؤتمر ـ جوليـان نائب تولوز ، وديلوناى نائب انجير ، والراهب الـكابوشى السابق شـابو ـ على المضاربة على اسهم شركة جزر الهند . وكانت الحيلة غاية فى البساطة ، تتمثل فى العمـل على تخفيض سعر هـذه السندات الى ستمائة وخمسين ليبرة ، بطرق احتيالية ، تمهيدا لشراء أكبر عدد منها بهذا السعر ، ثم رفعها بعـد ذلك الى أربعة آلاف او خمسة آلاف ليبرة ، بوسائل تشيع الطمأنينـة فى النفوس . ولكن شـابو وجوليان وديلوناى افتضحـوا ، وكانت الشبهات تحوم حول لاكروا ، وفابر ديجـلانتين ، بل ودانتـون نفسـه . ومن ثم راح زعيم الاستغلاليين ـ البارون دى بانز ـ يبحث عن أعوان جدد

فى المؤتمر ، وأوعز الى المصرفى «مورهارت» بمقابلة «مارا»!

وما كانت هذه الفكرة بالغريبة ـ كما يبدو لأول وهلة ـ بالنسبة للاستقلاليين المعادين للثورة . فقد كان هؤلاء القوم يضطرون دائما الى التواطؤ مع ذوى السلطان فى تلك الأيام . وقد كان « مارا » ـ بشهرته الشعبية ، وقلمه ، وشخصيته ـ ذا نفوذ منيع !.. كان تألق الجيرونديين قد خبا ، واتباع « دانتون » قد اكتسحتهم العاصفة فلم يعودوا فى الحكم .. وكان روبسبيير ـ معبود الشعب ـ ذا نزاهة يُغار عليها ، وتنتهبه الهواجس من اجلها ، فهو لايدع سبيلا لشىء أن يمسها .. لذلك لم يكن ثمة بد من الالتفاف حول « مارا » ، وتعزيز آماله فى اليوم الذى يصبح فيه ديكتاتورا .. وكان كل شىء ينبىء بذلك : شهرته ، وطموحه ، ومبادرته الى التحمس لانتهاج أعظم الوسائل .. وكان من المحتمل ان يقر « مارا » ـ فى النهاية ـ النظام والأمن ، والأحوال المالية ، والرخاء . وكم من مرة سما وتفوق على أولئك المتهوسين الذين كانوا يبارونه فى الوطنية .. وقد حمل ـ منذ زمن ـ على المتعصبين للثورة بمثل ما كان يحمل على المعتدلين تقريبا . وبعد أن أهاج الشعب وحمله على شنق المحتكرين فى حوانيتهم المليئة بالسلع ، عاد فدعا المواطنين الى الهدوء والتعقل ، واصبح من رجال الحكم !

وبالرغم من بعض الضجيج الذى اثير حوله ـ كما اثير حول غيره من رجال الثورة جميعا ـ فان هؤلاء المتوسلين بالذهب لم يكونوا يرونه قابلا للرشوة ، ولكنهم أدركوا أنه كان مغرورا بنفسه ، سهل الاقتناع . فراودهم الأمل فى اكتسابه بألوان الملق، وبالتظاهر بالانصياع له، بوجه خاص.

وعولوا على أن يسلطوا ـ بفضله ـ البرودة والحرارة على جميع الاوراق المالية التى قد يرغبون فى شرائها ثم اعادة بيعها ، وأن يسوقوه الى خدمة مصالحهم وهو يظن أنه لا يعمل الا للصالح العام !

وآلت المواطنة « روشمور » على نفسها أن تجمع بين الصحفى المشرع ورجل المال ، فقد كانت وسيطة عظيمة ، لاسيما وانها كانت لا تزال فى سن تسمح بالمغامرات الغرامية .. وصور لها خيالها الارعن هذا الرجل الوحشى الفطرة ـ الذى كانت يداه لا تزالان مخضبتين بدماء سبتمبر ـ منغمسا مع فريق رجال المال الذين كانت وسيطة لهم ،وقد انساق بمشاعره ـ بل وبتحمسه ـ لتيار المضاربة ، فى هذا الوسط الذى كانت تعتز به .. وسط المحتكرين، والمتعهدين، والجواسيس الاجانب ، والقامرين، والغوانى ! .. ومن ثم الحت على المواطن جاميلان كى يقودها الى دار « صديق الشعب » ، الذى كان يقطن شارع (ديه كورديلييه) ، بجوار الكنيسة ، غير بعيد عن دار جاميلان ; وبعد أن أبدى بعض التمنع ، انصاع الرسام لرجاء المواطنة .

وأبى الفارس هنرى أن يرافقهما ـ اذ دعى لذلك ـ متعللا بأنه كان يعتزم الاحتفاظ بحريته ، لاسيما ازاء المواطن «مارا» الذى ادى ـ بلا مراء ـ كثيرا من الخدمات للجمهورية ، ولكنه كان قد بدأ يهن ويفتر .. أو لم يكن هو الذى نصح الشعب الباريسى ـ فى وريقته ـ بالاستسلام ؟!.. وراح الشاب « هنرى » ينعى ـ بصوت حزين وزفرات حرى ـ الجمهورية المغدورة بأيدى أولئك الذين وضعت فيهم أملها.. اذ قمع « دانتون » فكرة فرض ضريبة على الاغنياء ،

وعارض ((روبسبير)) باستمرار لجان الثورة ، وقضى ((مارا)) بنصائحه الرعديدة على تحفز المواطنيين .. واردف الشاب صائحا : «أواه !.. لكم يبدو هؤلاء الرجال ضعافا اذا قيسوا بليكلرك وجاك رو .. رو ! ليكلرك ! لقد كنتما الصديقين الصادقين للشعب ! »

ولم يسمع « جاميلان » هذه العبارات التى كانت كفيلة بان تثير حنقه ، اذ كان قد ذهب الى الحجرة المجاورة ، ليرتدى حلته الزرقاء .. وقالت المواطنة « روشمور » للمواطنة جاميلان : « لك أن تفخرى بأبنك ، فهو عظيم بمواهبه وبخلقه ! »

فأدلت المواطنة جاميلان ـ ردا على ذلك ـ بشهادة طيبة عن ابنها ، دون ان تغلو فى أطرائه أمام سيدة من الطبقة العليا، اذ كانت قد تعلمت فى طفولتها ان اول واجب على الصغار هو أن يتواضعوا أمام الكبار !.. وكانت ميالة الى الشكوى ، ولديها المورد الذى لا ينضب ، وقد كانت تجد فى شكاياتها تسرية لآلامها ، فكانت تفضى بمتاعبها ـ فى اسهاب ـ لأولئك الذين كانت تظنهم قادرين على ان يخففوا عنها ، وقد لاحت لها مدام دى روشمور من هذا الفريق . ومن ثم فقد انتهزت هذه المناسبة المواتية ، وروت لها ضائقة الام والابن ، اللذين كانا يتضوران جوعا .. اذ لم يعد هناك من يشترى لوحات فنية ، وقد قتلت الثورة التجارة وكانها ذبحتها بسكين .. وصارت حاجات المعيشة نادرة ، وخرجت اسعارها عن طوق الناس ..

وراحت العجوز تسرد همومها بكل ما لشفتيها من مرونة ، وما للسانها من طاقة ، رغبة فى ان تفضفض بها جميعا ...

الشكايات . وانصرفت الى تحريك شجون السيدة ـ التى حدستها غنية واسعة النفوذ ـ فى أقصر وقت ممكن ، لتثير أهتمامها بأمر ابنها .. وكانت تشعر بأن جمال « ايفاريست » يعاونها على أستمالة عطف امراة طيبة المنبت .. والواقع أن المواطنة « روشمور » ابدت عواطف رقيقة ، وتاثرت لمجرد التفكير فى آلام ايفاريست وأمه ، وفكرت فى وسائل التخفيف عنها ، فعزمت على ان تحمل الاغنياء من اصدقائها على شراء لوحات الرسام . وقالت وهى تبتسم : « ذلك لانه لا تزال ثمة اموال فى فرنسا ، ولكنها مخبأة !» .. وفضلا عن ذلك ، فقد عولت على أن تحصل لايفاريست على عمل لدى « مورهارت » ، أو لدى الشقيقين « بيريجو » ، او على منصب لدى أحد موردى مطالب الجيوش ، مادامت دولة الفن قد دالت !.. ثم خطر لها ـ بعد ذلك ـ أن هذا ليس مما ينبغى لرجل أوتى مثل شخصيته ، فما لبثت بعد ان فكرت لحظة ، أن اومات بما أوحى أنها وجدت العمل اللائق به ، وقالت : « لم يعين بعد عدد من المحلفين فى محكمة الثورة .. ان منصب المحلف او القاضى هو الذى يليق بابنك ، وانى لعلى صلة باعضاء لجنة الامن العام ، واعرف روبسبيير الاكبر ، وكثيرا ما يتناول أخوه العشاء على مائدتى . لسوف أحدثهم .. سأتحدث الى مونتانيه ، وديما ، وفوكييه .. »

ورفعت المواطنة جاميلان اصبعها الى شفتيها ـ وهى متاثرة ، شاكرة ـ اذ ولج « ايفاريست » المرسم . وما لبث أن هبط مع المواطنة « روشمور » السلم المعتم ، الذى كست درجاته ـ المصنوعة من الخشب والبلاط ـ طبقة عتيقة من القذارة ..

***

وفى (البون نيف) - حيث مالت الشمس الى المغيب ، فاستطال ظل القاعدة القائمة التى تحمل تمثال « الجواد البرونزى » ، والتى أصبحت مزدانة بألوان علم الامة - وقف حشد من أبناء الشعب ، رجالا ونساء ، ينصتون فى جماعات صغيرة الى مواطنين كانوا يتكلمون بأصوات خفيفة .. وكان الحشد بادى الجزع ، مخلدا الى صمت كانت تخرقه - بين آن وآخر - أنات وصيحات مغضبة . وانطلق كثيرون ، يجدون السير مسرعين نحو شارع (تيونفيل) ، الذى كان يسمى - من قبل - شارع ولى العهد .. وإذ اندس « جاميلان » فى احدى هذه الجماعات ، سمع أن « مارا » قد أغتيل ! .. وشيئا فشيئا ، تأكد النبأ وأتضحت تفصيلاته .. فلقد أغتيل « مارا » فى حوض استحمامه ، بيد امرأة جاءت على عجل من (كاين) ، لترتكب هذه الجريمة !.. وكان البعض يعتقدون أنها هربت ، ولكن الغالبية قالت أنها أعتقلت .

وبدا جميع من أحتشدوا هناك ، أشبه بقطيع من الاغنام بلا راع !.. وقد راحوا يرددون فى خواطرهم : « مارا المرهف الحس ، المحب للانسانية والخير .. مارا لم يعد موجودا ليتولى قيادتنا ، وهو الذى لم يخطىء قط ، والذى حدس كل شىء قبل وقوعه ، وجرؤ على ان يكشف كل شىء !.. ترى ما العمل ؟ وماذا يحتمل ان يصير اليه الامر ؟ .. لقد فقدنا ناصحنا ، والمدافع عنا .. فقدنا صديقنا ! » .. كانوا يعرفون من اين انبعثت الطعنة ، ومن الذى وجه ذراع تلك المرأة ، فراحوا يغمغمون فى توجع : « لقد طعنت مارا الايدى المجرمة التى تبغى هلاكنا . ان موته نذير بمذبحة لجميع الوطنيين ! »

وتباينت الاقوال عن ظروف هذه الوفاة المفجعة ، وعن
خر أقوال الضحية .. وتطايرت الاسئلة عن القاتل الذى
م يعرف عنه سوى أنه كان امراة شابة اوفدها الاتحاديون
لخونة . وأقسمت المواطنات على اعدام المجرمة ، وقد
كشرن عن انيابهن وأشهرن أظفارهن .. **واذ وجدن فى
المقصلة أرحم من أن توفيها جزاءها ، نادين بجلد هذه المرأة
المتوحشة ، ودق عظامها على عجلة التعذيب ، وتمزيقها ..
ورحن يبتدعن فى عقولهن ألوانا جديدة للتعذيب** . وساقت
شرذمة من الحرس الوطنى المسلحين رجلا بادى العزم ، الى
مركز اللجنة .. وكانت ثيابه ممزقة ، وجداول من الدم تسيل
على وجهه الشاحب . فقد بوغت وهو يقول أن « مارا »
كان يستحق المصير الذى لاقاه ، جزاء تحريضه – الذى لم
ينقطع – على النهب والقتل .. واستطاع رجال الحرس
أن ينقذوه من غضب الشعب بعناء . واتهم بأنه كان شريكا
فى الاغتيال ، فارتفعت الاصوات – فى طريقه – متوعدة
بالموت !

ومكث جاميلان جامدا ، وقد شل الالم ذهنه ، وجفت فى
عينيه الابيتين دموع رقيقة ، وامتزج فى فؤاده حزن الابن
على ابيه ، بحب الوطن ، وباشفاق على الشعب .. وراح
يفكر فى نفسه :

**« ها هو ذا مارا ، بعد لوبيلتييه ، وبعد بوردن !.. لقد
ادركه مصير الوطنيين : مذابح فى شان دومار ، وفى نانسى ،
وفى باريس .. لسوف يفنون جميعا ! »** .. وخطر ببـاله
« ويمفن » الخائن الذى كان يزحف – من عهد غير بعيد –
على باريس ، على راس جحافل من الملكيين قوامها ستون الفا ،
والذى كان خليفا بأن يحول المدينة الباسلة المقدورة الى نار

ودم ، لو لم يصده الوطنيون الشجعان عند (فيرنون) .. وكم من أخطار كانت بعد هناك ! .. كم من خطط اجرامية ! .. كم من خيانات كانت حكمة « مارا » — وحده — ويقظته كفيلتين بمعرفتها واحباطها !.. فمن بعده يعلن أن «كوستين» كان قد انقلب ونكص على عقبيه وابى أن يخلص (فالنسيين) من الحصار .. وأن « بيرون » كان يتلكأ فى (فانديه) السفلى، تاركا الاعداء يستولون على (سوبمور) ويحاصرون (نانت) .. وأن « ديللون » كان يخون الوطن فى (أرجون) ؟!

وكان الضجيج الرهيب يزداد حوله ، من لحظة الى أخرى: ((**لقد مات مارا ! .. قتله الارستقراطيون !**)) . واذا تحول — وقلبه مثقل بالحزن ، والحقد ، والحب — فسار ليؤدى التحية لشهيد الحرية ، دنت منه قروية عجوز ترتدى شالا، لتسأله عما اذا كان السيد « مارا » — الذى اغتيل — هو عين القس « مرا » .. اسقف سان بيير دى كيروا !

الفصل الثامن

• كانت الليلة السابقة على العيد ليلة هادئة ، صافية .. وراحت « ايلودى » تتمشى ــ معتمدة على ذراع «ايفاريست» ــ فى ساحة الائتلاف (شان دى لا فيديراسيون) . وكان العمـــال قد أقاموا ــ فى عجلة ــ أعمـــدة ، وتمـــاثيل ومعـــابد ، وجبـــلا ، ومذبحـــا .. وتمـــاثيل رمزية هائلة: هرقل ـ رمزا للشعب ـ يلوح بهراوته ، و «الطبيعة» ترضع « الكون » ثدييها اللذين لا ينضبان .. هذه التماثيل قامت فجأة فى العاصمة التى كانت فريسة للجوع ، والتى كانت ترهف السمع فى ذعر ، للتأكد من أن أصوات المدافع النمسوية لم تكن تتردد على طريق (مو) . وكان الملكيون قد عوضوا توقفهم أمام (نانت) بانتصـــارات باهرة ،

وأحاطت بالمدينة الثورية الكبيرة (باريس) حلقة من حديد ولهب وبغضاء . ومع ذلك ، فانها راحت تستقبل فى ابهة ـ وكأنها المسيطرة على امبرطورية واسعة ـ وفود الجمعيات العامة الاولى ، التى اقرت الدستور . كان المتحالفون قد هزموا ، وتغلبت الجمهورية ـ موحدة البنيان ، متماسكة الاركان ـ على اعدائها !

وبسط « ايفاريست » ذراعه مشيرا الى الساحة الشعبية، قائلا : « هناك رمى « بايى » الخائن الشعب بالرصاص ، فى ١٧ يوليو سنة ١٧٩١ ، عند قاعدة مذبح الوطن .. واذ شهد قاذف القنابل اليدوية « باسافان » المذبحة ، آب الى داره، فمزق رداءه ، وصاح : « **لقد أقسمت أن أموت مع الحرية، وها أنذا أموت ، اذ لم يعد لها وجود !** » .. واطلق الرصاص على مخه ! »

وفى تلك الاثناء ، كان أهل الفن والعامة يتفقدون الاستعدادات للعيد فى اعجاب ، وقد تجلى على وجوههم حب للحياة أشد كآبة من حياتهم ذاتها ! .. وكانت أعظم الاحداث تتضاءل ـ اذا ما تغلغلت فى نفوسهم ـ وتنكمش بالنسبة اليهم ، وتغدو عقيمة تافهة مثلهم ! .. وكان كل زوجين يسيران حاملين على أذرعتهما ، وجارين بأيديهما ، أو مطلقين امامهما أطفالا لم يكونوا اجمل منظرا من ابويهما ، ولا تبشر البوادر على انهم سيصبحون اسعد منهما ، بل انهم قد ينجبون للحياة أطفالا آخرين لا يفوقونهم مرحا ولا جمالا ! .. ومن حين الى آخر، كانت تمر فتاة موفورة الجسم والجمال ، توحى ـ أثناء مرورها ـ للشباب برغبة كريمة ، وللشيوخ بحسرة على الحياة الناعمة !

وبالقرب من المدرسة الحربية ، أطلع « ايفاريست »

صاحبته ((ايلودى)) على تماثيل مصرية صاغها ((دافيد)) على انماط رومانية من عهد ((اوجست)) . وسمعا اذ ذاك شيخا باريسيا زان شعره بالمسحوق الابيض (البودرة) ، وهو يصيح لنفسه : ((لكم يخال المرء نفسه على ضفاف النيل !))

وكانت ثمة أحداث هامة قد جرت فى متجر «لامور بانتر» خلال أيام ثلاثة لم تر « ايلودى » فيها صديقها . فان المواطن « بليز » أتهم لدى لجنة الامن العام بالغش فى المؤن التى كان يمد الجيش بها . وكان تاجر الصور معروفا فى القطاع الذى يقطنه ، لحسن الحظ ، فاذا لجنة المراقبة فى قطاع (ديه بيك) تجزم أمام لجنة الامن العام بوطنيته ، فلقى انصافا كافيا .. واذ روت « ايلودى » هذا الحادث ، وهى مهتاجة المشاعر ، أردفت : « نحن الآن فى أمان ، ولكن الخطر كان حاميا ، ولم يكن بين ابى والسجن سوى قليل . ولو ان الخطر امتد ساعات قليلة أخرى ، لسألتك يا « ايفاريست » بأن تسعى لدى أصدقائك من أصحاب النفوذ بوساطات من أجله ! »

ولم يجب ((ايفاريست)) . وكانت ((ايلودى)) أبعد من أن تسبر غور صمته . وسار — وقد تشابكت يداهما — بطول مروج (السين) ، وهما يتطارحان حنانهما المتبادل بلغة « جوليا » و « سان برو » (٤٣) ؛ فقد أتاح لهما « جان جاك » الطب وسائل توشية هواهما وتجميله .

وكان المجلس البلدى قد حقق المعجزة التى مكنت للرخاء من أن يشمل المدينة الجائعة ليوم كامل . فقد اقيمت سوق بميدان (الانفاليد) — على ضفة النهر — فراح التجار يبيعون فى أكواخ صغيرة : السجق ، وقطعا من لحم الخنزير ، وامعاء

(٤٣) بطلا قصة جان — جاك روسو : ((ايلواز الجديدة)) .

الخنزير المحشـــوة ، وافخـــاذ الخنزير المملحـــة ، والمكسوة بزهور الفار ، وفطائر (نانتير) ، وخبزبالتوابل ، وفطائر صغيرة هشة ، وارغفة من ذات الاربعة أرطـــال ، وشراب الليمون ، والنبيذ . كذلك كانت هناك حوانيت تباع فيها الاناشيد الوطنية ، والشارات ، والاشرطة ذات الالوان الثلاثة ،وحافظات النقود ، وسلاسل من النحاس الاصفر ، وكافة السلع الصغيرة البهيجة . واذ وقفا امام منصة صائغ متواضع ، انتقى « ايفاريست » خاتما من الفضة ، نقشت عليه رأس « مارا » ، مطعمة بخبوط من الحرير ، فدفعه حول أصبع « ايلودى » .

***

وفى المساء ذاته ، زاره «جاميلان» دار المواطنة «روشمور» بشارع الشجرة الجافة (لاربر سيك) ، اذ كانت قد أرسلت تستدعيه لامر عاجل . ووجدها فى مخدعها ، مستلقية على مقعد طويل ، فى ثوب أنيق يكشف عن مفاتن جسمها . ولما كان مسلك المواطنة ينم عن ميول شهوانية ، فان كل ما حولها كان يشى بمفاتنها ، وملاهيها ، ومواهبها : فكانت هنـــاك قيثارة بالقرب من « كلافسان » (٤٤) ، و « جيتـــار » على مقعد وثير ، واطار للتطريز شدت عليه قطعة مـــن قماش حريرى .. وعلى المنضدة كانت ثمة مسودة لصورة مـــن الحجم الصغير ، وأوراق ، وكتب . وكانت هناك خزانة للكتب غير منظمة ، وكأنما عبثت بهـــا يد جميلة ! تخلو من المعرفة أكثر مما تخلو من الذوق .. ومدت السيدة يدهـــا الى

(٤٤) آلة موسيقية تدار بالعزف على أوتارها أو بمفتاح زنبركى على السواء .

« جاميلان » ليقبلها ، قائلة : « **سلاما أيها المواطن المحلف!** .. **لقد أسلمنى روبسبيير الاكبر – فى هـــذا اليوم بالذات – خطابا فى صالحك ، للرئيس هيرمان** .. خطاب صيغ أبدع صوغ ، فقد جاء فيه – على وجه التقريب – « أوصـــيك بالمواطن جاميلان ، الذى تزكيه مواهبه ووطنيته . وأرى واجبا على أن أقدم اليك مواطنا ذا مبـــادىء قويمة ومسلك وطيد فى أنتهاج النهج الثورى . وما اراك تهمل اتاحة فرصة لجمهورى كى يكون نافعا .. » . وقـــد حملت هذه الرسالة – دون تلكؤ – الى الرئيس هيرمان الذى تلقانى بأدب جم ، وأقر تعيينك فورا .. لقد أبرم الامر ! »

وقال جاميلان ، بعد لحظة صمت : « **بالرغم من أننى لا أمتلك لقمة عيش أتيحها لامى ، الا أننى أقسم بشرفى – ايتها المواطنة – اننى لا أقبل مهام المحلف الا لخدمة الجمهورية والثأر لها من جميع اعدائها !** » .. ورأت المواطنة أن هـــذا الشكر فاترا ، وأن المجاملة جامدة ، فحدست أن « جاميلان » كانت تعوزه الرقة واللطف . ولكن حبها للشباب كان أقوى من أن لا تغفر معه مثل هذه الخشونة . فقد كان «جاميلان» جميلا ، وقد الفته جديرا برعايتها ، وقالت لنفســـها : « لسوف يصاغ بالشكل الذى ينفعنا ! » . ومن ثم فقد دعته الى تناول العشاء عندها فى كل ليلة ، بعد المسرح . وقالت له: « لسوف تقابل فى دارى ذوى الفطنة والمواهب : ايليفيو ، وتالما ، والمواطن فيجيه الذى يقرض الزجل ببراعة مدهشة .. ويقرأ المواطن « فرانسوا » علينا مسرحيته « باميلا » التى تمثل – فى هذه الاونة – على مسرح الامة . أن أسلوبها رشيق وعفيف ، ككل ما ينساب من قلم المواطن فرانسوا .. أن المسرحية مؤثرة ، حتى انها تستدر دموعنا . أن « لانج »

الشابة هى التى تقوم بدور باميلا ! »

واجاب جاميلان : « اننى آخذ بحكمك عليها أيتها المواطنة، ولكن مسرح الامة لا يمت للامة الا بالقليل . وانه لمما يسىء الى المواطن فرانسوا أن تؤدى مسرحياته على منصة لوثتها أشعار « لايا » التعسة ، فان فضيحة « صديق القوانين » لم تنس بعد ..! » . وهنا قالت المواطنة : « لك أن تقول عن « لايا » ما شئت ، أيها المواطن جاميلان ، فهو ليس ممن أصدقائى ! »

وماكانت المواطنة قداستخدمت نفوذها فى تعيين «جاميلان» فى هذا المنصب المرموق عن رغبة خالصة فى الخير . فلقد كانت تعتزم — بعد الذى فعلته ، وما كانت ترجو أن تفعله فى المستقبل من أجله — ان تشده اليها برباط وثيق ، فتطمئن الى درع تحتمى به من عدالة كان من المحتمل أن يكون لها معها شأن — فى يوم من الايام — اذ انها كانت ترسل كثيرا من الرسائل الى داخل فرنسا وخارجها .. وكانت هذه الرسائل من قبيل يثير الشبهات .

وقالت أخيرا : « أتذهب الى المسرح أحيانا ، يا مواطن؟ » .

وولج الحجرة — فى هذه اللحظة — الفارس « هنرى » ، وهو أكثر فتنة من « باثيل » الطفل — **(٤٥)** — وقد ازدان وسطه بمسدسين ضخمين . فقبل يد المواطنة الحسناء، التى قالت له : **« ها هو ذا المواطن ايفاريست جاميلان ، الذى قضيت النهار من أجله فى لجنة الامن العام ، والذى لم يعرف لى فى هذا فضلا . فهلا انحيت عليه باللوم ؟ »** . فصاح العسكرى: « آه ، أيتها المواطنة ، ارأيت مشرعينا فى (التويليرى) ؟ .. ياله من منظر يثير الفم ! أفكان يليق بممثلى شعب حر أن

---

(٤٥) رمز الصبا الغض والجمال المشرق والنضارة .

يجتمعوا تحت سقف طاغية مستبد ؟ .. أن الثريات التى كانت تضىء ـ من قبل ـ فوق فتن « كابيه » **(٤٦)** ، ومباذل « انتوانيت » ، تنير اليوم أمسيات مشرعينا . انه لأمر يهز اركان الطبيعة ! »

فردت المواطنة قائلة : « هنىء المواطن جاميلان يا صديقى، فقد عين محلفا فى المحكمة الثورية ! » . فقال هنرى : «تهانئى ايها المواطن . يسعدنى أن ارى رجلا له شخصيتك موكلا بمثل هذه المهام . **ولكننى ـ والحق يقال ـ قليل الثقة فى هذه العدالة المرسومة وفقا لاساليب نظامية معينة ، والتى انشأها المعتدلون من اعضاء المؤتمر . وفى هذه « النيميسيس » ـ (٤٧) ـ اللينة ، الرخوة ، التى تحابى المتآمرين ، وتترفق بالخونة ، ولا تكاد تجرؤ على أن تهوى بقبضتها على أنصار التحالف ، وتخشى أن تستدعى النمسوية الى قفص الاتهام** .. لا ، ليست هذه بالمحكمة الثورية التى تنقذ الجمهورية . انهم لمجرمون أولئك الذين يوقفون سير العدالة الشعبية فى الموقف المحفوف بالاخطار ، الذى نقفه الان ! »

وهنا قالت المواطنة روشمور : « هنرى .. ناولنى هذه القنينة .. ! »

***

عندما عاد جاميلان الى مسكنه ، وجد امه والشيخ « بروتو » يلعبان الورق على ضوء واهن ينبعث من شمعة

---

(٤٦) « كابيه » لقب أسرة « هوج » ، ثالث أسرة ملكية اعتلت عرش فرنسا . وقد أطلقه الثوار على لويس السادس عشر بعد خلعه ، ايذانا بارتداده مواطنا عاديا .

(٤٧) ربة الانتقام .

مدخنة . وكانت المواطنة تعلن ــ بلا تحرج ــ ان معها مجموعة ثلاثيه من (الروا) » (٤٨) .. وما ان علمت ان ابنها اصبح محلفا حتى قبلته فى حراره وابتهاج ، وقد رات فى دلك شرفا كبيرا لكليهما ، وأنه سيكفل لهما معا القوت الدافى ، طيلة أيامهما .. وقالت : « اننى لسعيدة وفخورة بأن أكون ام محلف !.. أن العدالة امر جميل ، وهو أكثر الامور لزوما ، فبدون عدالة يتعرض الضعفاء للاستياء فى كل لحظة . واعتقد أنك ستكون محلفا طيبا يا ايفاريستى ، فقد عهدتك ــ منذ الطفولة ــ عادلا ومنصفا فى كل شيء . ولقد اعتدت ان لا تطيق الغبن ، وأن تقاوم ــ بكل قواك ــ العنف .. وأعتدت أن تكون رحيما بالمنكوبين ، وهذا أجمل ما يزين القاضى .. ولكن ، نبئنى يا ايفاريست ، ما الذى سترتديه فى هذه المحكمة العظيمة ؟ »

وأجابها جاميلان بأن القضاة يرتدون قبعة مزدانة بريشات سوداء ، ولكن المحلفين لا يرتدون اى زى رسمى ، وانما يلبسون ثيابهم العادية . فقالت المواطنة : « كان من الافضل أن يرتدوا الوشاح والشعر المستعار ، فهم يبدون بهذا أكثر وقارا .. ومع انك تهمل ــ فى معظم الاحيان ــ ملبسك ، الا انك جميل ، وتظهر وسيما فى ثيابك . على أن أغلب الرجال يحتاجون الى شيء من الزينة ليظهروا بمظهر يليق بالاعتبار .. من الافضل أن يرتدى المحلفون الوشاح والشعر المستعار! »

وكانت المواطنة قد سمعت ان مهام المحلفين فى المحكمة تعود عليهم بدخل ما ، فلم تحجم عن السؤال عما اذا كانوا يكسبون ما يكفل لهم عيشا أمينا محترما ، اذ لابد

---

(٤٨) ورقة اللعب المعروفة بـ « الشايب » و « روا » بالفرنسية معناها الملك .

للمحلف ـ كما قالت ـ من أن يظهر بمظهر طيب بين الناس . وعلمت بارتياح أن المحلفين يتقاضون مكافاة قدرها ثمانى عشرة ليبرة عن الجلسة ، وأن كثرة الجرائم ضد سلامة الدولة تضطرهم الى عقد جلسات كثيرة .

وجمع الشيخ « بروتو » أوراق اللعب ، ونهض قائلا لجاميلان : « لقد وكل اليك ـ أيها المواطن ـ منصب ذو سلطان ومهابة ، فأهنئك اذ تعير اضواء ضميرك ووعيك لمحكمة هى أوطد المحاكم قدما واقلها تعرضا للخطأ ، لانها تبحث الخير والشر ، لا فى حد ذاتيهما ، وانما فى علاقاتهما بالمصالح المتشابكة ، وبالمشاعر التى تتكشف . سيكون عليك أن تحكم بين الحقد والحب ـ اللذين يتكشفان من تلقاء نفسيهما ـ وليس بين الحق والباطل ، اللذين يشق التمييز بينهما على عقول البشر الضعيفة . فاذا حكمت وفقا لوحى قلبك ، فلن تتعرض للزلل ؛ لأن الحكم يكون صالحا اذا أرضى عواطفك ، وهى شرعتك القدسية .. ولكن الامر سواء ، ولو كنت رئيسك لحذوت حذو «بريدوا» (٤٩) ، فاركن الى ما يقضى به النرد !.. فان هو الاضمن ، فيمسا يتعلق بالعدالة !

---

(٤٩) شخصية مضحكة ساذجة من ابتداع « رابليه » ، كان صاحبها يلجا الى النرد (الزهر) يستوحيه قراراته ؟

الفصل التاسع

• **كان** على « ايفاريست جاميلان » أن يبدأ مهامه فى ١٤ سبتمبر ، عقب اعادة تشكيل المحكمة ، بحيث تقسم الى اربعة أقسام ، لكل منها خمسة عشر محلفا . وكانت السجون غاصة ، والمدعون العامون يعملون ثمانى عشر ساعة يوميا . فان المؤتمر – ازاء هزائم الجيوش ، وثورات الاقاليم ، والمؤامرات ، والدسائس ، والخيانات – قد فرض الارهاب!

.. **كانت الالهة عطشى !**

وكان أول اجراء للمحلف الجديد ، أن قام بزيارة تقدير للرئيس « هيرمان » ، الذى فتنه برقة حديثه ، ولطف مسلكه ، واذ كان مواطنا وصديقا لروبسبيير ، وكان يقاسمه المشاعر ،

فانه كان يكشف عن قلب حساس ، فاضل ، ونفس مفعمة بالاحاسيس الانسانية ، التى غابت عن قلوب الاجانب امدا جد طويل ، والتى كانت تبعث مجد خالد لديباتى وبيكاريا (٥٠) . وكان يغتبط لشعور الرحمة الذى تجنى - فى النظام القضائى - فى كبح التعذيب والوسائل التعسفية او القاسية ، ويسره أن يرى أن عقوبة الاعدام - التى كانت موضع اسراف فيما مضى ، والتى كانت كثيرا ما تستخدم فى عقاب الذنوب التافهة - قد ازدادت ندرة ، وأصبحت تقصر على الجرائم الكبرى. بل انه الغاها من تلقاء نفسه - كما فعل روبسبير - فى كل مالم يكن يمس السلامة العامة . **ولكنه كان يرى أن من الخيانة للدولة أن لا يقضى بالاعدام فى الجرائم التى ترتكب ضد سيادة الدولة ! .. وكان كل زملائه يرون هذا ، اذ كانت الفكرة القديمة - التى أقسم بها العهد الملكى - عن « حق الدولة » ، مصدر اتهام للمحكمة الثورية .** وقد ادت ثمانية قرون من الحكم المطلق الى تشكيل عقليات القضاة على هذا النحو .. وعلى مبادىء « الحق الالهى »، راحوا يصدرون احكامهم على أعداء الحرية !

ومثل « ايفاريست جاميلان » فى اليوم ذاته ، امام المدعى العام - المواطن « فوكييه » - الذى استقبله فى المكتب الذى اعتاد أن يعمل فيه مع سكرتيره .. وكان رجلا متين البنيان، خشن الصوت ، له عينا قط ، ويحمل على وجهه المشوه بالجدرى ، وعلى بشرته الرصاصية اللون ، أمارات القسوة التى تنشأ عن حياة تفرض الجلوس والعزلة على الرجال

---

(٥٠) شارل ديباتى كان رئيسا لبرلمان « بوردو » فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر واشتهر بالنزاهة . و « سيزار دى بيكاريا » كان فيلسوفا ايطاليا ذا ابحاث جنائية ، فى نفس الفترة . ومن مؤلفاته اقتبست كثير من مبادىء القانون الجنائى .

الاقوياء ، الذين خلقوا للعمل فى الهواء الطلق ، وفى الاعمال التى تتطلب جهودا عنيفة . فقد كانت الملفات والاضابير متراصة حوله كجدران القبر .. ومن الجلى انه كان يحب هذه الصومعة الورقية الرهيبة ، التى كانت تبدو كأنها توشك ان تخنقه . وكانت احاديثه احاديث رجل القضاء الجاد ، الذى وهب نفسه لواجباته ، والذى لا يتجاوز عقله نطاق مهامه .. وأنفاسه الحارة تفوح برائحة الخمر التى كان يتناولها ليشحذ قواه ، والتى لم تكن تصعد الى مخه - فيما يبدو - اذ كانت أحاديثه تتسم بالجلاء والوضوح ، برغم أنها كانت تنم عن ذكاء متوسط ! .. وكان يقيم فى مسكن صغير فى قصر العدالة ، مع زوجه الشابة التى أنجبت له توأمين .. وهذه الشابة ، والعمة « هنرييت » ، والخادم « بيلاجى » ، كن جميع أهل داره. وكان يبدى لهؤلاء النسوة لطفا وطيبة.. وقصارى القول أنه كان رجلا ناجحا فى أسرته ومهنته ، وان لم يؤت آراء كثيرة أو يمتاز بشىء من سعة الافق اطلاقا!

ولم يكن « جاميلان » يقوى على كبح نفسه عن أن يلاحظ - فى استياء - أن رجال القضاء فى النظام الجديد كانوا يشبهون رجال القضاء فى العهد القديم ، فى الفكر وطرق التفكير . فهكذا كان هيرمان - الذى مارس مهام النائب العام فى مجلس (آرتوا) - وفوكييه ، الذى كان مدعيا قديما فى (شاتيلية) . اذ احتفظا بطابعهما ، حتى لقد خشى « ايفاريست جاميلان » من نكسة ثورية .

وعندما بارح المحكمة ، أجتاز رواق قصر العدالة . وتوقف أمام الحوانيت ، حيث كانت كافة ألوان السلع معروضة بتنسيق فنى . وفى حانوت المواطنة «تينو» ، تصفح المؤلفات التاريخية ، والسياسية ، والفلسفية : « اغلال

العبودية » ، و « رسالة فى الاستبداد » ، و « جـــرائم الملكات » .. وقال لنفسه : « مرحى ! .. هـــذه كتابات الجمهوريين ! » . ثم سأل صاحبة المكتبة عما اذا كانت تبيع كثيرا من هذه الكتب ، فهزت رأسها قائلة : « لا يروج سوى كتب الاغانى والقصص ! » . وتناولت كتابا صغيرا من احد الادراج ، قائلة : « اليك كتاب حسن ! » .. وقرأ ايفاريست عنوانه ، فاذا به : « الراهبة ذات القميص » !

ووجد ــ امام الحانوت المجاور ــ « فيليب ديماهى » ، الذى راح ــ وسط عطور ومساحيق المواطنة « سان جور » ــ يؤكد للتاجرة الحسناء حبه ، فى حنان واناقة اسلوب ، معاهدا اياها أن يرسمها ، سائلا اياها ان تلقاه لحظة فى حـــديقة (التويلرى) فى المساء .. وكان جميلا ، والاغراء ينساب من بين شفتيه ، ويطل من عينيه . فراحت المواطنة « ســان جور » تصغى اليه فى صمت ، وقد غضت بصرها ، ميـــالة الى ان تصدقه !

ولكى يألف المهام الخطيرة المنوطة به ، رأى المحـــلف أن يشهد ــ من بين صفوف الجمهور ــ قضية كانت مطروحة أمام القضاء .. فصعد السلم الذى جلس على درجاته حشد هائل من الناس ــ فى احد المدرجات ــ ونفـذ الى القاعـــة القديمة التى كانت مخصصة لبرلمـــان باريس . وكانت القاعة غاصــة ، وقد أوشك الناس أن يختنقوا فى ســبيل مشاهدة محاكمة أحد القادة . ذلك لان « المؤتمر » كان فى تلك الايام ــ كما قال الشيخ بروتو ــ « يحذو حذو حكومة صاحب الجلالة البريطانية ، فيحاكم القادة المهزومين بذنوب القادة الخونة ، اذ ان هؤلاء لم يكونوا يعـــرضون أنفسهم للمحاكمة ! » . وما كان ذلك ــ على ما اضاف بروتو ــ « لأن

القائد المهزوم مجرم بطبيعة الحال ، اذ انه لابد فى معركة من قائد مهزوم .. وانما لانه ما من شىء أقوى مفعولا من الحكم باعدام قائد فى اثارة الحمية فى نفوس القادة الاخرين .. »!

وكان قد مر بمقعد الاتهام عـــدد من هؤلاء العسكريين ذوى الرؤوس الجوفاء ، الصلبة ، ممن أوتوا عقول العصافير فى جماجم الثيران ! .. وكان القائد الماثل للمحاكمة ــ فى هذه المرة ــ لا يعرف عن خطط الحصار والقتال ، التى اشرف على تنفيذها ، أكثر مما كان يعرفه رجال القضـــاء الذين تولوا سؤاله ، فكان الاتهام والدفاع يخوضان فى بيانات عدد الجنود ، وبيانات الاهداف ، وبيانات الذخائر ، وفى حركات الزحف ، وحركات الهجوم المضاد .. وكان حشـــــد المواطنين الذين راحوا يتتبعون هذه المناقشات المبهمـــة اللانهائية ، يرون ــ خلف الرجل العسكرى القبى ــ الوطن عاريا ، ممزقا ، يعانى الف سكرة من سكرات الموت .. ومن ثم راحوا ــ بالنظر وبالصوت ــ يحثون المحلفين الذين كانوا يجاسون على منصتهم ساكنين ، بأن يجعلوا حكمهم بمثـابة ضربة قاضية لاعداء الجمهورية !

وشعر جاميلان ــ فى تحمس ــ بان ما ينبغى أن توجه اليه الضربة فى شخص هذا البائس ، انما هما الوحشان الفظيعان اللذان كانا ينهشـــــــان الوطن : التمرد ، والهزيمة .. وراح يفكر تفكيرا صادقا فى روية ، لمعرفة ما اذا كان هـــذا العسكرى بريئا او مدانا . ففى الوقت الذى استعادت فيه (فانديه) شجاعتها ، وفى الوقت الذى استسلمت فيـه (تولون) للعدو ، وفى الوقت الذى تراجع فيه جيش (الرين) امام غزاة (ماينس) ، وفى الوقت الذى كان فيه جيش الشمال ــ المتراجع ــ معرضا لان ينهار تحت قبضة الامبراطوريين ،

والانجليز ، والهولنديين ، المسيطرين على (فالنسيين) .. فى وقت كهذا ، تمس الحاجة الى تلقين القادة ان عليهم ان ينتصروا او يموتوا ! .. واذ راى هذا العسكرى المسن ، الذى اذهله الموقف وشل حراكه ، والذى بدا — فى الجلسة — تائها بين خرائطه ، كما كان تائها فى سهول الشمال ، آثر جاميلان ان يغادر القاعة وهو يتحرق انفعالا ، حتى لا يصيح مع الجمهور : « الى الموت ! »

***

وفى اجتماع الجمعية العامة للقطاع ، تلقى المحلف الجديد التهانىء ، من الرئيس «أوليفييه» ، الذى حمله على ان يقسم على مذبح البارنابيين القديم — الذى تحول الى مذبح للوطن — أن يخنق باسم الانسانية المقدس كل ضعف بشرى فى فؤاده . فرفع جاميلان يده ، واشهد على قسمه روح « مارا » العظيم ، شهيد الحرية ، الذى رفع تمثاله النصفى أخيرا — على أحد اعمدة المكان الذى كان كنيسة من قبل — فى مواجهة تمثال « لوبيلتييه » . ودوى فى المكان بعض التصفيق ممتزجا بهمهمات . وكان المجتمعون مهتاجين ، وقد تعالى — عند مدخل صحن الكنيسة السابقة — ضجيج فريق من أعضاء الجمعية مسلح بالمعاول .. فقال الرئيس : « من المجافاة للروح الجمهورية ، حمل الاسلحة فى أجتماع للاحرار ! » . وامر بايداع البنادق والمعاول فورا ، فى الغرفة التى كانت — فيما مضى — خزانة للمخلفات المقدسة .

واحتل منبر الوعظ — الذى غدا منبرا للخطابة ، وتوج بقلنسوة حمراء — احدب ذو عين ثاقبة وشفتين منفرجتين ، هو المواطن « بوفيزاج » — عضو لجنة المراقبة — فقال : « ان القادة يخوننا ، ويسلمون جيوشنا للعدو ؟ ؟

والامبراطوريون يدفعون بفرق من الفرسان حول (بيرون) و (سان كنتان) ، كما أن (تولون) قد استسلمت للانجليز، الذين انزلوا الى البر اربعة عشرألفا من الرجال .. أن أعداء الجمهورية يتآمرون فى قلب ((المؤتمر)) ذاته .. وأن خططا لا حصر لها ، تدبر فى العاصمة ، لتخليص ((النمسوية)). وفى اللحظة التى أتحدث فيها ، تنتشر شائعة بأن ابن ((كابيه)) قد أفلت من سجن (التامبل) ، ونقل مظفرا الى (سان كلو)، رغبة فى رفع عرش الطغيان من أجله . وان غلاء الاقوات ، وتدهو قيمة الاوراق المالية نتيجة للمناورات والدسائس التى تدبر فى داخل بلادنا ، وتحت أعيننا ، بوساطة عملاء الأجانب .. فباسم السلام العام ، أناشد المواطن المحلف بأن لا تأخذه رحمة بالمتآمرين والخونة ! »

وما أن هبط عن المنبر ، حتى ارتفعت أصوات داخل الاجتماع:« لتسقط المحكمة الثورية! .. ليسقط المعتدلون!». وصعد المنبر المواطن « ديبون » الكبير — النجار بميدان تيونفيل — ببدانته وبشرته المتوردة ، قائلا أنه كان تواقا الى أن يوجه للمواطن المحلف سؤالا .. وطلب الى «جاميلان» أن يوضح رايه فى قضية انصار « بريسو » ، وارملة «كابيه». وكان ايفاريست خجولا ، لا يعرف كيف يتكلم فى الاجتماعات العامة . ولكن العزة الهمته ، فاذا به يقف شاحب الوجه ، ويقول بصوت حاد : ((اننى قاض ، ولست أتبع سوى ضميرى، فكل وعد اقطعه لكم سيكون مخالفا لواجبى . أن على أن أتكلم فى المحكمة ، وأن اصمت فى كل ما عداها .. اننى لم أعد أعرفكم ، فانى قاض ، والقاضى لا يعرف أصدقاء ولا أعداء !))

وحبذت الجمعية العامة قوله ، فقد كانت على غرار الجمعيات

طرا ، تضم عناصر متباينة ، فهى لذلك مذبذبة الرأى متقلبة . ولكن المواطن « ديبون » انبرى للهجوم ، فما كان ليغفر لجاميلان ان تبوأ منصبا كان هو يصبو اليه . فقال : « انني أفهم ، بل وأقر مخاوف المواطن المحلف .. يقال انه وطنى ، اذن فله وحده أن يرى بما اذا كان ضميره يسمح له بأن يتخذ لنفسه مكانا فى محكمة مهيأة للقضاء على أعداء الجمهورية ، ومعقودة العزم على التنكيل بهم .. انها مؤلفة من آثمين ينبغى على المواطن الصالح أن يتحاشاهم . الم يثبت أن كثيرا من محلفى هذه المحكمة قد انساقوا للفساد بسبب ذهب المتهمين ، وان رئيسها « مونتانيه » قد أقدم على التزوير لكى ينقذ رأس الفتاة كورداى ؟ »

ودوت جنبات الصالة بتصفيق حاد لهذه الكلمات . وكانت التصفيقات الاخيرة لا تزال تتصاعد الى السقف حين ارتقى « فورتونيه تروبير » المنبر . وكان قد ازداد هزالا فى هذه الشهور الاخيرة ، فاذا عظام وجنتيه المحمرتين تبرزان تحت جلد وجهه الشاحب ، وقد احتقنت جفونه ، وبدا انسانا عينيه كأنهما زجاجيان . وقال بصوت واهن متهدج بعض الشىء ، وان بدا ثاقبا بدرجة عجيبة : « أيها المواطنون ، لا سبيل الى الشك فى المحكمة الثورية ، دون الارتياب — فى الوقت ذاته — فى المؤتمر ولجنة الامن العام اللذين تمخضت عنهما . لقد اثار المواطن بوفيزاج مخاوفنا اذ أرانا ان الرئيس مونتانيه قد بدل سير المحاكمة لصالح احدى المذنبات . والذى لم يضفه الى هذا — من أجل راحة نفوسنا — هو أن مونتانيه اعتقل وسجن بناء على اتهام وجهه اليه المدعى العام .. أما من سبيل الى السهر على الامن العام دون القاء الشبهات فى كل مكان ؟.. ألم يعد فى المؤتمر

مواهب ولا فضائل ؟.. أليس روبسبيير ، وكوثون ، وسان جوست رجالا أمناء ؟.. من العجيب أن تصدر اشد الاقوال عنفا عن أفراد لم يشهدوا قط النضال من اجل الجمهورية ! .. وما كانوا ليقولوا غير ذلك اذا شاءوا ان ينفروا القلوب منها . أيها المواطنون ، قليلا من الضجيج ، ومزيدا من العمل للمصلحة العامة !.. ان فرنسا لن تنقذ الا بالمدافع وليس بالصخب . ان نصف أقبية الحى لم تحفر بعد ، ولايزال كثير من المواطنين يحتفظون بكميات كبيرة من البرونز .. اننا نذكر الاغنياء بأن الهبات التى يقدمونها للوطن هى خير كفالات لسلامتهم . اننى أعهد الى كرمكم ببنات ونساء الجنود الذين يحققون المجد عند الحدود ، وعلى ضفاف (اللوار) . لقد كان أحدهم ، وهو بوميبه (اوجستان) من فرقة الفرسان ــ الذى كان مساعدا لأمين المخازن بشارع أورشليم من قبل ــ أمام كونديه فى العاشر من مايو الماضى ، يقود الجياد ليسقيها ، فاذا به يتعرض لهجوم من ستة من الفرسان النمسويين ، فقتل اثنين منهم ، وساق الباقين أسرى . وانى لأطلب ان تعلن الجمعية العامة للقطاع ان بوميبه (اوجستان) قد أدى واجبه ! »

وقوبلت هذه الخطبة بالتصفيق . وتفرق اعضاء الجمعية وهم يهتفون : « لتحى الجمهورية ! » .. واذ صار جاميلان وحيدا مع « تروبير » فى صحن الكنيسة ، صافحه قائلا : « شكرا . كيف حالك ؟ » . فأجاب تروبير وهو يسعل فيبصق دما فى منديله : « اننى فى خير حال . ان للجمهورية أعداء كثيرين فى الخارج وفى الداخل ، وان قطاعنا ليضم ــ فى حد ذاته ــ عددا كبيرا منهم . **ان الامبراطوريات لا تصاغ بالصخب ، وانما بالحديد**

وبالقوانين ! .. عم مساء ياجاميــــلان ، فان لدى خطابات يجب أن تكتب !))

ومضى ـ ومنديله على شفتيه ـ الى الحجرة التى كانت خزانة المخلفات المقدسة من قبل .

***

اتخذت المواطنة الارملة جاميلان ـ منذ صباح اليــوم التالى ـ وقارا بسيطا ، وكبرياء جمهـورية ، وعزة تليق بأم مواطن محلف ، وقد أصبحت شـــارتها أصلح وضـــعا على شعرها .. كان الاحترام ـ الذى نشأت عليه ـ للقضاء ، والاعجاب الذى تملكها منذ طفولتها للقضـــاة ، والذى كان يوحيه اليها الوشاح والعباءة السابغة الجرارة والرهبـة القدسية التى طالمـا خالتها فى حياة أولئك الرجـال الذين نزل الله لهم على الأرض عما له من حق الحياة والموت .. **كل هذه المشاعر أحالت فى نظرها ذلك الابن الذى كانت ـ حتى ذلك الحين ـ تراه لا يزال شبيها بالطفل ، الى شـخص جليل ، وقور ، ذى قداســـة .** وكانت ـ فى سـذاجتها ـ تتطلع الى استمرار العدالة خلال الثورة ، بيقين أقوى من ذاك الذى كان مشرعو المؤتمر يتطلعون به الى استمرار قيام الدولة برغم تغيير نظم الحكم . وكانت المحكمة الثـورية تتمثل لها مساوية فى الجـلال لكافة الهيئات القضائيـة القديمة التى تعلمت أن تحترمها .

أما المواطن « بروتو » ، فقد أبدى للقاضى الشاب اهتماما ممتزجا بدهشــة واحترام متكلف .. وكالمواطنة الازملة جاميلان ، كان يرى استمرار العدالة برغم تقلب نظم الحكم ، ولكنه ـ على العكس من هذه السيدة ـ كان يستهجن أن

تكون المحاكم الثورية مساوية لمحاكم العهد القديم .. واذ لم يكن يجرؤ على المجـاهرة برأيه ، ولم يكن يطيق – فى الوقت ذاته – أن يقنع بصمته ، فقد عمد الى توريات فهمها جاميلان فهما صحيحا جعله يرتاب فى وطنية الرجل الذى قال له ذات مرة : « ان المحكمة العظيمـة التى عينت فيهـا أخيرا ، قد أنشأها مجلس الشيوخ الفرنسى من أجل سلامة الجمهورية . ويقينا أنهـا لفكرة فاضلة من مشرعينـا أن يتيحوا محاكمات قضائية لأعدائهم . وانى لأرى هذا كرما ، ولكنى لا أراه من السياسـة فى شىء . وكان الاجدر بهم – فيما يبدو لى – أن يضربوا فى الظلام من لا سبيل الى اصلاحهم من خصومهم ، وأن يكسبوا الآخرين بالعطايا والوعود.

ان المحكمة المثالية هى التى تضرب ببطء ، وتوقع من الضر أقل مما تحدث من الخوف . والذى ينقص محكمتكم هو أن تصالح أولئك الذين توقع الذعر فى نفوسهم ، وبهـذا تجعل من فوضى المصالح والعواطف المتضاربة جماعة واحدة كبيرة قادرة على العمل المشترك ، ذات نفوذ وسلطان ..

انكم تبذرون الخوف ، والخوف أكثر خلقا للأبطـال من الشجاعة . فليقدر لك أيها المواطن جاميلان ، أن لا تشهد يوما تنصب عليك فيه سيول الخوف ! »

وكان الحفار « ديماهى » مغرقا – فى ذلك الأسبوع – فى غرام فتـاة من فتيـات قصر المساواة ، هى السمراء « فلورا » ، الفارعة القوام . ومع ذلك فقد وجد من وقته خمس دقائق ليهنىء زميله ويقول له أن تعيينه فى منصب كهذا تكريم عظيم للفنون الجميلة .

أما « ايلـودى » فكانت تكره كل شىء ثورى ، دون أن تفطن . ومع أنها كانت تخشى المهام العامة وتراها بمثابة

مزاحمات خطيرات قديرة على أن تنازعها قلب حبيبها ، الا أن ((ايلودى)) الرقيقة راق لها أن تتقبل أن تكون حبيبة قاض يدعى الى الفصل فى أمور عظيمة . ومن ثم فان تعيين ايفاريست للاضطلاع بمهام المحلف خلق حولها جوا سعيدا ، استمتعت به مشاعرها المرهفة . واقبل المواطن ((جان بليز)) الى المرسم - فى ميدان تيونفيل - فعانق المحلف بفيض من الحنان الناعم . فقد كان - ككل معارض للثورة - يبدى اعتبارا لسلطات الجمهورية، وكانت المحكمة الثورية تبث فيه احتراما مبنيا على الخوف ، منذ اتهم بالغش فيما كان يورده للجيش من مؤن .. كان يرى نفسه شخصية ذات مظهر وذات اختلاط بكثير من الأمور التى لاتتيح له أن يتذوق السلامة كاملة . ومن ثم فقد لاح له المواطن جاميلان رجلا جديرا بأن يستغل ، لاسيما وانه كان مواطنا صالحا ، صديقا للقانون ! .. فبسط يده للرسام المحلف ، مبديا الود والوطنية والتحمس للفنون وللحرية . فصافح جاميلان - بما أوتى من كرم النفس - اليد المبسوطة له .

وقال جان بليز : ((ايها المواطن ايفاريست جاميلان ، اننى أعتز بصداقتك ومواهبك ، وسأقلك غدا الى الريف لثمان وأربعين ساعة ، فترسم ، ونتحدث معا !)) . وكان تاجر الصور ينظم - عدة مرات فى السنة - نزهات فى الريف للرسامين ، تستغرق يومين أو ثلاثة ، فيرسمون المناظر الطبيعية والاطلال تحت ارشاداته . واذ كان يدرك - بذكائه - ما قد يروق لجمهوره ، فقد كان يخرج من هذه الجولات بلوحات تستكمل فى معمله وتنحت بمهارة ، وتطبع بالألوان فتدر ربحا طيبا . كان يصنع من تلك الرسوم

لوحات للابواب ونقوشا كانت تلقى من الرواج ما يفوق زخارف « أوبير روبير » .

ولقد رغب فى أن يصطحب المواطن جاميلان — فى هذه المرة — ليرسم له صورا منقولة عن الطبيعة . وهكذا رفع منصب المحلف من مقام الرسام لديه . وكان فى الفريق رسامان آخران ، هما الحفار « ديماهى » — الذى كان يحذق الرسم — والفنان المغمور « فيليب ديبوا » الذى كان يجيد الرسم بأسلوب «روبير» . وقد رافقت المواطنة «ايلودى» ، ومعها زميلتها المواطنة « هازار » ، الرسامين كالعادة . كما أن جان بليز — الذى كان يعرف كيف يجمع بين شواغل مصالحه وحرصه على ملذاته — دعا الى تلك النزهة المواطنة « تيفينان » ، ممثلة « الفودفيل » التى كانت من المعروف انها أعز صديقاته !

الفصل العاشر

• فى الساعة السابعة من صباح يوم السبت ، أقبل المواطن « بليز » وقد ارتدى قلنسوة سوداء مثلثة ؛ وصديرى وردى ، وسروالا (بنطلون) من الجلد ، وحذاءين أصفرين ذوى قلابتين . فراح يدق بمقبض سوطه باب المرسم . وكانت المواطنة الارملة جاميلان منهمكة فى حديث برىء مع المواطن « بروتو » ، بينما كان « ايفاريست » يعقد ربطة عنقه البيضاء العريضة امام قطعة صغيرة من مرآة .. وقالت المواطنة : « رحلة طيبة ياسيد بليز !.. ولكن ، مادمتم تعتزمون ان ترسموا مناظر طبيعية ، فاصطحبوا السيد بروتو ، اذ انه يجيد الرسم » . فقال جان بليز : « لا بأس !.. تعال معنا يا مواطن بروتو ! » . وما أن اطمأن

بروتو الى انه لن يكون متطفلا ، حتى قبل الدعوة .. فقد كان ذا روح اجتماعية ، وكان محبا للمسرات .

وكانت المواطنة « ايلودى » قد صعدت الى الطابق الرابع لتقبل المواطنة الارملة جاميلان ، التى كانت تدعوها « حماتها » !.. وكانت فى ثياب بيضاء - من رأسها الى قدمها - ويفوح منها عبير الخزامى (اللافنده) .

وكانت فى انتظارهم مركبة مغلقة (برلين) عتيقة - من المركبات التى تستخدم فى الرحلات - يجرها جوادان ، وقد أزيح سقفها ، واحتلت المقعد الاوسط فيها « روز تيفينان » و « جوليين هازار » . واتخذت « ايلودى » مجلسها الى اليسار ، جاعلة الممثلة الى يمينها ، و « جوليين » النحيلة بينهما . وجلس «بروتو» فى المقعد الخلفى ، مواجها المواطنة « تيفينان » ، و « فيليب ديبوا » مواجها المواطنة « هازار » ، و « ايفاريست » مواجها « ايلودى » . اما « فيليب ديماهى » ، فقد حط جسده الرياضى على المقعد الامامى ، الى يسار الحوذى الذى راح يروى له ان الاشجار - فى احدى بلدان أمريكا - تثمر « سجق » بدلا من الفاكهة !

ولما كان المواطن بليز فارسا بارعا ، فقد انطلق على صهوة جواد ، مستبقا القوم حتى يأمن العثير الذى تثيره المركبة .

وما ان طوت العجلات طرق الضواحى المرصوفة ، حتى نسى المرتحلون همومهم ، وانقلبت أفكارهم ضاحكة ناعمة ، عند مرأى الحقول والاشجار والسماء . **وخيل لايلودى انها انما خلقت لتربى الدجاج الى جوار «ايفاريست» الجدير بأن يكون قاضيا يقر الامن فى قرية على ضفة نهر بالقرب من غابة .**

واخذت اشجار الصفصاف الصغيرة تتراجع تباعا .

وعند مداخل القرى ، كانت الكلاب الصغيرة تهرع فى تحد نحو العربة ، وتنبح عند سيقان الجياد ، بينما كانت كلاب الصيد الكبيرة تنهض فى تكاسل من مرقدها فى عرض الطريق وتتباعد .. اما الدجاجات فراحت تتفرق وتجرى فى عرض الطريق ، وهى مضطربة تنشد الفرار .. بينما كان الاوز يتباعد زرافات فى بطء وتثاقل .. والاطفال القذرون المشعثون يتطلعون الى الركب وهو يمر .

وجاء الضحى حارا ، فاذا السماء صحوة ، والارض تتحرق شوقا الى المطر . ووطئت اقدام القوم الارض على مقربة من (فيلجويف) . وفيما كانوا يجوسون خلال القرية ، دخل « ديماهى » متجرا للفاكهة ، ليشترى كرزا يرفه به عن المواطنات . واذا البائعة جميلة ، فلم يغادر المتجر . وناداه « فيليب ديبوا » بالاسم الذى اطلقه عليه أصدقاؤه فيما بينهم : « باربارو ! .. باربارو ! » .. وعند سماع هذا الاسم البغيض ، ارهف المارة اسماعهم ، وأطلت وجوه من كافة النوافذ ، حتى اذا رأوا « ديماهى » يخرج من متجر الفواكه ، تقدم منه شاب مليح ، فى معطف مفتوح يكشف عن رقبة متلعة فوق صدر قوى كصدور الرياضيين ، وقد حمل على أحد منكبيه سلة مليئة بالكرز ، وعلق فى طرف عصا — على المنكب الآخر — لفافة بها ثيابه . وظن الرجل أن « ديماهى » هو الجيروندى صاحب الاسم — « باربارو » — بينما أحاط به « السانكيلوت » متجهمين فى غير ترفق ، وساقوه الى دار البلدية برغم احتجاجاته واستنكاراته ، حتى ان الشيخ « بروتو » ، وجاميلان ، والشابات الثلاث لم يجرأوا على أن يشهدوا بأن المواطن كان « فيليب ديماهى » الحفار الدقيق ، وانه كان يعقوبيا صادقا .. ثم قدر للمشتبه فى امره ان

يبرز بطاقته المدنية التى كان يحملها بمصادفة غريبة ، اذ انه كان شديد الاهمال لمثل هذه الاشياء . وكان هذا هو الثمن الذى افتدى به نفسه ، فأفلت من أيدى القرويين المتحمسين دون ما خسائر اللهم الا أن أحد كمى قميصه - المصنوعين من الدانتيلا - تهدل وفقد استواءه .. ولكنها كانت خسارة طفيفة ، على كل حال !.. وسرعان ما تلقى اعتذارات من رجال الحرس الوطنى ، الذين صافحوه بكل حرارة ، وراحوا يتحدثون عن استعدادهم لأن يحملوه الى دار البلدية فى اكرام واكبار !

واذ وجد نفسه طليقا محوطا بالمواطنات ايلودى ، وروز ، وجولييِن ، رمى « فيليب ديبوا » - الذى لم يكن يحبه ، وكان يشتبه فى انه خائن - بابتسامة ملؤها الاستهجان ، وقال له : « لو انك ناديتنى بباربارو مرة أخرى ياديبوا ، فسأناديك ببريسو .. وهو شاب ضئيل ، قمىء ، سخيف ، ذو شعر مضمخ بالدهون ، وبشرة تنضح بالزيت ، ويدين لزجتى الملمس .. **ولن يرتاب أحد فى أنك بريسو السىء السمعة ، عدو الشعب .. ولن يحجم الجمهوريون - اذ يستنكرون منظرك ويشمئزون منك - عن ان يشنقوك على أقرب مصباح .. أتسمع ؟ »**

وأخذ المواطن « بليز » - الذى تحول يسقى جواده - يؤكد انه هو الذى سوى الموضوع ، بالرغم من انه كان جليا للجميع ان الامر سوى بدونه .

***

وعادوا الى المركبة .. وفى الطريق ، زعم « ديماهى » للحوذى ان عددا كبيرا من سكان القمر ، سقطوا فى ذاك السهل الذى كانوا يجتازونه - سهل (لونجومو) - فى قديم

الزمن ، وكانوا من حيث الشكل واللون يشبهون الضفادع ، ولكنهم كانوا ـ من حيث القوام ـ أرقى منهـا كثيرا .. أما فيليب ديبوا وجاميلان ، فراحا يتحدثان عن فنهما . وكان « ديبوا » من تلاميذ « رينيـو » ، وقد ذهب الى (روما) ، وشهد لوحات « رافاييل » الموشاة ، التى اعتبرها فـوق كافة التحف الفنية . وكان يعجب بطـريقة « كوريج » فى التلوين ، وبمقدرة « هانيبال كراشى » على الابتكار ، وأسلوب « الدومينيكان » فى الرسم ، ولكنه لم يكن يجـد ما يعادل لوحات « بومبيو باتونى » فى الاسلوب . ولقد تردد فى روما على مسيو ميناجو ، ومدام ليبرون ، اللذين كانا قد أعلنا عداءهما للثورة ، ومن ثم فانه لم يتحدث عنهما ، بل تحول يطرى « انجليكا كوفمان » التى عرفت بتـذوقها للتحف الاثرية وخبرتها بها .

أما جاميلان فـكان فى أسى لأن نهضة فن الرسم الفرنسى كانت بطيئة ، اذ انها لم تسجل سوى « لوسـوور » ، و « كلود » و « بوسان » . واشار الى علاقتها بالمدرستين الايطالية والفلمنكية فى انحطاطهما وما اعقبه من انهيار سريع وبعيد الغور . وقد عزا أسباب ذلك الى طبـاع الشعب ، والى « الاكاديمية » ، التى كانت مرآة لذلك الانهيار . ولكن « الاكاديمية » لم تلبث ـ لحسن الحظ ـ ان أخذت ترقى وتنهض ، تحت تأثير اقطابها الجدد ـ دافيد ومدرسـته ـ الذين خلقوا فنا جديرا بشعب حر . وفى مقدمة الرسامين المجدين ، ذكر جاميلان ـ فى غير غيرة او حسـد ـ هنيكان ، وتوبينو ـ ليبرون ، بيد ان فيليب ديبوا كان يفضـل « رينيو » ـ أستاذه ـ على دافيـد ، وكان يبنى أمل فن الرسم على الفنان الشاب « جيرار » .

أما ايلودى فقد راحت تهنىء المواطنـــة « تيفينـــان » على قلنسوتها المخملية الحمراء ، وثوبها الابيض . فى حين كانت الممثلة الهزلية تطرى زينةزميلتيها ، وترشدهما الىالوسيلة التى تحسنان بها هذه الزينة فوق حســنها ، وذلك - فى رأيها - بالاقلال من الحلى . ومضت تقول : « ليس هنـاك ما هو أفضل من البساطة . هكذا تعلمنا من المسرح ، حيث يجب الاعتماد على الثياب فى اظهار كافةالحركات .. فى هذا وحدهالجمال ، وليس فى اى شىء سواه ! » . فقالت ايلودى : « اصبت يا حسنائى ، فما من شىء اعظم قيمة فىالزينة من البساطة . وليس من قلة الذوق دائما اننا نرتدى الثياب القصيرة ، وانما نصدر فى ذلك أحيانا عن رغبة فى الاقتصاد » .

ورحن يتكلمن فى اهتمام عن ازياء الخريف ، التى تمثلت فى ان يكون الثوب قطعة واحدة ، وان يكون قصيرا . فقالت تيفينان : « كم من نساء يشوهن أشكالهن باتباع «الموضة»!.. انما ينبغى على كل امرأة أن تـرتدى ما يلائمها ! » . فقال جاميلان : « ما من جمال قدر جمال الاقمشـــة التى تلتف حول الجسم ، والتى توشى بالزوائد الفضفاضة . اما كل ما هو مقصوص ومخيط (٥١) فبغيض ! »

وقوبلت هذه الاقوال - التى قد يحسن أن يتضمنها كتاب لوينكلمان (٥٢) لا ان تنطق بها شــفتا رجل يتحــدث الى باريسيات - بتجاهل ينطوى على اســـتهجان . وقالت ايلودى : « انهم يعدون للشتاء اردية ضـــيقة من القماش الناعم ، فى فلورنسا وصقلية ، واردية ردينجوت على طـراز

---

(٥١) يقصد أن تلتف المرأة بالقماش على طريقة الاغريقيات وعلى غـرار « السارى » .

(٥٢) جوهان جواشيم وينكلمان : عالم آثار ألمانى (١٧١٧ - ١٧٦٨) .

« زوليم » ، ملفوفة حول الخصر ، وتضم من أعلى بصديرية على الطراز التركى ». فقالت تيفينان : « هذه وسيلة لستر الفقر ، وهى تباع جاهزة . أما أنا فلدى حائكة تعمل كأنها ملاك وليست باهظة الاجر ، ولسوف ارسلها اليك يا عزيزتى ! » .. وتنقل الحديث بسرعة وخفة وتتابع ، ينشر ويبسط الاقمشة الراقية ، ما بين حرير فلورنسا المموه ، والحرير البكينى الفريد ، وحرير صقلية ، و « الكريشة » ؛ وحرير نانكين .

وراح الشيخ « بروتو » يتمثل ـ وهو ينصت فى أسى ملتاع ـ تلك الاقمشة التى كانت زينة الموسم ، وقد التفت حول اجسام فاتنة .. « مودات » لم تكن تدوم طويلا ، ولكنها لا تلبث ان تبعث من جديد ، على مر الزمن ، كالزهور فى الحقول . واغرورقت عيناه ـ وهو يجيلهما بين الشابات الثلاث وزهور الترنجان وشقائق النعمان ـ بدموع يشوبها ابتسام .

وبلغوا (اورانجى) حوالى الساعة التاسعة ، فهبطوا فندق « ديلاكلوش » ، حيث اعتاد الزوجان « بواترين » ان يستقبلا القادمين على الاقدام ، أو على الجياد . وبسط المواطن « بليز » ـ الذى كان قد جدد زينته ـ يده الى المواطنين . وبعد أن دبر القوم غداءهم لوقت الظهيرة ، ساروا على الاقدام عبر الحقول الى ملتقى نهرى (لوجر) و (ليفيت) ، تتقدمهم صناديقهم ، وعلبهم ، وحوامل لوحاتهم ، ومظلاتهم .. وسعوا الى تلك الاماكن الساحرة ، حيث يتكشف سهل (لونجومو) الاخضر للابصار ، يحف به نهر (السين) وغابة (سانت جنيفييف) .

وراح جان بليز ـ الذى كان يقود فريق الفنانين ـ يتبادل

مع رجل المال السابق ــ بروتو ــ موضوعات خفيفة مازحة، ورد فيها ــ دون ترتيب ولا تنسيق ــ ذكر فربوكيه لوجنيرو ، وكاترين كيسو التى كانت تتجر فى اللوحات ، والآنسات شودرون ، والساحر جاليشميه ، واللوحات الفنية التى رسمها فنانون أحدث عهدا من هؤلاء .. مثل كاديه ــ روسبل ، ومدام انجو .

وأحس ايفاريست ــ وقد استولى عليه حب مفاجىء للطبيعة ــ بأن عينيه تمتلئان بالدموع ، اذ رأى الحصاد محزوما .. وزخر قلبه بأحلام الوئام والمحبة .. أما «دیماهی» فراح ينفخ فى شعور المواطنات حبات الهندباء الخفيفة . واذ كانت ثلاثتهن يملن بذوق المتحضرات الى باقات الزهور ؛ فقد أخذن يجمعن أعواد نبات « سكر الحوت » ــ الذى تضم زهوره سنابل ملتفة حول تاجها ــ واعواد نبات « قبة الجرس » الذى يحمل طبقات مدلاة من الزنابق الشبيهة بالنواقيس الصغيرة الرقيقة ، وأغصانا من نبات « هديل الحمام » العبق ، فى لون البرد الناصع .. واعواد الخمان ، والنعناع ، و « النبات ذى الالف ورقة » ، وكافة الزهور الخلوية التى خلفها الصيف المحتضر . ولما كان « جان ــ جاك » (٥٣) قد وضع علم النبات بين الطرائف التى تتعشقها فتيات المدن ، فقد كانت ثلاثتهن على دراية بالزهور واسمائها وغرامها !.. واذ راحت بتلات الزهور الرقيقة ــ وقد ايبسها الجفاف ــ تتهاوى بين ذراعى ايلودى ثم تتساقط كالمطر على قدميها ، ندت عن المواطنة زفرة ، وهى تقول : « هاهى ذى الزهور تحتضر ! »

***

(٥٣) جان ــ جاك روسو ، الذى عرف بشدة شغفه بالطبيعة والنبات .

وأقبل كل على العمل ، سعيا وراء التعبير عن الطبيعة التى كانت تطالعهم . بيد ان كلا منهم كان يراها بطريقة خاصة به . فاستغرق « فيليب ديبوا » ـ بعض الوقت ـ فى اتباع طريقة « أوبير روبير » ، وهو يرسم مزرعة مهجورة ، وأشجارا ذابلة ، وجدولا جف ماؤه .. وراح « ايفاريست جاميلان » يرسم مناظر الفراريج (الكتاكيت) المنتشرة على ضفة نهر (ليفيت) .. اما « فيليب ديماهى » فقد اتخذ مربضه أمام برج للحمام ؛ وراح يرسم على طريقة « كالو » و « دوبليسى » الملتوية .. واخذ الشيخ « بروتو » ـ الذى حذق تقليد اسلوب الفلاندر ـ يرسم بقرة بعناية .. وانهمكت « ايلودى » فى رسم كوخ من القش ، بينما جعلت صديقتها « جولين » ـ التى كانت ابنة تاجر للالوان ـ من نفسها حاملة ألوان لها . والتف حولها الاطفال ، وراحوا يرمقونها وهى تمزج الالوان .. فأنستهم يومهم ، وهى تسميهم « البعوض » ، وتمنحهم قطع الحلوى .

اما المواطنة « تيفينان » ، فقد راحت ـ كلما وجدت بينهم اطفالا على قدر من الجمال ـ تغسل لهم وجوههم ، وتقبلهم ، وتبث الزهور فى شعورهم ، وهى تحتضنهم فى شجن حنون لأنها لم تؤت نعمة إنجاب الاطفال .. **ولأنها ـ فى الوقت ذاته ـ شاءت ان تظهر بمظهر التى تغدق الحنان ، وان تمارس فنها فى اصطناع المناظر لنفسها وسط جمع الاطفال !..**

وما لبثت ان الفت نفسها وحيدة ؛ فلم تعمد الى الرسم ، ولا هى نسقت شعرها ، بل شغلت باستذكار أحد ادوارها ، وبالبكاء . ثم تحولت تتنقل من واحد الى آخر ـ وكراستها فى يدها ـ كأنها طيف خفيف فاتن . وبعد ان كانت الاناث

يقلن عنها : « لا لون ، ولا شكل ، ولا قوام ، ولا صوت ! » ، اذا بها تملأ الفضاء حركة ، ولونا ، وانسجاما . واذا بهـا بنحولها ، وجمالها ، وتراخيها ، وعـدم اعترافها بالتعب . تغدو بهجة الرحلة .. كانت ذات مزاج غير متزن ولكنه – فى الوقت ذاته – مرح دائما .. وكانت سريعة الحساسية والانفعال ، ولكنها – مع ذلك – لينة ، سهلة ، سلسة القياد .. وكانت لغتها قذرة ولكنها مغلفة دائما فى لهجة مؤدبة .. **كانت متعجرفة ، ومتواضعة .. صادقة ، وزائفة ، وعـذبة .. واذا لم يكن قد قدر لروز تيفينان ان توفق فى سوس امورها ، وان تغدو ربة معبـودة ، فما ذلك الا لأن باريس كانت فى أسوأ أوقاتها ، فلا بخور ، ولا معابد ، ولا صلوات !..**

وكانت المواطنة « بليز » – التى اعتادت ان تتغامز اذا تحدثت عنها ، وان تدعوها « امراة أبيها » – لا تتمالك حين تراها ان تضفى عليها المجاملات والتلطف .

وكانت مسرحيـة « طقوس عيـد الزيارة » قد قرئت على « فيدو » ، وحظيت « روز » بدور غير متكلف .. فقد كانت تسعى وتتبع كل ما هـو طبيعى . غير ان « مسرح الأمة » كان قد اغلق ، واحيـل ممثلوه الى مسرحى « ماديلونيت » و « بيلاجى » ، فصاحت « تيفينان » ، وهى ترفـع الى السماء عينيها الجميلتين المفعمتين بالاستنكار : « أهـذه هى الحرية ؟ » ، فقال جاميلان : « ان ممثلى « مسرح الامـة » أرستقراطيون ، ومسرحية المواطن فرانسوا مليئة بالاسف بامتيازات طبقة الاشراف » .

فقالت تيفينان : « ايها السادة .. الا تعـرفون كيف تستمعون لغير اولئك الذين يتملقونكم ؟ »

***

ولاذ « ايفاريست » بقرب « ايلودى » ، يذكرها ــ وهو يبتسم ــ بذكريات لقاءاتهما الاولى : « كان هناك عصفوران صفيران ، سقطا من السقف الذى كانا يعششان فيه ، وحطا على حافة نافذتك . فعنيت انت بتغذيتهما ودس الطعام فى منقاريهما .. وعاش أحدهما ، وطار . اما الآخر فمات فى العش الذى صنعته له من القطن المندوف .. وقلت ياايلودى عنه : « **هــــذا هو الذى كنت اوثره بالقسط الاوفر من حبى** » !.. وفى ذلك اليوم ، زينت شعرك بعش أحمر ! »

أما فيليب ديبوا ، وبروتو ــ اللذان كانا بعيدين بعض الشىء ، فى مؤخرة القوم ــ فقد راحا يتحدثان عن روما ، التى ذهب اليها كل منهما .. احدهما فى سنة ٧٢ ، والآخر حوالى الايام الاخيرة للاكاديمية . واسترجع « ديبوا » للشيخ « بروتو » ذكرى الاميرة « موندراجون » وهو يسمعها نجــواه ، دون ان يفطن الكونت « آلتييرى » ، الذى كان يلازمها ملازمة الظل .. ولم يغفل ان يذكر انه دعى للعشاء لدى الكردينال « بيرنى » ، وان هــذا كان اكرم مضيف فى فى العالم .

فقال بروتو : « لقد عرفته ، وبوسـعى ان اقول ــ دون مبالغة ــ اننى كنت من اقرب معارفه اليه ، فى فتـرة من الزمن .. وكان يحب التردد على اوساط الرعاع .. كان رجلا لطيفا ، يشغف بالحديث عن القصص الخرافية . **وكان فى اصبعه من الفلسفة الحكيمة اكثر مما فى رؤوس زعمائكم البعاقبة ، الذين يريدون ان يبثوا فينا الفضيلة وعبادة القانون** . ويقينا اننى أحب رجالنا الدينيين الذين لا يعرفون ما يقولون ولا ما يفعلون ، اكثر مما احب اولئك المتهوسين الذين يقلبون القوانين رأسا على عقب ، والذين يعمدون الى

قطع رؤوسنا على « الجيلوتين » ، ليجعلوا منا قوما فاضلين وحكماء ، وليحملونا على ان نعبد « الذات العليا » التى صاغتهم على صورتها !.. فى الايام الغابرة ، كنت ألقن الصلاة فى كنيسة بالجزر ، بوساطة قس اشبه بالشيطان الشرير . اعتاد ان يقول بعد الشراب : « **ارحمنا من ان نسيء الظن بالصيادين ، فنحن قساوسة نعيش بينهم بكرامتنا !** » .. لنقر يا سيدى بأن هذا الدعاء الساذج ، له معانى سليمة بالنسبة للحكومة . وخليق بهذا القس ان يرد الى هنا ويحكم الناس على ما هم عليه ، وليس على ما ينبغى ان يكونوا » .

واقتربت « تيفينان » من « بروتو » الكهل .. كانت تعرف أنه كانت لهذا الرجل يوما حاشية كبيرة ، وان خياله كان يستغل هذه الذكرى اللامعة لاضفاء رواء على ما اصبح فيه هذا المالى السابق من فقر فى حاضره ، فيخفف من تقديره لهوانه ، ويراه أمرا عاما ناجما عن الافلاس العام . وراحت تتأمله فى فضول لا يخلو من الاحترام ، كحطام لواحد من الاغنياء المفرطى الثراء ؛ الذين كانوا يلاحقون بتنهداتهم الممثلات اللائى سبقنها . وما لبثت أحوال هذا الرجل الطيب ذى « الردينجوت » الحائل ان اعجبتها ، فقالت له :

– من المعروف عنك يا مسيو بروتو ، أنك كنت – فيما مضى – تتألق فى متنزه جميل ، فى الليالى المشرقة بالاضواء ، وبين الرياحين ، مع الممثلات والراقصات ؛ بينما ينبعث عزف المزامير والكمان من بعد . وأسفاه !.. **ألم تكن معبوداتك من ربات « الاوبرا » و « الكوميدى فرانسيز » أجمل منا نحن الممثلات الصغيرات البائسات فى المسرح القومى !**

فأجاب بروتو : « لاتصدقى هذا يا آنسة ، واعلمى أنه لو تسنى – فى ذلك الوقت – لقاء واحدة مثلك ، لقدر لها أن

تخطر فى جلال وسلطان ، وحيدة ، وبلا غريمة ، فى ذلك المتنزه الذى تبالغين فى تصوره ! »

***

كان فندق « لاكلوش » - أى الناقوس - عتيقا ، يتدلى فرع من شجر « الآس » البرى على الباب المخصص لمرور المركبات به . وكان هذا الباب يفضى الى فناء دائم الرطوبة ، تسعى فيه الدواجن ، ويقوم المبنى فى نهايته ، مؤلفا من طابق أرضى ، يعلوه طابق واحد آخر ، يتوجه سقف محدودب عال من القرميد ، بينما تتوارى جدرانه تحت فروع أشجار قديمة أثقلتها الورود .. والى اليمين ، كانت ثمة أشجار سامقة ، تشرئب رؤوسها فوق الطرف الذى يقوم فيه سياج الحديقة .. أما الى اليسار ، فكانت ثمة حظيرة للخيل ، يقوم خارجها معلف ومخزن للغلال من أعمدة خشبية متعارضة . والى الجدار ، أسند سلم متنقل . كما احتشدت تحت سقيفة - فى هذا الجانب - أدوات زراعية وجذوع أشجار مجتثة .. وفوق مركبة عتيقة ، وقف ديك أبيض يراقب دجاجاته . وهنا كان الفناء مغلقا بخطائر للماشية ، التى قام أمامها كوم من السماد العضوى كأنه التل المهيب ، برزت من خلفه - فى تلك الساعة - فتاة تحمل مذراة ، وقد أوتيت بسطة فى العرض أكثر مما أوتيت فى الطول ، وشعرا بلون التبن . وكان روث الماشية السائل يملأ خفيها المصنوعين من الخشب ، ويغرق قدميها العاريتين ، اللتين كان كعباهما يبرزان - من حين الى آخر - فى اصفرار « الكركم » . وكانت جونلتها الململة الاطراف ، تكشف عن قذارة بطنى ساقيها القصيرتين المكتنزتين . **وما أن رأى «فيليب ديماهى»**

هذه الفتاة ، حتى دهش وراح يعجب من عبث الطبيعة التى أنشأتها بهذه الضخامة ، بينما صاح بها صاحب الفندق : « ها يا لاترونش .. اذهبى فاجلبى ماء ! »

واستدارت ، فأبدت وجها ارجوانى اللون ، ذا فم واسع يتسع لحاملة الالوان « البالبته » . وما كان لقرن ثور أن يثلم صف الاسنان القوية التى تبدت فى ذلك الفم ، وهى تضحك ، ومذراتها على كتفها ، وذراعاها اللتان لوحتهما الشمس بسمرة قاتمة ، تلوحان فى ضخامة الفخذين .

وكانت المائدة قد مدت فى قاعة الطابق الاسفل ، وعليها الطيور التى صادتها البنادق العتيقة ، وقد شويت أتم شواء تحت ناقوس المدخنة . وكانت القاعة تتجاوز العشرين قدما طولا ، وقد طليت جدرانها بالجير الابيض . ولم يكن يضيؤها سوى زجاج الباب المخضوضر اللون ، وسوى نافذة وحيدة ، تحف بها الورود ، والى جوارها كانت الجدة العجوز تدير عجلتها (٥٤) . وكانت ترتدى فوق رأسها قلنسوة ذات حواف عريضة من « الدانتيل » التى يرجع طرازها الى عهد الوصاية (٥٥) .. وبدت أصابع يدها عجفاء ، مغبرة ، وهى تمسك بالمغزل .. وقد راح الذباب يقف على حواف اجفانها فلا تهشه .. **كانت قد رأت لويس الرابع عشر يمر فى مركبته ، وهى بعد طفلة على ذراعى أمها ! .. وقد أنقضت ستون سنة منذ ذهبت الى باريس ، فراحت تروى ــ فى صوت واهن ولكنه أغن رخيم ــ للشابات الثلاث اللائى وقفن أمامها ، أنها رأت دار البلدية ، والتويلرى ، والكنيسة**

---

(٥٤) طراز قديم من المغازل ، له عجلة يدار بها .
(٥٥) عهد « فيليب دورليان » ، قبيل بلوغ لويس الخامس عشر الرشد (١٧١٥ ــ ١٧٢٣) .

السامرية .. وأنها - بينما كانت تجتاز الجسر الملكى (بون رويال) - رأت سفينة كانت محملة بالتفاح المرسل الى سوق (ميل) ، واذا بها تتفكك فينساب التفاح منها الى الماء، وينتثر فى النهر ، كأنه بقع حمراء .

وأحيطت علما بالتغيرات التى طرأت حديثا على المملكة ، لاسيما الشقاق بين القساوسة الذين أقسموا اليمين ، واولئك الذين لم يقسموا . كما علمت بأن حروبا قد نشبت ، ومجاعات تفشت ، وعلامات ظهرت فى السماء (٥٦) .. وأبت ان تصدق أن الملك قد مات ، بل قالت أن هناك من هربه خفية ، وساق أمام الجلاد رجلا من عامة الشعب بدلا منه .

وعند قدمى الجدة ، كان آخر وليد من آل « بواترين » - وهو « جانو » - يرقد فى مهد خفيف ، معتلا اذ بدأت أسنانه تنبت . ورفعت « تيفينان » المهد المصنوع من الخيزران ، وأبتسمت للطفل ، الذى كان يئن بصوت واهن اثقلته الحمى والمغص . ولابد أن المرض كان قد برح به ؛ اذ كان الطبيب المواطن « بيلبور » قد استدعى ، ولكنه كان - فى الواقع - نائبا فى مجلس الوفاق ، فلم يكن يحفل بعيادة أحد .

وشعرت المواطنة ((تيفينان)) - وهى تذكر ماكان أبوها يمارسه يوما - بأنها فى الجو الذى ألفته ، فلم ترضها الطريقة التى غسلت بها ((الاترونش)) الاوعية ، وأقبلت تغسل الصحاف والاكواب والملاعق . وبينما كانت المواطنة « بواترين » تطهو الحساء - الذى كانت تتقنه كخير طاهية فى فندق - أخذت « ايلودى » تقطع رغيفا من الخبز - وزنه ربع رطل - الى شرائح ، وهو بعد ساخن . واذ رآها جاميلان تفعل ذلك ،

---

(٥٦) انتشرت الشائعات الخرافية - فى أوائل الثورة - بين الجهلة ، عن ظهور العلامات السماوية التى يقال انها تنذر بنهاية العالم .

قال لها : « قرأت منذ بضعة أيام ؛ فى كتاب من تأليف شاب المانى نسيت اسمه ، وقد ترجم فى لغة فرنسية جيدة جدا .. وفى هذا الكتاب فتاة حسناء تدعى « شارلوت » تقطع الخبز – مثلك – يا ايلودى .. كانت مثلك تقطعه فى رشاقة وجمال ، جعلا الشاب « فيرتر » يهواها اذ رآها » .

فسألته ايلودى : « وهل انتهى الامر بالزواج ؟ »

فأجاب ايفاريست : « كلا ، بل انتهت تلك القصة بوفاة قاسية لفيرتر » .

وأقبلوا على الغداء بنهم ، اذ كان الجوع قد برح بهم . ولكن الاكل كان متوسطا ، مما دعا « جان بليز » الى التذمر ، فقد أعتاد أن يعنى بفمه ، وأن يجعل من العناية بالطعام الجيد قاعدة للحياة .. وليس من شك فى أن القحط العام هو الذى حفزه على أن يصوغ نهمه فى نظام يحرص على أتباعه . فان الثورة كانت قد قلبت القدر (٥٧) فى كل بيت . فلم يعد للعامة من المواطنين ما تمضغه أسنانهم . **أما المقتدرون – ممن على شاكلة جان بليز – الذين كانت أرباحهم تنتضخم على حساب الشقاء العام ، فكانوا يسعون الى المطاعم ، حيث كانوا يعرضون افتنانهم فى ملء بطونهم !**

أما « بروتو » الذى راح فى العام الثانى للحرية يعيش على الكستناء وفتات الخبز ، فقد ذكره الطعام بأنه كان يتناول عشاءه فى مطعم « جريمو ديلادينيير » ، عند مدخل (الشانزليزيه) . واذ عجز عن ذكر اسم الطبق الشهى ، أمام كرنب المرآة « بواترين » المقلى بالدهن ، تحول عن تذكر وصفات الطهو ، والاصناف الدسمة من الغذاء ، وأعلن – على غرار جاميلان – ان الجمهورى يزدرى لذاذات المائدة . ثم

---

(٥٧) كناية عن الحرمان من الاكتفاء الغذائى .

طفق الحكيم المكتهل ، المولع بالتحف القديمة، يصف للاسبرطى الشاب الطريقة الصحيحة لصنع حساء من الدقيق الاسمر .

***

وبعد الغداء ، كلف « جان بليز » ــ الذى لم يكن ينسى الامور الجدية ــ « اكاديميته » المتنقلة، بعمل رسوم تخطيطية ومشروعات لوحات للفندق الريفى الذى أعتبره ــ فيما كان عليه من تهدم ــ شاعريا . واذ أقبل « فيليب ديماهى » و « فيليب ديبوا » على رسم الحظائر ، ذهبت « ترونش » تقدم الطعام الى الخنازير . وأقترب المواطن « بيلبور » ، طبيب الصحة ، الذى انفلت ــ فى تلك الاثناء ــ من قاعة الطابق الاسفل ، حيث كان قد قام ببعض الخدمات الصحية لبواترين الوليد .. وبعد أن اطرى مواهبهم التى تشرف الامة بأسرها ، أشار الى « ترونش » وقد أحاطت بها الخنازير ، وقال :

ــ أترون هذا المخلوق ؟ .. أنها ليست فتاة ــ كما قد تحسبونها ــ وانما هى فتاتان . وتأكدوا اننى جاد فى معنى ما أقوله !.. فقد أدهشتنى ضخامة حجم عظام ظهرها ، ففحصتها ، وتبينت أن معظم عظام الظهر عندها مزدوجة ، وفى كل فخذ ، توجد كرمتان ملتحمتان .. وعند كل كتف عظمتان للساعد . كذلك أوتيت عضلات مزدوجة . فهى ــ فى رأيى ــ مخلوقان ملتحمان التحاما دقيقا ، أو ــ بتعبير آخر ــ اندمجا معا . وهذه حال طريفة ، وقد ذكرتها للسيد « سانت هيلير » ، الذى أقرنى فيما علمت . أن الذى ترونه امامكم مسخا ايها المواطنون .. والقوم هنا يسمونها « لاترونش » ، وجدير بهم أن يقولوا « ليه ترونش » ، فهى

اثنان (٥٨) ، أن للطبيعة نزوات غريبة .. عموا مساء أيها المواطنون الرسامون ، فستهب عاصفة الليلة !

وبعد أن تناول أعضاء « أكاديمية » بليز العشاء عى ضوء الشموع ، التفوا فى فناء الفندق ــ بصحبة ولد وفتاة من آل بواترين ــ ليمارسوا لعبة « كولان ــ مايار » **(٥٩)** ، التى يبذل فيها الشبان والشابات جهدا تبرره سنهم بدرجة لاتدع مجالا للتساؤل عما اذا كان ما شاب العهد من عنف وعدم طمأنينة لم ينل من روحهم . واذ أسدل الظلام ستاره، اقترح « جان بليز » عليهم أن ينتقلوا الى بهو الطابق الاسفل، فيتسلوا ببعض الالعاب البريئة . ودعتهم « ايلودى » الى لعبة « صيد القلب » ، فقبل الجمع اقتراحها ، وقام « فيليب ديماهى » ــ تحت ارشاد الفتاة ــ برسم سبعة قلوب بالطباشير على قطع الاثاث والجدران .. أى أن عدد القلوب كان أقل من عدد اللاعبين واحدا ، وراحوا يرقصون فى حلقة، حتى اذا صدرت عن « ايلودى » أشارة ، هرع كل منهم ليضع يده على أحد القلوب ، **وفى الجولة الاولى ،وجد جاميلان كل القلوب مشغولة ، اذ كان شارد الذهن ، غير منسجم مع الجو المحيط به .. فقدم ــ رهنا ــ مدينه التى أشتراها بستة ((سو)) ، فى سوق (سان جيرمان) ، والتى أعتاد أن يقطع بها الخبز لامه المسكينة** . وعادوا للعب ، فتخلف ــ دورا بعد دور ــ كل من بليز ، وايلودى ، وبروتو ، وتيفينان . وقدم كل منهم رهنا : خاتما ، وحقيبة يد ، وكتابا مغلفا

---

(٥٨) ((لا)) أداة التعريف للمؤنث فى اللغة الفرنسية ، و ((ليه)) للمثنى والجمع . وعلى هذا ((لا ترونش)) أى الفتاة ترونش ، و ((ليه ترونش)) اى الفتاتان ترونش .

(٥٩) لعبة تعرف باسم ((القطاة العمياء)) ، وفيها تعصب عينا أحد اللاعبين ، ويطالب بتعقب الآخرين .

بالجلد الثمين ، وسوارا ، ثم وضعت الرهائن تباعا على ركبتى « ايلودى » ، وراح كل – فى سبيل استرداد رهينته – يعرض ميزاته الاجتماعية ، أو ينشد اغنية ، أو يلقى قصيدة . فردد « بروتو » حديث شفيع فرنسا ، فى أنشودة « العذراء » الاولى :

« أنا دنيس ، ومهنتى قديس .. وأحب الغال ... »

أما المواطن بليز ، الذى لم يكن أقل منه علما ، فقد بادر بترديد جواب « ريشموند » :

« سيدى القديس ، ليست مبارحة العالم السماوى بالقصاص ... »

وما لبث الجميع أن تحولوا يرددون – باستعذاب – روائع « اريوست » بالفرنسية (٦٠) ، فاذا أكثر الرجال وقارا يبتسم لغراميات « جان » و « دونوا » ، ومغامرات « آنييه » و « مونروز » ، وكان كل المثقفين يحفظون عن ظهر قلب مواطن الجمال فى تلك القصائد الزاخرة بالفلسفة وبكل ما يهفو بالمشاعر .. حتى « ايفاريست جاميلان » – ذو المزاج الصارم – ألقى فى سبيل استرداد مديته من « ايلودى » ، الابيات الخاصة بدخول جريسبوردون الى الجحيم ، عن طيب خاطر . وغنت المواطنة «تيفينان» – بدون موسيقى تصاحبها – قصة «نينا» : **«عندما يعود الحبيب ..»**

وفى تلك الأثناء ، كان ديماهى مشغول البال .. كان – فى تلك الساعة – مشغوفا بحب النسوة الثلاث اللائى لعب معهن ، فراح يرمى كلا منهن بنظرات ملتهبة وناعمة ، فى آن واحد .. كان يحب « تيفينان » لجمالها ، ورقة أعطافها ،

---

(٦٠) الشاعر الايطالى لودفيكو اريستو (١٤٧٤ – ١٥٣٣) ، كان من أشهر شعراء النهضة ، وعرف بسعة الخيال ، ودسامة الالهام ، وجزالة اللفظ .

والمامها بفنها ، ونظراتها ، وصوتها الذى كان ينفذ الى الفؤاد .. وكان يحب فى «ايلودى» طبيعتها الفياضة ، الفنية ، المفداقة .. أما جوليين هازار ، فقد أحبها - برغم شعرها الحائل اللون ، وأهدابها البيضاء ، وبقع الكلف (النمش) ، وقوامها الهزيل - لأنها كانت على شاكلة «دونوا» التى تحدث عنها « فولتير » فى قصيدة « العذراء » .. **كانت على استعداد دائما ، لأن تبدى - بسخائها - لأقل الناس جمالا ، نفحة من الحب .. ولأنها كانت تبدو أقل النساء اكتراثا ، وأشدهن مناعة ، فى آن واحد !**

واذ كان « ديماهى » خلوا من كل غرور ، فانه لم يطمئن يوما الى أنه موضع رضى وقبول ، كما أنه لم يطمئن يوما الى أنه موضع استهجان ونفور .. لذلك كان ينتهز كل فرصة ليتقرب ، غير حافل بالنتيجة . فاستغل الفترات السعيدة التى كان يتماس فيها مع كل منهن أثناء اللعب، فألقى ببضع كلمات غزلية رقيقة الى « تيفينان » ، لم تغضب لها ولكنها لم تقو على الرد تحت نظرات المواطن « جان بليز » المفعمة بالغيرة .. وكان أشد وجدا فى حديثه الى المواطنة «ايلودى»، التى كان يعرف ارتباطها بجاميلان ، ولكنه لم يكن متعنتا يصر على أن يكون قلبها له وحده .. **ولم تملك ((ايلودى)) أن تحبه ، ولكنها كانت تراه جميلا ، ولم تنجح قط فى اخفاء شعورها هذا عنه ..** وأخيرا ، رفع صوته المؤثر الى أذن المواطنة « هازار » ، فتلقته بجو من الحيرة والذهول ، كان خليقا بأن يوحى بانصياع متورط ؛ أكثر مما يوحى بعدم اكتراث حزين . ومن ثم لم يخطر ببال « ديماهى » قط أنها لم تكن تحفل به !

***

ولم يكن فى الفندق الريفى غير غرفتين للنوم ، كلتاهما فى الطابق الاول ، وتجمعهما ردهة واحدة . وكانت اليسرى أجملهما ، وقد كسيت بورق نقشت عليه زهور ، وازدانت بمرآة تعرض اطارها المذهب لعدوان الذباب منذ طفولة لويس الخامس عشر . وفى هذه الحجرة ، تحت سماء من الحرير الهندى ، قام سريران مزودان بوسائد من الريش ، وألحفة من الزغب الناعم .. وقد خصصت هذه الحجرة للمواطنات الثلاث .

واذ حانت ساعة النوم ، أمسك كل من « ديماهى » والمواطنة « هازار » شمعدانا فى يده ، وتبادلا تحية المساء فى الردهة . ودفع الحفار العاشق الى ابنة تاجر الالوان ، بقصاصة ألح عليها فيها بأن تلحق به — بعد أن ينام الجميع — فى مخزن المحصولات الغذائية ، الذى كان يعلو مخدع المواطنات .. وكان بذكائه وبعد نظره قد درس — أثناء النهار — المكان ، وارتاد المخزن الذى كان مليئا بحزم البصل ، وبالفواكه التى كانت تجفف تحت خلايا النحل ، وجرار العسل .. وقد لمح — هناك — سريرا متداعيا ، غير مستعمل ، بدت له عليه شبه حشية بالية ، تسكنها البراغيث !

وكانت فى مواجهة مخدع المواطنات غرفة ذات ثلاثة أسرة صغيرة ، كان على المواطنين أن يفترشوها كما يعن لهم . ولكن « بروتو » — الذى كان متقشفا — سعى الى مخزن الغلال ، فنام فى أكناف التبن . أما « جان بليز » فقد اختفى .. وسرعان ما نام ديبوا وجاميلان . أما « ديماهى » ، فقد استلقى على سرير .. حتى اذا غمر صمت الليل الدار — كأنه ماء ناعس — نهض الحفار وتسلق السلم الخشبى ، الذى راح يئز تحت قدميه الحافيتين . وكان مخزن المحصولات مواربا ، تفوح من داخله حرارة خانقة وروائح عفنة منبعثة

من الثمار الذاوية . وعلى سرير متداع ، كانت « لاترونش » نائمة ، فاغرة الفم ، وقد انحسر قميصهـا عن ساقيها المعوجتين . وكانت ضخمة الجثة .. **وخلال كوة فى الجدار ، كان شعاع من نور القمر ، يغمر بشرتها بمزيج من اللازورد والفضة ، فاذا بها تتألق بالشباب والنضارة !!**

وارتمى « ديماهى » عليها ، فاستيقظت بغتة ، وتولاها الجزع فصرخت ، ولكنها لم تكد تفهم بغيتـه حتى اطمأنت ، ولم تبد دهشة ولا معارضة ، بل تظاهرت بالاستسلام لشبه اغفاءة ، كانت تسمح لها بأن تعى ما يحدث ، فتبدى له شيئا من العاطفة ..

وعاد « ديماهى » الى غرفته ، حيث استغرق فى نوم هادىء ، عميق ، حتى النهار .

***

وبعد أن قضى أعضاء « الاكاديمية » سحابة اليوم التالى فى العمل ، تأهبوا للعودة الى باريس . وعندما دفع « جار بليز » الحساب بالعملة الورقية ، راح المواطن « بوأترين » يشكو الحرمان من العملة « الفضية المربعة » ، ويتعهد بأن يهب سمعة جميلة لمن يرد العملات الذهبية الى التعامل ، ثم قدم الزهور الى المواطنـات . وبأمر منه ، وقفت « لاترونش » على سلم خشبى متنقل ، وقد انتعلت « قبقابين » ، ورفعت أطراف ثوبها ، فكشفت للضوء عن فخذيها الورديتين المتسختين ، وراحت تقطع الورود من أشجار الورد الشائكة ، دون كلل . وأخذت الورود تنساب من بين يديها كالمطر ، ثم كالسيل ، ثم كالطوفان ، الى حجر «ايلودى» و «جوليين» و «تيفينان» . فامتلأت بها العربة .. وعاد كل منهم — فى ذلك المساء — الى داره وهو محمل بالورود ، التى عطر عبيرها نومهم ويقظتهم ..

الفصل الحادى عشر

♦ فى صباح أسابع من سبتمبر ، زارت المواطنة « روشمور » المحلف جاميلان فى داره ، لتوجه اهتمامه الى شخص من معارفها احاطت به الشبهات .. والتقت – عند درج الدار – ببروتو ديزيليت ، الذى كانت قد أحبته فى الايام الهانئة . وكان « بروتو » يهم بنقل اثنتى عشرة « دستة » (٦١) من الدمى التى ابتكرها ، الى تاجر للعب فى شارع (لالوا) ، وقد شاء ان يريح نفسه بقدر المستطاع فعلقها فى طرف قصبة طويلة ، على نمط ما يفعل الباعة المتجولون . **وكان بطبعه لطيفا مع النساء جميعا ، حتى**

---

(٦١) « الدستة » ١٢ وحدة .

أولئك اللائى فترت جاذبيتهن له بطول المعرفة كما كان شأن مدام روشمور .. مع ان ما حف بها من غدر ، وبعاد ، وعدم وفاء ، وبدانة ، نال من اشتهائه اياها . وعلى اية حال ، فانه استقبلها على الدرج القذر ، ذى الاحجار المتفككة ، كما اعتاد ان يستقبلها فى الماضى ، على درجات سلم قصر «ديزيليت» . وسألها ان تشرفه بزيارة مسكنه ، فى المخـــزن القائم تحت سطح الدار . وتسلقت السلم المتنقل بخفة ، فألفت نفسها فى «تخشيبة» تحمل عروقها الخشبية غير المتناسقة الطول ، سقفا من الاردواز ، تتخلله كوة . ولم يكن بوســع المرء ان يقف منتصبا ، فجلست على المقعد الوحيد فى هــــذا المكان المعتم ، وبعد ان طافت ببصرها بالآجر المتفكك ، سألته فى دهشة وأسى : « أهنا تقيم ياموريس ؟.. انك هنا بمأمن من الثقلاء والمتطفلين ، اذ لا سبيل لغير الشيطان ، او قطـة ، للعثور عليك هنا ! »

فرد عليها قائلا : « ليس المكان فسيحا ، ولا أكتمك ان المطر يصيب — احيانا — حصيرتى . ولكن هذا لا يضايقنى كثيرا . ففى الليالى الصافية ، أرى القمر ، شبيه العشاق ، وشاهد غراميات البشر . اذ ان العشاق يا ســـيدتى ، يشهدون القمر — فى كافة الازمان — على هواهم .. كما انه بوجهه الصبوح ، الشاحب ، المستدير ، يذكر العاشـــــق بمشتهاه ! »

فقالت المواطنة : «صحيح !» .. واستطرد بروتو قائلا : « **ان القطط تثير صخبا عذبا ، فى هــــذا الركن المهمل ، فى موسمها . ولكن من حق الحب ان نتسامح ازاء المواء والهرج على السقوف ، وان كان الحب يملأ حيـــاة البشر بالوان العذاب والآثام ! »** .

كان الاثنان من الحكمة بحيث تقاربا كأنمها صـــديقان افترقا بالامس ، ليأوى كل منهما الى مخـدعه .. وبالرغم من انهما أصبحا غريبين - كل منهما بالنسبة للآخر - فقد راحا يتسامران فى تلاطف وألفة .

وفى هذه الاثناء ، كانت مدام دى روشمور بادية القلق . فان الثورة - التىابتسمت لهاطويلا وأجدت عليها ارباحا - اصبحت تحمل اليها ما يثير شغلها وقلقها . وباتت حفلات العشاء التى تقيمها أقل اشراقا وبهجة من ذى قبـل . ولم تعد أنغام قيثارتها تشيع الصـفاء فى الوجـوه المكفهرة . وغاب كبار الاثرياء عن موائد الميسر عنـدها .. واختفى كثيرون ممن كانوا مألوفين لديها ، اذ اصبحت الشـبهات تحف بهم .. وألقى القبض على صديقها المالى «موربارت»، ومن أجله جاءت تستشـير المحلف « جاميلان » . بل ان الشبهات احاطت بها هى الاخـرى ، فدهم الحرس الوطنى مسكنها ، وقلبوا أدراج صواناتها ، ورفعوا ألواح ارضيات غرفها ، ودقوا بالعصى حشيات فراشها ، فلما لم يعثـروا على شىء اعتذروا لها ، وشربوا نبيذها . ولكنهم كانوا جد قريبين من اكتشاف مراسلاتها مع أحد المهاجـرين . وهو السيد « ديكسبيللى » . وقد افضى اليها بعض اصدقاء لها بين اليعاقبة ، بأن صديقها « هنرى » الجميل ، قد أصبح موضع شبهات بفضـل اسرافه فى العنف ليظهر بمظهر المخلص الوفى للثورة .

واعتمدت بذراعيها على ركبتيها ، وغاصت اصـابعها فى خديها ، وسألت صديقها القديم الذى افترش الحصـير . وهى شاردة الفكر : « ما رأيك فى كل هذا يا موريس ؟ »

- عين ما قلت حين سألتنى يا لويز - ذات يوم - ونحن

فى مركبة على ضفة نهر (شير) ، تقلنا فى طريق (ديزيليت)، اذ شد الفرس العنان بين اسنانه ، وانطلق يجرى جامحا . الا ما اشد فضول النساء !.. ها انتذى تسألينني — مرة أخرى — الى أين ننطلق !.. سلى فى هـــذا اولئك الذين يسحبون الورق . لست أقرأ الغيب يا صديقتى . وليست الفلسفة — فى اكثر اشكالها حكمة — ذات عون فى استطلاع المستقبل . لسوف تنتهى كل هذه الاشياء ، كما انتهت كل الاشياء قبلها . وبوسع المرء ان يرى للنهاية عدة أشكال : انتصار التحالف ودخول الحلفاء باريس . فهم غير بعيدين عنها .. ومع ذلك فانى ارتاب فى انهم سيصلون اليها . ان جنود الجمهورية تتملكهم حمية لا قبل لشىء على اطفائها .. وقد يقدر لروبسبيير أن يتزوج مدام رويال (٦٢) ، ويعلن نفسه حاميا للمملكة الى ان يبلغ لويس السابع عشر سن الرشد !!

فصاحت المواطنة وقد ضايقها هــــذا التصوير الذى يستهوى الخيـــال : « اتظن ذلك ؟ » .. ولم يجب ، بل استطرد يقول : ((**كذلك قد يمضى اقليم(فانديه) فى ثورته ، فيتوطد حكم القساوسة على انقاض الخرائب ، وعلى اكوام الجثث . وليس بوسعك ان تدركى يا عزيزتى ، كيف يكون حكم القساوسة لجمهور ((الحمير)) .. اردت ان اقـــول ((الانفس)) ، ولكن لسانى انحرف (٦٣)** . والاكثر احتمالا — فى رايى — هو أن المحكمة الثورية ستؤدى الى انهيـــار نظام الحكم الذى اقامها . فهى تهدد رؤوسا كثيرة جدا ..

---

(٦٢) الملكة السابقة .

(٦٣) الاصل ânes — أى حمير و âmes أى نفس . ومن هنـــا نلمس المفارقة . .زلة اللسان !

لا حصر للذين تثير الرعب فى نفوسهم ، وهم لن يلبثوا ان يضموا صفوفهم ، ولكى يهدموها سيهدمون نظام الحكم . وأظنك رشحت الشاب « جاميلان » لهذه المحكمة ، وهو فاضل ، ورهيب فى الوقت ذاته . وكلما فكرت يا صديقتى الحسناء ، ازددت اعتقادا بأن هذه المحكمة التى انشئت لتنقذ الجمهورية ستقضى عليها . ولقد شاء المؤتمر الوطنى ـ كما شاءت الملكية ـ ان يكون للجمهورية اعيادها ، وبرلمانها الملىء بالحماس ، وسلطانها على الامن ، عن طريق مأمورين قضائيين تعينهم ويكونون تابعين لها . ولكن ما أقل شأن اعياد المؤتمر بالنسبة لاعياد الملكية !.. وبرلمانه المتحمس اقل خوضا فى السياسة من برلمان لويس الرابع عشر !.. ان محكمة الثورة يسودها شعور من العدالة الوضيعة والمساواة السطحية ، يجعلها احيانا بغيضة ، سخيفة ، تكرهه الناس جميعا . أتعرفين يا لويز ان هذه المحكمة التى ستستدعى للمثول امامها ملكة فرنسا وواحد وعشرون من رجال التشريع ، قضت بالامس على خادم اتهمت بأنها هتفت : « يحيا الملك ! » بسوء نية ، بغية هدم الجمهورية ؟.. **ان قضاتنا ـ بقبعاتهم ذات الريش الاسود ـ يعملون على طريقة ذلك الـ «وليم شكسبير» ، الذى يعتز به الانجليز ، والذى كان يقحم على أشد المناظر اثارة للاسى ـ فى تمثيلياته ـ فكاهات سمجة !.»**

الجزء الثانى يصدر بعد أيام فترقبه

كتابي

يبدأ عامه الجديد بالعدد القادم (٩٧٠) حاملا اليك باقة ممتازة من الملخصات لمجموعة من أروع الكتب العالمية ، وفى مقدمتها كتاب العام :

رسائل فولتير الغرامية

عدد ممتاز - أوص البائع على نسختك من الآن .

الجمعية التعاونية للبترول

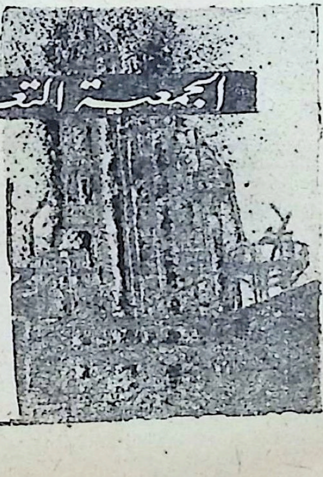

الطليعة التعاونية الأولى

والقاعدة البترولية الهامة

٢٨ عاما

فى خدمة الاقتصاد القومى

بلاج المعمورة

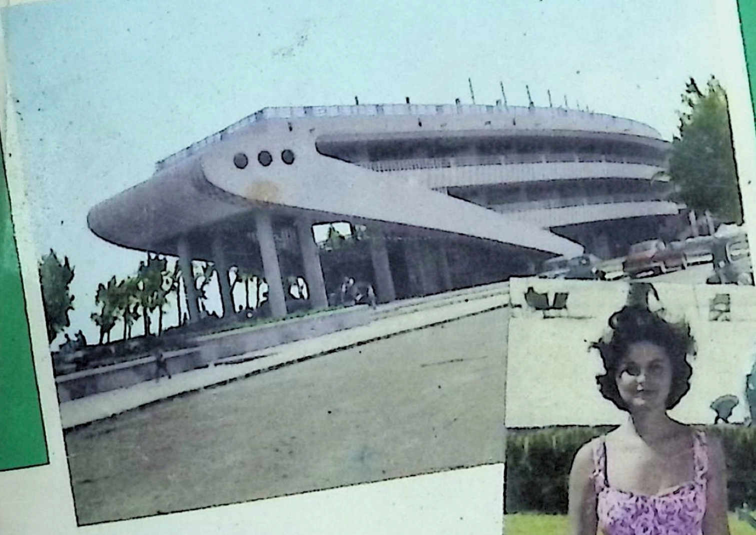

- كبائن وشاليهات معلقة تحوطها المياه الزرقاء والخضرة اليانعة ، لمن يريد الاستئجار ..
- قطع أراضى من تقسيم المعمورة للبيع على أقساط طويلة الأجل ، لمن يريد اقامة فيلات أنيقة أو مبانى استغلالية عليها ..
- وقد أعدت جميع المرافق من طرق وشبكات الكهرباء والمياه النقية والمياه العكرة لرى الحدائق

فأسرعوا للتمتع بعروس البحر

المؤسسة المصرية للتعمير والإنشاءات السياحية "المعمورة"

٧ شارع الشوازلي

مطبوعات كتابى
يصدرها حلمى مراد
أروع ما كتب
اناتول فرانس
عن الثورة الفرنسية
الآلهة عطشى!

أناتول فرانس:

الآلهة عطشى!

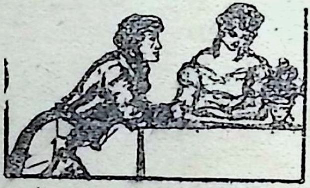

LES DIEUX ONT SOIF
PAR
ANATOLE FRANCE

الثمن ١٢ قرشا

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ستة وتسعون كتابا ، يضاف اليهـــا كتاب جديد فى اول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها خمسة وستون كتابا ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو » ، وتطلب قائمة باسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق ١٤٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى ١٨٠ قرشا سنويا خالصة اجر البريد المسجل .

ولمن شاء ان ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، ان يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى وللمشتركين فى البلاد الاخرى ان يرسلوا القيمة بشيك على احد بنوك القاهرة ، او تحويلات مصرفية ، او كوبونات بريد دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بان سعرها فى مصر ٣٧ مليما . ومن الممكن لمن فى السودان ارسال القيمة بحـوالة بريدية .

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الكتاب الخامس والستون

الآلهة عطشى

الجزء الثانى

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

ملخص الجزء الاول

• كان « ايفاريست جاميلان » ـ الرسام الشاب ـ من الوطنيين المتحمسين للثورة ، الناقمين على الملكية والاقطاع .. وكان شديد التشبث بالمثل العليا ، وتعاليم « جان جاك روسو » واضرابه ممن كانت فلسفاتهم وانتقاداتهم من عوامل تشكيل الثورة الفرنسية .. على ان الفن والسياسة لم يستطيعا ان يشغلاه عن « ايلودى » ، ابنة تاجر اللوحات الفنية « بليز » ، الذى كان يبدى التحمس للثورة ، وهو لا يخدم سوى اغراضه ، ولا يسعى لغير الكسب من وراء توريد بعض المهمات للجيش ..

واحب « ايفاريست » الفتاة ، وتدله فى هواها ، وصار لا يجد راحة الا فى احضانها ، عندما يتسلل الى غرفتها الزرقاء ، فوق متجر ابيها « لاموز بانتر » .. ومع ان « ايلودى » صارحت « ايفاريست » يوما بأن شابا غرر بها فى الماضى ، فان هذا التصريح لم يزده الا تعلقا بها .. بل انه اوحى اليه باتجاه آخر ، فبدلا من ان يزدريها ، تصور انها ضحية اقطاعى من الذين هاجروا فرنسا مع مطلع الثورة ثم تسللوا عائدين اليها ، واندسوا بين القوم ليثيروهم ضد الزعماء الثائرين لحساب الاجانب ..

ومن ناحية أخرى ، فانه لم يغفر قط لشقيقته الوحيدة « جولى » نفس زلة حبيبته .. فان « جولى » كانت قد

أحبت شابا من النبلاء ، وهجرت أهلها من أجله ، ثم هاجرت معه الى انجلترا .

وأخذت الأهواء تلعب بالثورة الفرنسية ، وبينما تكشف حماس بعض زعمائها عن مطامع خاصة وأهداف شخصية ، كان التطرف يدفع الشعب الى الفوضى والالحاد والتدهور الخلقى .. وبدأ الزعماء يتناحرون ويزج بعضهم ببعض الى المقصلة ، حتى انتهت السلطات الى « روبسبيير » الذى عرف بأنه « المعصوم من الفساد » .. وبدات قوات الثورة تتغلب على الجيوش الاجنبية التى كانت محدقة بالبلاد .

واستطاعت المواطنة « روشمور » - التى كانت من نبيلات الماضى ، وربيبات القصور الملكية - أن تجد لايفاريست منصبا كمحلف فى محكمة الثورة .. وما كانت تبغى - فى الواقع - سوى استمالته ليكون ستارا لها ، اذ كانت تكاتب الملكيين واعداء الثورة فى الخارج ، وكانت تتآمر مع رجال المال الذين كانوا يدبرون الدسائس لهدم الاقتصاد الوطنى ..

وعلى سلم دار « ايفاريست » ، التقت « روشمور » بالشيخ بروتو ، الذى كان يوما ملتزما للضرائب ، وثريا اقطاعيا ، فلما دالت دولة الملكية ، قنع بصناعة الدمى واللعب ، وبقراءة ديوان « لوكريس » ، وبالتأملات الفلسفية .. ولقد كان « بروتو » يوما خليلا لروشمور ، لذلك لم تر بأسا من ان تصعد مرة الى مسكنه الحقير ، فوق مسكن «ايفاريست» ، عندما جاءت لزيارة هذا ولم تجده ..

وسألته وهى محسورة على كل ما يجرى فى البلاد : « ما

رايك فى كل هذا ؟ » ، فصارحها بأنه لم يكن يعتقد ان الحلفاء يستطيعون الوصـول الى باريس .. وقال انه كان يرى ان محكمة الثورة وحكم الارهاب سيوديان بنظام الحكم الذى اقامهمـا .. وأردف : « أن قضاتنا بقبعاتهم ذات الريش الاسود ، يعملون على طريقة ذلك الـ « وليم شكسبير » ، الذى يعتز به الانجليز ، والذى كان يقحم على اشد المناظـر اثارة للأسى ـ فى تمثيلياته ـ فكاهات سمجة ! »

فتساءلت المواطنة : « حســنا يا موريس ، وهل ما زلت سعيدا فى غرامك ؟ » .. فأجاب بروتو : « واحسرتاه ! .. ان الحمامات يطرن الى البرج الابيض ، ولم يعدن يقفن على البرج المتهدم ! »

ـ انك لم تتغير قط !.. الى اللقاء يا صديقى !

والآن .. تستطيع ان تستانف قراءة هذه القصة الرائعة ، التى تعتبر خير سجل دقيق للثورة الفرنسية، والتى حفلت بالعواطف والاحقاد ، والمآسى والمهازل ، والدموع والبسمات ..

***

في ذلك المساء ، كان ضابط الفرسان « هنرى » فى زيارة لمدام دى روشمور — فى دارها — دون ما دعوة ، فوجدها تلصق اطراف رسالة قرأ عليها عنوان المواطن « رولين » فى (فيرنون) . وادرك انها رسالة لانجلترا .. فقد كان «رولين» يتسلم رسائل مدام دى روشمور من حوذى مركبة البريد ، فيرسلها الى (دييب) بوساطة امرأة تتجر فى السمك . وفى الليل ، ينقلها صاحب احد القوارب الى سفينة بريطانية تحملها الى الساحل المقابل .. فيتسلمها فى لندن مهاجر يدعى المسيو «ديكسبيللى» ، ويبلغها — اذا وجدها نافعة — الى بلاط « سان جيمس » .

وكان « هنرى » شابا ، وجميلا .. فما جمع « اخيل » — حين ارتدى الدرع التى اهداه اياها « اوليس » (٦٤) — ما جمع « هنرى » من بهاء وقوة . ولكن المواطنة روشمور — التى كانت قد فطنت من عهد قريب الى مفاتن بطل الغوغاء الشاب — حولت عنه نظراتها وفكرها ، اذ كانت قد علمت انه — وهو الذى يتهمه اليعاقبة بالتطرف والمغالاة — قد يجتلب اليها الشبهات ، ويوردها موارد الهلاك . وكان هنرى يشعر بأن التحول عن حب مدام روشمور لم يكن فوق طاقته ، بيد انه كان يستاء من انها لم تعد تكبره وتنزله منزلة رفيعة . فقد كان يعول عليها لسد بعض نفقات اقتضتها منه خدمة الجمهورية !.. وكان قد فكر فى جموح النساء ، وكيف انهن ينقلبن سريعا ، من اشد الهوى احتداما ، الى اشد الفتور الذى لا مبرر له .. وكيف يسهل عليهن ان يضحين بالشخص بعد ان يكن مدلهات بهواه ، وان يضيعن الرجل بعد ان يكن قد عبدنه !.. ومن ثم ساوره هاجس فى ان هذه الخلابة « لويز » قد تتمكن يوما من ان تلقى به فى السجن لكى تتخلص منه . واوحى اليه دهاؤه ان يعود الى

(٦٤) من اساطير الاغريق فى « الالياذة » ، التى نشرتها « مطبوعات كتابى »

غزو هذا الجمال النافر . ومن اجل هذا اقبل مسلحا بكل مفاتنه .. وراح يقترب منها ثم ينأى عنها ، ويعاود السعى اليها ثم يدبر ، متبعا قواعد الاغراء فى المراقص . وما لبث أن ألقى بنفسه فى مقعد وثير ، وبصوته الذى لا يقاوم ـ ذلك الصوت الذى كان يتغلغل الى شغاف قلوب النساء ـ راح يحدثها عن الطبيعة ، وعن الوحدة ، وعرض عليها ـ وهو يتنهد ـ نزهة فى (ايرمنونفيل) .

وفى تلك الاثناء ، عزفت بضع نغمات على قيثارتها ، وألقت حولها نظرات طافحة بالضيق والملل . وفجأة ، تبدت على « هنرى » امارات التجهم والعزم ، وانبأها بأنه مسافر لينضم الى الجيش ، ولن يلبث بعد ايام ان يكون امام (موبيج) .

وهزت راسها ، دون ان تبدى ريبا أو دهشة ..

ـ اتهنئيننى بهذا القرار ؟

ـ أجل ، اهنئك .

كانت فى انتظار صديق جديد يروق لها الى أقصى الدرجات .. وكانت ترجو ان تنال منه فوائد عظيمة . فقد كان مزيجا من كل هؤلاء مجتمعين : « ميرابو » وقد بعث من جديد ، « ودانتون » وقد نظف من الوحل واصبح متعهدا من الموردين للجيش ، وأسدا يدعو الى القاء جميع الوطنيين فى نهر (السين) .. وكانت تترقب ان يدق الجرس ـ فى اية لحظة ـ فكانت ترتعش .

ولكى تصرف « هنرى » لاذت بالصمت .. وتثاءبت ، ثم قلبت بعض الاوراق ، وعادت للتثاؤب . واذ رأت انه لم ينصرف ، قالت انها خارجة الى دورة المياه . فهتف فى انفعال : « وداعا يا لويز !.. هل سترييننى ثانية ؟ »

وعبثت يداه فى درج مكتبها المفتوح .. وما ان بات فى الطريق ، حتى فتح الرسالة الموجهة الى المواطن « روبلين » ،

وراح يقرأها باهتمام . فقد كانت تشـتمل - فى الواقع - على صورة عجيبة لما كانت عليه الروح العامة فى فرنسا .. وكان فيها حديث عن الملكة ؛ وعن الممثلة « تيفينان » ، وعن محكمة الثورة ، وذلك الكلام الذى اءتمنها عليـــه « بروتو ديزيليت » الطيب .

واذ اتم قراءة الخطاب ، ورده الى جيبه ، تردد بضـــع لحظات ، ثم تحول كمن استقر على راى وقال فى نفســه ان الخير فى العجلة ، فاتجه صوب « التـــويلرى » ، ونفذ الى الحجرة الداخلية فى رئاسة الامن العام .

***

فى ذلك اليوم ، وفى الساعة الثالثة من بعد الظهر ، جلس « ايفاريست جاميلان » على اريـــكة المحلفين مع زملائه الاربعة عشر ، الذين عرف فيهم اناسا بسـطاء فى الغالب ، مخلصين ، وطنيين .. علمـــاء كانوا أو فنـــانين أو صناعا . كان بينهم مصور بالالوان مثله ، ورســام - وكلاهما ملىء بالمواهب - وجراح ، واسكافى ، ومركيزسابق ابدى براهين عظيمة على وطنيته ، ومطبعى ، وتجار صغار .. وقصارى القول انهم كانوا نخبة تمثل اهل باريس .. وكانوا يجلسون فريق منهم فى زى العامل ، ومنهم من كان فى زى البورجوازى .. وبعضهم قد ارسل ثلة من الشعر على قفاه ، وبعض قد قص شعره من امام اكثر منه من وراء .. وبينهم من امال القبعة المثلثة على عينيه ، ومن ارتدى قبعة مستديرة ازاحها الى مؤخر الراس ، ومن ارتدى قلنسوة حمراء غطت اذنيه .. فريق ارتدى سترة وسروالا ، على نمط الـــزمن الغابر .. وبعضهم ارتدى السترة القصـــيرة (الكارمانيول) والسروال « البنطلون » المخطط ، على غرار « السانكيلوت » .. ومنهم من انتعلوا الأحــذية ذات الرقاب العاليـــة « الطزلك » ؛ ومن لبسوا احذية ذات اقفال جانبية « ابزيم » ،

ومن غيبوا اقدامهم فى أحذية ذات نعال خشبية .. كانوا يعرضون على اجسامهم كافةالازياء المتباينةالتى كان الرجال يرتدونها آذذاك . واذ كانوا قد جلسوا مجلسهم هنا مرات عدة ، فقد بدوا مطمئنين على الاريكة الخشبية ، حتى لقد غبطهم جاميلان سكينة نفوسهم ، اذ كان قلبه يخفق ، واذناه تسمعان طنينا ، وعيناه تغيمان ، فكل ما يحيط به يتراءى ملفوفا فى غشاء من ضباب .

وعندما أعلن الحاجب افتتاح الجلسة ، اتخذ ثلاثة من القضاة مجلسهم على منصة صغيرة ، أمام منضدة خضراء . وكانوا يرتدون قبعات ذات أشرطة حريرية ، تعلوها ريشات سوداء كبيرة ، وأوشحة القضاة تعلوها أشرطة بألوان العلم الثلاثة ، يتدلى منها على الصدور رصائع (ميداليات) فضية ثقيلة . وجلس أمامهم ــ أسفل المنصة ــ نائب المدعى العام فى زى مشابه ، بينما جلس كاتب الجلسة بين هيئة المحكمة ومقعد المتهم الشاغر . ورأى جاميلان ان هؤلاء الرجال كانوا يختلفون عن أولئك الذين رآهم فى المكان من قبل .. فقد لاحوا أكثر جمالا ووقارا وروعة ، وان اقبلوا على التصرفات العادية المألوفة : فمنهم من راح يقلب الاوراق ، أو من أخذ يستدعى أحد الحجاب ، أو من مال الى الامام ليستمع الى كلمة من أحد المحلفين أو أحد ضباط المحكمة .

وكانت ألواح حقوق الانسان معلقة فوق رؤوس القضاة .. والى يمينهم والى يسارهم ــ بجوار الجدران الاقطاعية القديمة ــ قام تمثالان نصفيان لبلتييه سان فارج ، ومارا . وفى أقصى طرف القاعة المواجه لمقعد المحلفين ، كانت مقاعد محامى الشعب ، وقد ملأت النساء الصف الاول ، وهن ــ سواء الشقراوات منهن أو ذوات الشعور السوداء أو السمراوات ــ يرتدين قلنسوات عالية ذات حواف مثناة (مكشكشة) تلقى ظلالا على وجناتهن ..

وعلى صدورهن ــ التى أضفت عليها ((الموضة)) مظهر ما للمرضع من اثداء ممتلئة ــ كان طرفا شال أبيض يتقاطعان ، ويبدو بينهما صدر مرولة زرقاء . وكن يعقدن اذرعهن على حواف حواجز المقاعد . وخلفهن ، كان الموآطنـون يتراءون متناثرين على المقاعد ، وقد اكتسوا تلك الازياء المتباينـة ، التى كانت تخلع على الجموع مظهرا غريبـا واخاذا . والى اليمين ــ من ناحية المدخل ، وخلف حاجز متين ــ كان ثمـة فراغ وقف فيه الجمهور الذى كان ــ فى هـذه المرة ــ غير كبير العدد ، فقد كانت القضية المعروضة فى هذا القسم من المحكمة ، لا تهم سوى عدد ضئيل من النظارة ، وما من شك فى ان الأقسام الاخرى ــ التى كانت تعقد جلساتهـا فى ذلك الوقت ــ كانت تنظر فى قضـايا أكثر اسـتثارة لعواطف الناس .

وكان هذا ما طامن نفس جاميلان ، الذى كان ضـعيف الجنان ، لا يحتمل جو الجلسات الكبرى المحتدم . وكانت عيناه تتجهان الى اتفهالتفصيلات ؛ حتىلقد لمح قطعة القطن التى كانت فى أذن كاتب الجلسة ، وبقعة مداد على ملف نائب المدعى العام . وكان يرى ــ وكأنه ينظر خلال عدسة مكبرة ــ رؤوس الاعمدة التى نحتت فى زمن ضاع فيــه كل المـام بمدارس الفن القديمة ، والتى كانت ترتد بلا انقطاع ، الى ذلك المقعد العتيق ، المكسو بمخمل (اوترخت) الاحمر ، وقـد ابلاه الاستعمال ، واسودت ذراعاه . وكان رجال مسلحون من الحرس الوطنى يقفون بالمداخل جميعا .

***

أخيرا ظهر المتهم يحيط به الحرس ، واطرافه طليقة كما نص القـانون . وكان رجلا فى حوالى الخمسين من عمره ، نحيلا ، يابس العود ، اسمر البشرة ، شديدالصلع ، ذا خدين غائرين وشفتين رفيعتين مكدودتين ، وقـد ارتدى ــ على

النمط القديم ـ معطفا بلون دم البقر . وكانت عيناه تتألقان كجوهرتين ، وخداه يلمعان كأنهما مصقولان ، مما كان ينم ـ ولا شك ـ عن انه كان محموما .

وجلس .. وكانت ساقاه ـ اللتان وضع احداهما فوق الأخرى ـ نحيلتين الى درجة مفرطة ، وكفاه الكبيرتان قد تشابكت أصابعهما لتحيطا بركبته .. وكان يدعى « ماری ـ ادولف جيبرج » ، وقد اتهم بالغش فى توريد علف دواب جيش الجمهورية .. والقى قرار الاتهام على عاتقه مسئولية أعمال عديدة وخطيرة ، لم يكن بينها عمل واحد ثابت بصفة قاطعة. واذ سئل « جيبرج » أنكر أغلب هذه الاعمال ، وفسر الاخرى لصالحه . وكانت لفته دقيقة ، ولهجتــــه فاترة ، واسلوبه ينم عن دهاء فذ ، مما أوحى بأنه كان رجلا صعب المراس . ولقد أجاب عن كل الاسئلة . وكان وجهــــه يظل جامدا ـ اذا وجه اليه القاضى سؤالا محرجا ـ وصوته هادئا معتدا ، ولكن يديه ـ اللتين كان يعقدهما على صدره ـ كانتا تختلجان بألم . ولقد لمح جاميلان هذا ، فهمس فى اذن جاره، وكان مصورا مثله : « أنظر الى ابهاميه ! »

وأفضى الشاهد الاول بوقائع خطيرة .. كان الاتهــــام بأسره يعتمد عليه . اما الشهود الذين استدعوا بعده ، فقد ادلوا ـ على عكسه ـ ببيانات فى صالح المتهم . وتحدث نائب المدعى العام بحمية ، ولكنه التزم الابهام . أما الدفاع فتكلم بلهجة صادقة ، اجتلبت على المتهم عطفا لم يعرف هو نفسه كيف يجتلبه . ورفعت الجلسة ، واجتمع المحلفون فى غرفة المداولة . وهناك ـ بعد مناقشة مبهمة صاخبة ـ انقسموا الى فريقين يكادان يتساويان فى العدد. فاجتمع اهل الرزانة، والعقل ، والاعتدال ـ أولئك الذين لم تكن العواطف تستخفهم ـ فى أحد الجانبين ، بينما اجتمع فى الجانب الآخر ، أولئك الذين كانوا ينقادون للعواطف ، فلم يكن الجدال يؤثر فى اقناعهم ،

بل كانوا يحكمون بايحـــاء القلب .. وهؤلاء كانوا يدينون المتهمين دائما . أولئك كانوا الســـذج ، الطيبين الذين لم يكونوا يفكرون فى غير انقاذ الجمهورية ، ولا يدعون شيئا آخر يثنيهم . وكان لمسلكهم تأثير قوى على جاميلان ، الذى كان يشعر بتوافق معهم .

وقال فى نفسه : « ان جيبرج هذا نذل خبيث وغد ، تلاعب بعلف خيل فرساننا . فاطلاق سراحه افلات لخائن ، وغدر بالوطن ، وتعريض بالجيش للهزيمة » . وتمثل جاميـــلان فرسان الجمهورية على خيولهم الهزيلة ، تفتك بهم سيوف العدو .. « **ولكن ، ماذا لو كان جيبرج بريئا ؟..** »

واتجه فكره فجأة الى « جان بليز » ، الذى كانت الشبهات تحوم حول أمانته فى توريد الاغذية هو الآخر . وكم هنـاك من آخرين يفعلون ما فعله جيبرج وبليز ، فيمهدون للهزيمة ، ويضيعون الجمهورية !.. فلا بد من مثال يردعهم .. « **ولكن .. ماذا لو كان جيبرج بريئا ؟** »

وقال جاميلان بصوت مرتفع : « ليست هنـاك أدلة » . فأجاب رئيس المحلفين ــ وكان رجلا طيبا ، ساذجا ــ وهو يهز كتفيه : « ما من أدلة هناك .. اطلاقا » .

وأخيرا ، ظهر ان سبعة أصوات مع الادانة ، وثمانيـة مع التبرئة .

***

وعاد المحلفون الى القـاعة ، فاستؤنفت الجلسة . وكان على المحلفين ان يبرروا البواعث على قراراتهم ، فتكلم كل منهم أمام المقعد الخالى . واسهب بعضهم ، بينمـــا اكتفى بعض آخر بكلمة واحدة .. وكان هناك من اطلقوا كلاما لا ينم عن ذكاء . حتى اذا حان دور جاميلان ، نهض وقال : « **ازاء جريمة كبيرة كحرمان المدافعين عن الوطن من وسائل الظفر ، لا بد من أدلة رسمية لم يتوفر لنـا شيء منهـــا** » . واعان

ـ بأغلبية الآراء ـ ان المتهم غير مدان .
واقتيد « جيبرج » أمام القضاة ، وسط همهمة من النظارة طفحت بالعطف ، واشعرته بتبرئة ساحته . فاذا به يتحول رجلا آخر ، فذاب جفاف قسماته ، ولانت شفتاه ، وحف به جو من الوقار ، وفاض وجهـــه بالبراءة . وقرأ رئيس المحكمة ـ بصوت متهـــدج ـ القرار الذى أدركه مقدما ، فارتجت جنبات القاعة بالتصفيق . **وألقى الشرطي ـ الذى احضر جيبرج ـ بنفسه بين ذراعيه . ودعاه الرئيس فعانقه فى اخاء ، وقبله المحلفون . وذرف جاميلان دموعا حارة !**
وفى فناء قصر العدل ـ الذى كانت آخر أضواء النهـــار تنيره ـ أخذت الجموع تتدافع منفعلة . كانت دوائر المحكمة الاربع قد أصدرت ثلاثين حكمـــا بالاعدام .. وعلى درجات السلم الكبير ، جلست مواطنات القرفصاء ، ينتظرن رحيـــل المركبات . ولكن « جاميلان » لم يكن يرى شيئا ـ وهـــو يهبط الدرجات وسط أمواج المحلفين والنظارة ـ ولا كان يسمع سوى القرار العادل الانسانى الذى أصدره ، وماداخله من اغتباط اذ تبين البراءة .
وفى الفناء ، ارتمت « ايلودي » بين ذراعيه ، شـــاحبة ، دامعة ، باسمة ، وظلت على صدره كالمغشى عليها . حتى اذا تمالكت صوتها ، قالت له :
ـ انك جميل يا ايفاريسنت . انك طيب . انك كريم !.. فى هذه القاعة ، كان صوتك ـ القـــوى الحنون ـ يسرى بتموجاته المغناطيسية ، فيبعث كهرباء فى كيـــانى .. كنت احملق فيك وانت على الاريـــكة الخشبية ، ولم أكن أرى ســـواك . أما انت يا حبيبى ، فمـــا أراك قد فطنت الى وجودى ؟.. ألم ينبهك شيء الى أننى كنت هناك ؟.. كنت اجلس فى المحكمة ، فى الصف الثانى ، الى اليمين . **يا الهى ! ما أحلى فعل الخير !.. لقد انقذت هـــذا التعس . فلولاك**

لقضى الامر ، ولكان من الهالكين !.. لقد رددته الى الحياة ، والى حب ذويه ، فهو - فى هذه اللحظة - يباركك ولا شك. لكم أنا سعيدة وفخورة بحبى لك يا ايفاريست !

وراحا يطويان الشوارع ، وقد عقد كل منهما ذراعه فى ذراع الآخر ، ومال عليه .. كانا يشعران بأنهما خفيفان ، حتى ظنا انهما لن يلبثا ان يطيرا . ويمما صوب « لامور بانتر » ، فلما بلغا (لوراتوار) ، قالت ايلودى : « لنتحاش الدخول خلال الحانوت » . وادخلته من الباب المخصص للمركبات ، فصعد معها الى المسكن . وعند نهاية السلم ، اخرجت من حقيبة يدها مفتاحا حديديا كبيرا ، وقالت : « كأنه مفتاح سجن.. لسوف تصبح سجانى ياايفاريست! »

واجتازا قاعة الطعام ، وبلغا حجرة الشابة . وشعر ايفاريست بفضارة شفتى ايلودى الحارتين على شفتيه ، فاعتصرها بين ذراعيه .. وطوحت برأسها ، وقد أسبلت عينيها ، وتهدل شعرها ، ولان عودها ، وكأنها فى اغماءة .. ثم انفلتت منه ، وهرعت ، فدفعت المزلاج محكمة رتاج الباب ..

وكان الليل قد اكتهل ، عندما فتحت المواطنة بليز باب المسكن لحبيبها . وقالت له - فى الظلام - بصوت خافت : « مع السلامة يا غرامى !.. هذا موعد عودة ابى ، فاذا سمعت ضجة على السلم ، فاصعد بسرعة الى الطابق الاعلى، ولا تهبط الا عندما لا يعود هناك خطر من ان يراك . ولكى تفتح الباب المفضى الى الطريق ، اطرق نافذة حارسة الباب ثلاث مرات . وداعا يا حياتى .. وداعا يا روحى ! »

وعندما الفى نفسه فى الشارع ، رأى نافذة غرفة « ايلودى » تفتح قليلا ، ويدا صغيرة تقتطف قرنفلة حمراء ، لم تلبث ان هوت عند قدميه كنقطة من دم .

الفصل الثانى عشر

• فى ذات مساء ، حمــل الشميخ بروتــو اثنتى عشرة « دستة » من الدمى الى المواطن « كايو » بشارع «لالوا» .. وكان تاجر اللعب لطيفا مهذبا عادة ، ولكنه استقبله فى هذه المرة ــ وسط «العرائس» و «الاراجوزات» ــ فى جفوة. وقال: « حذار أيهـــا المواطن بروتو .. حذار ، فليس كل وقت مناسبا للضحك ، وليست كل المزح والدعابات طيبة . فان عضوا فى لجنة الامن بالقطـــاع ، زارنى فى متجرى بالأمس ، ورأى دميك فالفاها ضد الثورة » .

فقال بروتو : « انما كان يمزح ! »

ــ كلا ، أيها المواطن .. كلا . انه رجل لا يمزح البتـــة . قال ان فى اشكال هذه الدمى الساذجة ، فكرة وطنية اخفيت بمكر .. ففى وسع المرء ان يتبين فيها صــورا كاريكاتورية

تمثل ((كوثون)) وسان جيست وروبسبيير (٦٥) ، ومن ثم صادرها جميعا . وهذه خسارة فادحة لى ، بغض النظر عن الاخطار التي صرت معرضا لها .

ـ ماذا ؟.. هذه الدمى التى تمثل «اركان» و «جيل» ، و ((سكاراموش)) ، و ((كولان)) و ((كوليت)) ، والتى نقلت أشكالها عن رسوم ((بوشيه)) التى صور بها هذه الشخصيات منذ خمسين سنة .. أهذه تقليد متوار لكوثون وسان جيست ؟.. ما من رجل عاقل يزعم هذا !

ورد المواطن كايو ، قائلا : ((من المحتمل أن تكون قد فعلت هذا عن غير سوء ، وان كان من الواجب دائما توقع التحدى من شخص ذكى مثلك . بيد ان اللعبة خطرة . فهل تريد مثلا ؟.. لقد اعتقل أمس الاول ((ناتوال)) ـ الذى كان يدير مسرحا صغيرا فى (الشانزليزيه) ـ بتهمة المروق على القومية ، لأنه مثل المؤتمر الوطنى بالدمى (الاراجوزات))) ..

فقال بروتو ، وهو يرفع القماش الذى كان يغطى دميه : ((الق نظرة اخرى !.. تأمل هذه المسخ وهذه الوجوه ، أهى غير شخصيات القصص الهزلية وأساطير الرعاة ؟.. كيف تنساق ـ أيها المواطن كايو ـ الى القول بأننى أسخر من رجال المؤتمر القومى ؟))

كان ((بروتو)) فى دهشة ، فعلى كثرة ما عرف عن حماقة الذهن البشرى ، لم يخطر له قط ان يتجه عقل الى الشك فى دميه ومسخه . فراح يدافع عن براءتها وبراءته . بيد ان

---

(٦٥) جورج كوتون (١٧٥٥ ـ ١٧٩٤) : من أعضاء المؤتمر الوطنى . وكان مشلول الساقين . وقد اشترك مع ((سان جيست)) و ((روبسبيير)) فى حكومة ثلاثية .. وانتهت حياته على المقصلة .. ولوى دى سان جيست (١٧٦٧ ـ ١٧٩٤) : كان من اعضاء لجنة الأمن العام ، وانتهى به طموحه الى المقصلة ، بسبب الارهاب .. ومكسميليان دى روبسبير (١٧٥٨ ـ ١٧٩٤) : كان محاميا وزعيما ، فرض حكم الارهاب ، ومات على المقصلة . على انه كان نزيها ، وعرف بلقب ((المعصوم من الفساد)) .

المواطن « كايو » أبى أن ينصت اليه ، وقال : « خذ دميك أيها المواطن بروتو . اننى أقدرك واكرمك ، ولكننى لا ابتغى لوما ولا ريبا بسببك . فأنا أحترم القانون ، واعتزم ان أظل مواطنا طيبا ، وان أعامل كمواطن طيب . عم مساء يا مواطن بروتو .. واحمل دميك ! »

واتخذ الشيخ بروتو طريقه الى داره ، حاملا دميه المشتبه فيها على كتفه – فى طرف قصبة – متعرضا لسخرية الاطفال الذين حسبوه بائع سم الجرذان . وانتابته افكار حزينة ، فما من شك فى أنه لم يكن يعيش على دميه هذه وحدها ، بل كان يرسم لوحات يبيع الواحدة منها بعشرين « سو » – تحت الابواب المحكمة المزاليج ؛ أو فى نفق فى سوق المدينة ، بين راتقات الشياب – لكثير من الفتية الذين كانوا يرحلون للخدمة فى الجيش ، ويبتغون ترك صورهم لعشيقاتهم . بيد أن هذه الاعمال التافهة كانت تسبب له استياء بالغا ، وكان يلاقى عناء ليتقن هذه الصور أكثر من اتقانه الدمى . **كما كان يعمل – أحيانا – كاتبا لنساء السوق ، ولكن هذا كان يزج به فى مؤامرات الملكيين ، فكانت المخاطر جسيمة** . وتذكر أنه كان ثمة تاجر آخر للعب – يدعى « جولى » – فى شارع (نيف – ديه – بيتى شان) ، بالقرب من الميدان الذى كان معروفا باسم (فندوم) .. فقرر أن يذهب اليه فى غده ، فيعرض عليه مارفض « كايو » الرعديد من بضاعته .

***

وشرع الرذاذ يتساقط ، فحث « بروتو » خطاه ؛ خشية أن تضار دميه . وفيما كان يجتاز الجسر الجديد (بون نيف) – المعتم ، المقفر – ويعرج الى ميدان (تيونفيل) ، لمح على ضوء أحد مصابيح الشارع ، وعلى مقعد حجرى ، كهلا هزيلا بدا وشيكا أن يهلك من التعب والجوع ، وان

ظل محتفظا بمظهر مهيب . وكان يرتدى عباءة مهلهلة ولا تكسو رأسه قبعة ، وقد لاح أن سنه تجاوزت الستين .. كان ذلك « لونجمار » ، الذى انقذه قبل ستة أشهر من الشنق معلقا فى مصباح ، بينما كانا يقفان معا بين الناس الذين اصطفوا أمام المخبز ، فى شارع (اورشليم) . واذ كان مرتبطا برجل الدين بصنيع سابق ، فانه اقترب منه . وعرف فيه هذا ملتزم الضرائب الذى كان قد وقف بجانبه وسط الدهماء ، فى يوم المجاعة الكبرى . وسأله « بروتو » عما اذا كان بوسعه أن يفيده بشىء ، ثم أردف : « انك منهوك القوى يا أبى ، فتناول جرعة من هذا الشراب المنعش ! »

واخرج من جيب سترته « الردينجوت » القرمزية قنينة صغيرة من الخمر ، كانت تقبع فى الجيب بجانب كتابه المفضل « لوكريس » . وقال : « اشرب ، وسأساعدك على بلوغ دارك ! » . فدفع الاب لونجمار القنينة بيده ، وراح يناضل كى ينهض . ولكنه وقع ثانية على المقعد الحجرى . وقال بصوت واهن ، ولكنه بادى الاعتداد : « اننى أقيم فى (بيكبوس) منذ ثلاثة اشهر ياسيدى . ولقد نمى الى علمى بالامس انهم قادمون لاعتقالى فى مسكنى ، فى الساعة الخامسة صباحا ، فلم أعد الى المسكن . لم يعد لى مأوى ، وانى لأهيم فى الشوارع ، وقد أصابنى التعب » . فقال بروتو : « لابأس يا أبت ، شرفنى بمشاطرتى غرفتى المتواضعة تحت السقف » .

وقال القس البرنابى : « ألم تسمع ياسيدى أننى موضع اشتباه ؟ » . فقال بروتو : « وكذلك انا .. والدمى التى أصنعها أيضا ، وهذا شر البلية . وها انتذا تراها - تحت هذه الغلالة - معرضة للرذاذ الذى يثلج عظامنا . فقد أصبحت أصنع الدمى لأكسب قوتى ، بعد أن كنت ملتزم

ضرائب ، كما تعرف يا أبى ! »

وأمسك الأب لونجمار باليد التى بسطها له رجل المال السابق ، وقبل الدعوة المعروضة . وقدم له « بروتو » — فى مسكنه — خبزا وجبنا ونبيذا كان قد وضعه فى الميزاب ليبرد ، اذ كان حريصا على ارضاء مزاجه .

وما ان أخمد الأب لونجمار جوعه ، حتى قال : « خليق بى ياسيدى أن أطلعك على الظروف التى دعت الى فرارى ، وطوحت بى لأموت على ذلك المقعد الحجرى الذى وجدتنى عليه . فأنا منذ طردت من ديرى رحت أعيش على الايجار الهزيل الذى قدرته الجمعية العامة للدير ، وأعطى دروسا فى اللغة اللاتينية والعلوم الرياضية ، وأكتب منشورات عن اضطهاد الكنيسة الفرنسية . كذلك ألفت رسالة مستفيضة لاثبات أن اليمين الدستورية التى يؤديها القساوسة مخالفة للنظام الكنسى . ولقد حرمنى تقدم الثورة من كافة تلاميذى ، ولم يعد بوسعى أن أمس معاشى بدون بطاقة الولاء القومى ، التى يحتمها القانون . وهذه الشهادة هى التى كنت قد ذهبت لأطلبها من المجلس البلدى ، وأنا مقتنع باننى اهل لها . وكعضو فى منهب أنشأه القديس بولس الرسول بالذات — الذى ظفر بجدارة بلقب « مواطن رومانى » — فقد رحت اشم نفسى باننى اذ أسلك مسلكه ، مقتديا به ، جدير بان أصبح مواطنا فرنسيا ، احترم كافة القوانين البشرية التى لاتتعارض مع الشرائع الالهية . وقد قدمت طلبى الى المسيو « كولان » القصاب ، وموظف المجلس البلدى المنوط باصدار هذه البطاقات ، فسألنى عن وضعى الاجتماعى ، فقلت له اننى كنت قسا .. وسألنى ان كنت متزوجا ، فما ان اجبت بأننى لم أكن متزوجا ، حتى قال ان هذا شر ما فى الامر !

« وأخيرا — بعد أسئلة متباينة — سألنى عما اذا كنت

قد برهنت على ولائى القومى ، فى العاشر من أغسطس ، والثانى من سبتمبر ، والواحد والثلاثين من مايو ، واردف قائلا : « لاسبيل لمنح هذه البطاقات الا لمن أثبتوا ولاءهم بمسلكهم فى هذه المناسبات الثلاث » . ولم أستطع ان أجد جوابا يرضيه . ومع ذلك ، فقد أخذ اسمى وعنوانى ووعدنى بأن يجرى تحريا فوريا عن حالى . وكان عند قوله ، وكانت نتيجة تحريه ان ذهب اثنان من « قوميسيرى » لجنة الامن العام فى (بيكبوس) - تعاونهما قوة مسلحة - الى مسكنى فى غيابى ، لاقتيادى الى السجن . ولست أدرى بأية جريمة أنا متهم . ولكنك تقرنى على ان المسيو « كولان » خليق بالرثاء ، اذ لاتزال روحه مضطربة ، حتى انه ليلوم رجل دين على انه لم يظهر ولاءه القومى فى العاشر من أغسطس ، والثانى من سبتمبر ، والواحد والثلاثين من مايو .. رجل له مثل هذا التفكير ، جدير بالرثاء ! »

وقال بروتو : « وأنا الآخر لاامتلك بطاقة ؛ فكلانا من المشتبه فيهم . ولكنك منهوك القوى يا أبى ، فالجأ الآن الى الفراش ، وسنتدبر غدا أمر سلامتك » .

***

ونزل عن الحشية الوثيرة لضيفه ، واستبقى لنفسه الاخرى المحشوة بالقش . فألح القس - فى تواضع - على أن تكون هذه له ، وذهب فى الحافة الى درجة لم يكن معها بد من ارضائه ، والا نام على البلاط .

وما ان انتهت هذه التدابير ، حتى أطفأ « بروتو » الشمعة من قبيل الاقتصاد والحكمة . وقال رجل الدين : « اننى معترف بما أمدين الى ياسيدى . ولكن وأسفاه !.. ما من قيمة تذكر تجنيبها من عرفانى بالجميل .. فلعل الله يجزيك خيرا !.. وهذا جزاء لاحد له . على ان الله لايحسب حسابا للامر الذى لايفعل تمجيدا له ، والذى لاتدعو اليه طبيعة

فاضلة ، صادقة .. لهذا أناشدك ياسيدى ، أن تفعل لله ما تشعر بميل الى أن تفعله من أجلى » .

ورد بروتو قائلا : « لاتشغل بالك يا أبتاه ، ولا تقدم لى شيئا من العرفان . ان ما أفعله فى هذه اللحظة ، وتبالغ أنت فى تقديره ، لا أفعله حبا فيك ، فمع انك شخصية جديرة بالحب يا أبتى ، الا أننى لم أعرفك المعرفة التى تجعلنى احبك . كذلك أنا لا أفعل ما آفعل حبا فى الانسانية ، اذ اننى لست فى سذاجة « دون جوان » حتى اؤمن — كما كان يؤمن — بأن للانسانية حقوقا مكتسبة .. بل ان هذا الوهم حين يتملك روحا حرة كروحه ، يبعث الأسى فى نفسى .. انما أفعل ما أفعل بتلك الاثرة التى توحى الى الانسان بكافة أعمال الكرم والوفاء الصادق ، فيؤديها لأنه يتعرف نفسه فى كافة البؤساء ، ويجد لنفسه عزاء فى بؤس الغير ، ويبذل العون لأخيه الانسان الفانى ، أملا فى أن تيسر له الطبيعة والقدر العون والنجدة بدوره . ثم اننى أفعل ما أفعله بدافع من البطالة كذلك . فان الحياة قد أصبحت غثة تافهة ، بحيث ينبغى ان يشغل المرء عنها مهما يكن الثمن . كما أن فعل الخير نوع من اللهو المر الذى يبتلى به المرير نفسه عوضا عن أنواع أخرى من اللهو ألذ وأشهى .. اننى أفعل ما أفعل بدافع من الغرور ، ولتكون لى اليد العليا عليك .. ثم اننى أفعله بدافع من روح القيم والمبادىء ، ولأريك ما يستطيع الزنديق الكافر أن يسديه ! »

فأجاب الاب لونجمار : « لاينبغى أن تفترى على نفسك بهتانا يا سيدى . اننى تلقيت من الله نعما كثيرة لم ينعم بها عليك حتى هذه الساعة ، ولكنى أقل منك قيمة ومكانة ، وأقل منك نصيبا من الفضائل الطبيعية . ومن ثم فاسمح لى بأن أفوقك بميزة . فأنت لاتستطيع أن تحبنى لأنك لا تعرفنى . أما أنا ياسيدى ، فبدون ان اعرفك ، احبك أكثر

من نفسي .. فبهذا أمرني الله ! »

وما ان قال الأب لونجمار هـذا ، حتى جثـا راكعا على البـلاط ، وبعـد أن ردد صلواته ، استلقى على الحشيـة المصنوعة من القش ، واستغرق فى النوم .

الفصل الثالث عشر

• **اتخذ** « ايفاريست جاميلان » مجلسـه بين هيئـة المحكمة للمرة الثانية . وراح يتحدث مع زملائه من المحلفين ، عن الانبـاء التى وردت ـ فى ذلك الصباح ـ قبـل افتتاح الجلسة . وكانت بينهـا أنباء غير مؤكدة ، وأنباء كاذبة .. غير ان ماكان حقيقيا منهـا ، كان مروعا . فان الجيوش المتحالفة سيطرت على كافة الطرق ، وأخذت تزحف معا .. وانتصرت مقاطعة (فانديه) ، وتمردت (ليون) ، واستسلمت (طولون) للانجليز الذين انزلوا على ساحلها اربعة عشر الف رجل .

ولم تكن هذه ـ فى نظر رجال المحكمة ـ مسائل داخلية ، وانما كانت احداثا تهم العالم أجمع .. وأذ كانوا موقنين من انهم هالكون اذا هلك الوطن ، فقد جعلوا السلامة العـامة قضيتهم الكبرى والوحيدة . وأخذت مصلحة الامة ـ التى كانت ممتزجـة بمصلحتهم ـ تملى عليهم مشـــاعرهم ، وعواطفهم ، ومسلكهم .

وتلقى « جاميلان » ـ وهو جالس على مقعده الخشبى ـ رسالة من « ترويبه » ، سكرتير لجنة الدفاع ، يعلنه فيهـا بتعيينه متصرفا (قوميسيير) فى البارود والمواد المتفجرة .. وقد جاء فيها :

« انك ستنبش كافة الاقبية فى القطاع ، لاستخراج المواد اللازمة لصناعة البارود . فمن المحتمل أن يصير العدو غدا

أمام باريس ، فلابد لتربة الوطن من أن تزودنا بالصاعقة التى نلقيها على هؤلاء المعتدين . لذلك أرسل اليك بهذا تعليمات المؤتمر الخاصة بتدبير المتفجرات . ولك التحية والاخوة » .

وفى هذه اللحظة ، أقتيد المتهم الى القاعة . وكان من آخر القادة المهزومين ، الذين احالهم المؤتمر الى المحكمة ، واكثرهم غموضا .. وارتجف « جاميلان » اذ رآه ، فقد خيل اليه انه يرى ثانية ذلك العسكرى الذى ابصره وسط الجمهور ـ منذ ثلاثة أسابيع ـ وهو يدان ويرسل الى المقصلة . كان نفس الرجل بمظهره الأبى المنيد .. وكانت القضية عين القضية . فقد راح يجيب فى مداورة وشراسة افسدتا قوة اجاباته . وكانت انتقاداته ، وحججه الركيكة ، والاتهامات التى راح يرمى بها أعوانه ، تجعل المرء ينسى انه انما كان يمارس واجبا جليلا .. واجب الدفاع عن شرفه وحياته . وكان كل شىء ـ فى هذه القضية ـ غير ثابت ، وموضوع محاجة : موقف الجيوش ، وعدد الجنود العاملين ، والذخائر ، والاوامر المتلقاة ، وتحركات القوات .. ولم يكن أحد يعرف شيئا منها . فما من شخص كان يفهم شيئا من هذه العمليات الخطرية ، الهوجاء ، التى لم تكن لها غاية ، والتى ادت الى نكبة .. ما من شخص كان يفهمها .. وما كان الدفاع ـ بل المتهم نفسه ـ يفوق فى فهمه اياها القضاة والمحلفين .. وكان أغرب مافى الأمر أن أحدا لم يكن ليقر للغير ـ بل ولا لنفسه ـ بعجزه عن الفهم . فكان القضاة يتخبطون فى رسم الخطط ، والمناقشة فى الأساليب والفنون العسكرية .. وكان المتهم يضللهم ليساند حججه الركيكة .

ومضى الجدل الى مالا نهاية . وراح « جاميلان » ـ أثناء هذه المناقشات ـ يتمثل طرق الشمال الوعرة ، وقد انقلبت عربات الامداد والمدافع فى وهادها ، وانسابت الفصائل

المدحـورة فى كل المسـالك ، مشتتة فى فوضى ، بينما كان فرسان العـدو يقتحمون الاستحكامات المهجـورة ، من كل جانب . وخيل اليه انه كان يسمع صيحة هائلة تتصاعد من هـذا الجيش المقدور ، تتهم القـائد .. وسطا الظلام على جدران القاعة ، وانتصب - فوق رأس رئيس المحـكمة - شكل « مارا » غير واضح ، كأنه شبح او طيف . واذ دعى المحلفون الى اعـلان رأيهم ، أجمعوا على اتفـاق . واعلن « جاميلان » بصوت خافت ، كان يختنق فى حلقـه - وان كانت لهجته حازمة - ان المتهم كان مذنبـا ، وقد ارتكب خيانة نحـو الجمهـورية .. فتصاعدت غمغمة محبذة من الحشد ، هبت كنسمة تمسح على نزاهته الشابة . وقرىء الحكم على أضواء المشاعل ، التى كان لهبها الكئيب يتراقص على صدغى المدان الفائرين ، حيث كان العرق يبدو متبلورا.

وعند الخروج ، لم يكد « جاميلان » يصل الى الدرجات التى احتشدت عليها النسوة الثرثارات ، بعلآماتهن الحريرية الملونة ، حتى سمع غمغمة باسمه الذى كان رواد المحـكمة - الذين اعتادوا حضور جلساتها - قـد بدأوا يعرفونه .. وهاجمتـه الحائكات ملوحات بقبضاتهن ، مطالبـات براس النمسوية .

وفى اليـوم التالى ، قدر لايفاريست ان يصـدر حـكمه بالقضاء على حياة امرأة مسكينة ، هى الارملة « ميريون » ، موزعة الخبز .. كانت تمضى فى الطرق ، دافعـة أمامهـا عربة صـغيرة ، وقـد علقت الى خصرها لوحا من الخشب الابيض ، كانت تحفر عليه بسكينها علامات تمثل حساب ما كانت توزع من خبز . وكان مكسبها ثمانية « سو » فى اليوم . وأبدى نائب المدعى العام عنفا عجيبا نحو هـذه التعسة التى كانت - كما يقال - قد هتفت : « يحيا الملك ! » ؛ لعدد من المعتقلين الذين القى القبض عليهم وهم يمارسـون أعمالا

مضادة للثورة ــ فى البيوت التى كانت تتردد عليهــا بالخبز يوميا ــ واتهموا بالتآمر بغية تهريب المرأة « كابيه » . واذ استجوبها القاضى ، وأطلعها على الاعمــال المعزوة اليهــا ، كشفت ــ اما لسذاجتهــا ، وأما لتطرف متهوس ــ عن مشاعر ملكية شديدة التحمس ، فقضــت على نفسها بالهلاك .

ولقد ناصرت المحكمة الثورية المســاواة ، اذ أبدت من الصرامة والقسوة نحو الحمالين والخدم ، قدر ما أبدت نحو الارستقراطيين والماليين . ولم يفطن « جاميلان » قط الى انها كانت خليقة بأن تسلك غير هذا المسلك ، تحت حكم شعبى . فقــد كان يقضى باستهجان أى استبعاد للعقاب ، ويرى فيــه استهــانة بالشعب ، اذ انه كان ــ فى رأيه ــ استخفافا بمبــدأ العقــاب . وكان قصر المقصلة على الارستقراطيين وحدهم ، يتراءى له بمثابة نوع من التمييز . فشرع يتخذ من « العقاب » مبدأ يرقى الى مراتب المبادىء الدينية والتصوفية ، وامتدادا للفضيلة والسجايا الكاملة . كان يرى أن الألم حق على المجرمين ، وأن من الخطأ حرمانهم منه .. ومن ثم أعلن أن المرأة « ميريون » مذنبة ، وجــديرة بالعقوبة القصــوى ، ولم يأسف الا على أن المتطرفين الذين أضاعوها ، والذين كانوا أعظم ذنب منهــا ، لم يكونوا الى جوارها ليشاطروها مصيرها .

***

وأخذ « جاميلان » يتردد ــ فى كل مســاء تقريبا ــ على اليعقوبيين الذين كانوا يجتمعون فى كنيسة « الدومينيكان » القديمة ، بشارع (اونوريه) . وفى مساحة استطالت فيهــا شجرة الحرية ــ صفصافة لاتكف اوراقها عن الحركة محدثة وسوسة متواصلة ــ كانت الكنيسة تقــوم .. مجرد مبنى فقير ذى جدران كالحــة ، تعلوها طبقة من القرميد تبــدو خلالهــا دعائم السقف عارية ، وتتخللها نافذة مستديرة ،

وباب مقبى ، يرتفع فوقه العلم القـومى ، وعلى ناصـيته قلنسوة الحريه . وكان اليعاقبـة ـ على شاكلة الحبليين والورقيين (٦٦) ـ قد اتخـذوا لأنفسهم مسـاكن واسـماء الاقليات المشتتة . وقد اخذ « جاميلان » ـ من أمد قريب ـ يواظب على حضور جلسات « الجبليين » ، اذ لم يجد لدى هؤلاء اليعاقبـة اصرارا على ارتداء النعـال الخشبيـة ، و « الكرمانيولات » .. ولا وجد لديهم صياح انصار دانتون .

كانت الحكمة الادارية ، والوقار البورجوازى يسيطران على منتدى روبسبيير .. وكان ايفاريست ـ مذ افل نجم « صديق الشعب » وغاب ـ يتبع تعاليم مكسميليان التى كانت مسيطرة على اليعاقبة ، وبالتالى على الف جماعة من أتباعهم ، امتدت فى طول فرنسا وعرضها .

وكان أثناء قراءة محضر الجلسة ـ فى المحـكمة ـ يجيل بصره على الجدران العارية الكئيبة ، التى كانت يوما تأوى الأبناء الروحيين للمحقق الاكبر فى قضايا الزنادقة (القديس فرانسوا) ، فأصبحت تشهد اجتماعات المحققين المهتاجين فى الجرائم التى كانت ترتكب ضد الوطن ..

هناك كان يجلس فى غير أبهة ولا خيـلاء ، يمارس بنطقه أعظم سلطات الدولة ، فكان يحـكم المدينة والامبراطورية ، ويملى قراراته على المؤتمر .. وكان هؤلاء الذين أقبلوا على تشكيل الوضع الجديد للأمور ، يبالغون فى احترام القانون ، حتى انهم ظلوا ملكيين فى سنة ١٧٩١ ، ورغبوا فى عودة الملك من (فارين) ، تشبثا منهم بالدستور .. وظلوا أصـدقاء

---

(٦٦) الحبليون : اتباع القديس فرنسوا ، والحبل رمز لزنارهم . وقد اطلق اسمهم على الجماعة التى أنشأها دانتون ومارا وديمولان سنة ١٧٩٠ والورقيون لقب كان يطلق على المتزمتين من اتباع القديس برنار . واطلق اسمهم على الملكيين النيابيين ـ الذين طالبوا بنظام ملكى يقيد الدستور فيه سلطات الملك ـ لأنهم كانوا يجتمعون فى دير قديم لهذه الطائفة .

للنظام الذى كان قائما ، حتى بعد مذابح (الشان دى مار) ، فلم يثوروا قط على الثورة .. ولم يأبهوا بالحركات الشعبية ، بل راحوا يغذون - فى نفوسهم الحزينة ، القوية - حبا للوطن احتضن أربعة عشر جيشا ، وأقام المقصلة .. ولقد **اعجب جاميلان فيهم باليقظة ، وبروح الشك التى كانت تتملكهم ، وبالفكر المتعصب للعقيدة ، وبحبهم للقواعد النظامية الموضوعة ، وبحذقهم فى التسلط على سواهم ، وبما أوتوا من فطنة ممتازة .**

ولم تكن تصدر عن الجمهور - الذى كانت القاعة تغص به - اية أصوات ، اللهم الا غمغمة مبهمة ، مدغمة ، كحفيف أوراق شجرة الحرية ، التى كانت تنتصب عند المدخل .

***

وفى ذلك اليوم - الحادى عشر من فانديمير - صعد المنبر فى تؤدة ، شاب ضيق الجبين ، ثاقب النظرات ، اقنى الأنف ، مدبب الذقن ، طويل الوجه نحيله ، بارد الاعصاب . وكان شعره مزدانا بالبودرة ، وقد ارتدى حلة زرقاء أبرزت امتشاق قوامه .. وبدا فى دقة حركاته ، واتساق قسماته ما اوحى للبعض - على سبيل السخرية - بأنه كان اشبه بأستاذ للرقص ، وما حمل بعضا آخر على ان يحييه باسم « اورفيه الفرنسى » (٦٧) .. ذلك كان « **روبسبير** » ، الذى القى خطابا بليغا - بصوت جلى - حمل فيه على اعداء الجمهورية ، وانهال فيه بالحجج الدامغة القاسية على « بريسو » واعوانه .. واطال الكلام ، واسهب فى جزالة ، وعبارات متناسقة . وحلق فى أجواز الفلسفة ، وقذف بصواعقه المتآمرين الذين كانوا يعيثون فى الأرض فسادا .

وراح « ايفاريست » يصغى فى استيعاب ، وكان - حتى ذلك الوقت - يتهم الجيرونديين بالتمهيد لاعادة الملكية ، او

---

(٦٧) من شخصيات الاساطير الاغريقية ، وقد اشتهر بالموسيقى والغناء .

لنصرة عصبة « اورليان » ، وبالعمل على خراب المدينة الباسلة (باريس) ، التى خلصت فرنسا ، والتى ستخلص العالم بأسره يوما ما . اما الآن ، فقد تبين - على صوت العقل - حقائق أسمى وأصفى .. وفطن الى منطق ثورى رفع روحه فوق شوائب الماديات المتوارية فى اخطاء الحواس ، الى نطاق الحقائق الأكيدة المطلقة . كانت الأمور - فى حد ذاتها - مختلطة ، مشوشة ، وكانت الأحداث من التعقد بحيث يتوه المرء فيها .. فاذا روبسبير يبسطها له ، ويكشف له عن الطيب والخبيث فى عبارات سهلة واضحة : كشف له عن التحالف وعدم الانقسام .. ففى الوحدة وعدم الانقسام السلامة والامان ، وفى التحالف الهلاك .. وتذوق جاميلان ذلك الاغتباط العميق الذى يستمرئه المؤمن اذ يعرف الكلمة التى تنقذ ، والكلمة التى تورد موارد الضياع . وآمن بأن المحكمة الثورية - من الآن فصاعدا - جديرة بأن تعرف ما عرفته المحاكم الكنسية من قبل .. ان تعرف الجريمة المطلقة .. جريمة القول . ولما كان ذا روح دينية ، فقد تلقى هذه الآراء الكاشفة بحماس واجم . وانتشى قلبه طربا اذ جال بخاطره أنه - منذ اليوم - أصبح يملك رمزا يميز به بين الجريمة والبراءة .. ذلك الرمز هو عقيدته .. فيالكنز العقيدة ، الذى يغنى عن كافة الكنوز قاطبة !

كذلك ألقى له الحكيم مكسميليان (روبسبير) أضواء كشفت له عن النوايا الخبيثة لدى أولئك الذين ارادوا تحقيق المساواة فى الثروات ، وتقسيم الأراضى ، ومحو الثراء والفقر ، وانشاء حياة وسط ، سعيدة للجميع . فلقد خلبته مبادئهم فأقر - فى بادىء الأمر - غاياتهم ، التى رآها متفقة مع المبادىء الجمهورية الصحيحة . بيد أن روبسبير كشف له - بأحاديثه فى منتديات اليعاقبة - عن خططهم ، وأظهر ان اولئك الرجال الذى كانت نوآياهم تبدو سليمة من

كل شائبة ، كانوا يعملون على هدم الجمهورية ، فما ارعبوا الأغنياء الا ليثيروا على السلطات الشرعية أعداء أقوياء شديدى الحقد . والواقع انه بمجرد ان أصبحت الثروات مهددة ، ازداد الناس — عن بكرة ابيهم — تشبثا بما كان فى أيديهم ، بالرغم من قلته ، وانقلبوا فجأة ضد الجمهورية . فان تهديد المصالح لون من التآمر . وتحت ستار التمهيد للسعادة الشاملة ، ولسيادة العدالة ، كان أولئك الذين اقترحوا المساواة وشيوع الثروات — كشىء جدير بجهود المواطنين — خونة وأشرارا أشد خطرا من الأعداء المتحالفين .

على ان أكبر كشف هدته اليه حكمة روبسبيير ، هى **جرائم الملحدين وفضائحهم** . فان « جاميلان » لم ينكر يوما وجود الله . اذ كان يؤمن بوجود قوة عليا ، وعناية ترعى البشر ، بيد انه كان يعترف — فيما بينه وبين نفسه — بأنه لم يكن يتمثل « الكائن الأعلى » الا فى صورة جد مبهمة . واذ كان شديد التعلق بحرية الضمير ، فانه كان يقر — عن طيب خاطر — بأن للأمناء الصادقين — من أمثال لاميترى ، وبولانجيه ، والبارون دولباخ ، ولالاند ، وهلفيتيوس ، والمواطن دوبوى — ان ينكروا وجود الله ، **على شريطة اقامة دستور أخلاقى طبيعى ، وأن يجعلوا من انفسهم مصادر للعدالة وقواعد لحياة فاضلة** . بل انه كان يشعر بعطف — أحيانا — على الملحدين اذا ما رآهم يتعرضون للأذى والاضطهاد . فكشف له هذا الرجل العظيم — ببلاغته الفاضلة — عن الصفة الحقيقية للالحاد ، وطبيعته ، وغاياته ، وآثاره .. **وبين له ان هذا المذهب — الذى نشأ فى «صالونات» الطبقة الراقية ومخادعها — كان أخطر ابتكار طاف ببال أعداء الشعب لتقويض أخلاقه ولاستبعاده** . وان من الاجرام أن تنتزع من أفئدة التعساء ، هذه الفكرة التى تهبهم العزاء — فكرة وجود قوة عليا ترعاهم وتعوضهم — وان

يتركوا دون هداية ولا ارشاد ؛ للشهوات التى تهبط بالانسان وتجعل منه عبدا دنيئا .. فاذا بالابيقورية الملكية (٦٨) – التى دعا اليها هلفيتيوس – تقودهم فى النهاية الى الانحطاط الخلقى ، والقسوة ، وكافة الجرائم ..

ومنذ أن سمع « جاميلان » هذه الدروس من مواطن عظيم ، بغض الملحدين ، وكره فيهم – بوجه خاص – انهم اوتوا قلوبا فارغة ، طروبة ، كما كانت حال الشيخ «بروتو» .

***

وكان على « ايفاريست » – فى الأيام التالية – أن يقضى فى عدد من القضايا ، اتهم فيها – على التوالى – أحد الاقطاعيين السابقين باتلاف القمح لاجاعة الشعب ، وثلاثة من المهاجرين عادوا لاشعال نار الحرب الأهلية فى فرنسا ، وفتاتان من بنات الهوى ، وأربعة عشر من المتآمرين – من أبناء مقاطعة (بريتانى) – بينهم نساء وكهول وشباب وسادة وخدم . وكانت الجرائم ثابتة ، والقانون صريحا . **وكانت بين المذنبين امرأة فى العشرين من عمرها ، بدت فاتنة اذ تجلت روائع شبابها تحت ظلال مصيرها المرتقب ، وقد لمت غدائر شعرها الذهبى عصابة زرقاء ، وكشف وشاحها الرقيق عن عنق أبيض لدن .**

وأصدر « جاميلان » رايه بالاعدام دائما ، فسيق كل المتهمين – عدا بستانى هرم – الى النطع .

وفى الاسبوع التالى ، أطاح « ايفاريست » ومحكمته برؤوس خمسة وأربعين رجلا ، وثمان وعشرين امرأة . ولم يكن قضاة المحكمة الثورية يفرقون بين الرجال والنساء ، يحدوهم فى ذلك مبدأ قديم .. أقدم من العدالة ذاتها . واذا كان الرئيس « مونتانيه » قد تاثر بشجاعة « شارلوت

---

(٦٨) الابيقورية مذهب يدعو لتغليب اللذة – الذهنية والجسدية – على ما عداها .

كورداى » وحسنها فحاول انقاذها بالتعديل فى التحقيق ، وفقد بذلك مركزه ، فان النساء كن فى أغلب الأحيان لايجدن أى ترفق فى التحقيق ، وفقا للقاعدة العامة فى المحاكم . وكان المحلفون يخشونهن ، ويحذرون مكرهن ، وما درجن عليه من تظاهر وتلفيق ، وما أوتين من وسائل الاغراء . واذ كن يعادلن الرجال شجاعة ، فقد حمل بذلك المحكمة على معاملتهن معاملتها الرجال . وكان أغلب القضاة الذين تولوا الفصل فى أمرهن معتدلين فى شهواتهم ، أو كانوا من طلاب اللذة فى زمن مضى من أعمارهم ، فلم يعد الأمر يزعجهم اطلاقا ، واصبحوا يقضون بالادانة أوبالبراءة وفقا لضمائرهم، ومعتقداتهم ، وتحمسهم ، وحبهم للجمهورية . أما هن فكن جميعا – بالتقريب – يظهرن وقد عنين بتنسيق شعورهن ، وجهدن فى التأنق بقدر ما كانت تسمح لهم أحوالهن المنكودة . بيد أن الشابات كن قلة بينهن ، وكانت الجميلات أقل . وكان السجن والقلق يذبلهن ، ويوم المحاكمة البغيض يفنيهن ويكشف عن همومهن ويفضح ذبول أجفانهن ، ونضوب تورد بشرتهن ، وشحوب شفاههن واختلاجها .

على أن المقعد الرهيب استقبل – اكثر من مرة – امراة فى ميعة الصبا ، حسناء فى غير شحوب . فكانت ظلال الموت المتراقصة على شراع الغواية تبدو على نظراتهن . وكم من محلف كان – عند هذا المنظر – يتجلد ، أو يلين ، أو ينفعل .. كم من هؤلاء القضاة كان – وهو يتكتم مشاعره المحرومة – ينفذ ببصره الى أعمق أسرار هذه المخلوقة التى كان يتمثلها حية وميتة فى آن واحد .. وكم منهم أسلم نفسه – والرؤى الغاوية والدامعة تتتابع متذبذبة – للذة الفظيعة .. لذة زف هذا الجسد المشتهى الى الجلاد !.. هذا ماكان يطويه الصمت، ، ولكن ما من سبيل الى انكاره ، لمن يعرف الرجال !.. أما « ايفاريست جاميلان » ، الفنان الهادىء

الأعصاب ، الواسع المعرفة ، فلم يكن يعترف بالجمال لغير التحف ، ولم يكن الجمال يوحى اليه باضطراب ، بقدر ما كان يلهمه الاحترام . وكان ذوقه « الكلاسيكى » من التزمت الى درجة أنه نادرا ما كان يرضى عن جمال امرأة .. ولم تكن مفاتن أى وجه جميل تثيره بأكثر مما كانت تثيره ألوان « فراجونار » ، او تشكيلات « بوشيه » الرسامين . فما عرف الرغبة قط الا فى الحب العميق .

وكان – كغالبية زملائه فى الحكمة – يعتقد أن النساء أشد خطرا من الرجال . وكان يبغض الاميرات السابقات ، اللائى كان يتمثلهن – فى خياله المفعم بالاستنكار – على غرار اليزابيث (٦٩) والنمسوية ، مجرد رصاصات لقتل الوطنيين .. كما كان يكره كافة الحسناوات من صديقات رجال المال ، والفلاسفة ، والأدباء ، ممن كن يعبثن بالملاذ الحسية والفكرية ، وممن عشن فى زمن كان العيش فيه لينا ناعما .. كان يمقتهن دون أن يبوح بمقته ، وكان – اذا مثلت أمامه واحدة منهن ليقضى فى أمرها – يحكم بالادانة فى غل ، وهو يعتقد أن حكمه انما كان يصدر عن عدل ، من أجل السلامة العامة . وكم دفع الى المقصلة – بصدق يقينه ، وحيائه المتسم بالرجولة ، وحكمته غير المندفعة ، وولائه للدولة ، وفضائله – برؤوس كانت تحرك أوتار القلوب .

ولكن ، ما هذا ؟.. ما معنى هذه المعجزة الغريبة ؟.. فمنذ عهد غير بعيد ، كان لابد من البحث عن المذنبين ، والاضطرار الى كشف مخابئهم ، وانتزاع الاعتراف بجرمهم من شفاههم . اما الآن ، فلم يعد الامر صيدا تحشد له جموع من كلاب الصيد ، ولم يعد مطاردة لفريسة مستنفرة ، بل أصبح الضحايا يتوافدون من كل فج .. أصبح النبلاء ،

(٦٩) شقيقة لويس السادس عشر ، وقد لقيت مصرعها على المقصلة .

والعذارى ، والجنــود ، وبنات الهـوى ، يتدفقون على المحكمة ، وينتزعون من القضاة الحـكم الذى كان يمعن فى الابطاء ، ويطالبون بالموت كأنه حق نفد صبرهم فى انتظـار الاستمتاع به . ولم يكن هـذا الحشد ، الذى اترعت به السجون غيرة الواشين ، والذى كان المدعى العام واعـوانه يفنون آجالهم فى سوقه الى المحكمة .. لم يكن فى هـذا الحشد الكفاية ، فكان هنـاك من يتعجلون العقوبة ويأبون الانتظار !.. وكم غيرهم كانوا اكثر اباء وانفة ، فضنوا على قضاتهم وجلاديهم بقتلهم ، وقضوا على أنفسهم بأيديهم !.. فقد أثار جنون القتل جنون الموت !.. وهاهوذا – عند ابواب المحكمة – عسكرى شاب ، جميل ، موفور القـوة ، محبوب ..ودع فى السجن حبيبة كان يعبدها ، وقد قالت له : « عش من أجلى ! » ، فلم يشأ ان يعيش .. لا لهـا ، ولا للحب ، ولا للمجد . واشعل غليونه بقرار الاتهام الموجه اليها ، وبالرغم من انه كان جمهوريا يستنشق الحرية بكل مسامه ، فانه انقلب ملكيا قبيل موته .. وتضطر المحكمة الى تبرئة ساحته ، فيزداد المتهم اصرارا ، ولا يجد القضاة والمحكمون بدا من ان يذعنوا ، وان يرسلوه للمقصلة !

وكان ذهن « ايفاريست » قلقا متريبا بطبيعته ، فافعمته دروس اليعاقبة ومشاهد الحياة شكوكا ومخاوف . وبات وهو يسلك الشوارع السيئة الاضاءة – فى المساء – ليزور « ايلودى » ، يخال انه يلمح خلال نافذة كل قبو ، الـواح تزييف الأوراق المالية .. وفى اغوار كل حانوت خاو – من حوانيت باعة الخبز او البدالين – كان يتصـور انه يرى المؤن متراكمة ، وقد امسكها اصحابها لترتفع الاسعار .. وخلال زجاج كل نافذة ، كان يتوهم انه يسمع المحتكرين يبيتون لخراب البلاد ، وهم يفرغون زجاجات نبيذ (بون

او (شابلى) .. وفى الازقة الموبوءة ، كان يتخيل انـه يلمح بنات الهوى يطأن بأقدامهن الشعار القومى ، وسط تصفيق الشباب الماجن .

كان يتمثل المتآمرين والخونة فى كل مكان .. وكان يقول لنفسه : **«ايتها الجمهورية !.. ليس لك سوى منقذ واحد من كثرة الاعداء ، المستترين منهم والظـاهرين .. فانقـذى الوطن ، ايتها المقصلة المقدسة ! »**

وكانت « ايلودى » تنتظره فى غرفتها الصغيرة الزرقاء ، فوق « لامور بانتر » . ولكى تنبهه الى ان بوسـعه ان يلج الدار ، كانت تضع مسقاتها الخضراء الصغيرة (التى تروى بها أصص الزهور) ، على مقربة من أصيص القرنفل . وكان قد اصبح يثير ذعرها ، ويتراءى لها كوحش كاسر .. فباتت تخافه ، ولكنها كانت تعبده !.. وكان العاشـق المغرق فى الدماء ، والفتاة الغاوية المدلهة ، يقضيان الليل طوله وقـد تشبث كل منهما بأحضـان الآخر ، واستغرقا فى قبـلات صامتة ضارية !

الفصل الرابع عشر

• استيقظ الأب لونجمار مع الفجر ، فما أن كنس أرض الحجرة ، حتى تأهب للذهاب ليتلو القداس فى كنيسة صغيرة بشارع (دانفير) ، يقوم عليها قس ممن لم يؤدوا يمين الولاء للثورة . وكانت فى باريس آلاف من الاماكن الشبيهة ، يجمع فيها رجال الكنيسة المستترون ، جماعات من الاتقياء ، ليؤدوا القداسات سرا . ومع أن شرطة القطاعات كانوا يقظين ، مشبوبى الريب ، الا انهم أغمضوا أعينهم عن هذه المآوى المتوارية ، خوفا من سخط الناس ، وبوازع من بقية من التوقير للشؤون المقدسة .. وودع البرنابى مضيفه ، الذى الحف عليه كى يعود لتناول الغداء ، واستطاع أن يقنعه أخيرا ، حين وعد بأن لا يكون الطعام وافرا ، ولا فخما !

واذ خلا « بروتو » الى نفسه ، أشعل موقدا صغيرا من الفخار ، حتى اذا أعد غداء للمتدين والابيقورى ، تحول يعيد قراءة ديوان « لوكريس » ، ويطلق الفكر فى تأمل أحوال البشر .. ولم يكن هذا الحكيم يعجب من أن من التعساء من كانوا يجدون أنفسهم – فى كثير من الاحيان – فى مواقف حرجة اليمة ، وهم مجرد لعب تافهة تعبث بها قوى الطبيعة . وكان منطقه يضعف ازاء الثوريين ، اذ كان يعتقد انهم أكثر شرا وأعظم حماقة من غيرهم من البشر .. وهو خطأ وقع فيه كثير من ذوى الآراء والنظريات . اما فيما عدا هذا ، فان «بروتو» لم يكن متشائما ، ولا كان يعتبر الحياة شرا محضا . بل انه كان يعجب بالطبيعة فى كثير من نواحيها ، لا سيما تركيب السماء وما فيها من حركة ، والحب الجسدى . وقد راض نفسه على بلايا الحياة ، فى انتظار يوم قريب ، لا يعود يعرف فيه المخاوف ولا الشهوات .

وطلى بعض الدمى بعناية ، وجعل من احدى الدمى الكبيرة شبيهة لتيفينان ، فقد راقت له هذه الفتاة ، واعجبت ابيقوريته بالنظام الذى تناسقت عليه ذرات كيانها .. وشغلته هذه المهام الى ان عاد البرنابى ..

وبادره ، وهو يفتح له الباب : « لقد قلت لك يا ابى ان وجبتنا هزيلة .. فليس لدينا سوى الكستناء ، ويحسن بنا أن نعنى بتبتيلها ! » . فصاح الأب لونجمار مبتسما : « الكستناء !.. ما من طعام يفوقها لذة . لقد كان ابى – يا سيدى – رجلا فاضلا فقيرا من الرعاة ، لم يؤت من حطام الدنيا سوى برجا مهدما للحمام ، وارضا للرعى تنبت الجشائش البرية ، ومجموعة من اشجار الكستناء ، فكان يقتات وزوجه واولادهما الاثنا عشر على الكستناء الاخضر الكبير ، وكنا جميعا أقوياء ، متينى البنية . ولقد كنت

أصغرهم وأكثرهم عربدة ، فكان أبى يقـــول – على سبيل الفكاهة – ان من الجدير ارسالى الى أمريكا لأعيث فسادا وقرصنة .. أواه ياسيدى ، ماأحلى عبير حساء الكستناء !.. انه ليذكرنى بالمائدة التى كان يحيط بها الاطفال ، وتضيؤها ابتسامة امى ! »

واذ انتهى الغـــداء ، خرج « بروتو » ليزور « جولى » ، تاجر اللعب بشارع (نيف ديه بيتى شان) . فتقبل هذا الدمى التى رفضها « كايو » ، ولم يكتف بطلب اثنتى عشرة «دستة» فى المرة – كما اعتاد الآخر – بل طلب أربعا وعشرين «دستة» كبداية .

وعنـــدما بلغ « بروتو » الشارع الذى كان يسمى – من قبل – (شارع الملك) ، لمح فى ميدان الثورة قطعة مثلثة من الفـــولاذ ، منتصبة بين قائمتين من الخشب .. تلك كانت المقصلة . وقد راح يتدافع حولهـــا حشد هائل من الناس الذين استخفهم الطرب والفضول ، فى انتظار وصول المركبات المشحونة .. وكانت هناك نسوة حملن صحافا على بطونهن مناديات على بضاعتهن من فطـــائر (نانتير) .. وراح باعة المرطبات يجلجلون بأجراسهم .. وعند قدمى تمثال الحرية ، جلس كهل يعرض مناظر « صندوق الدنيا » ، فى مسرح صغير يعـــلوه نسناس يلعب على أرجوحة . وتحت النطع ، كانت الكلاب تلعق دماء الامس . فانعطف « بروتو » على شـــارع (اونوريه) . حتى اذا ولج مسكنه المتواضع – حيث كان البرنابى يتلو كتاب الصلوات – مسح المنضـــــدة بعناية ، ووضع عليها صندوق الوانه ، وأدواته ، ومواد حرفتـــه . وقال : « اذا لم تر – يا أبت – ان هذا العمل غير لائق بجلال منصبك القدسى ، فأرجو أن تتفضل بمعـــاونتى فى صنع الدمى . فان سيدا يدعى « جولى » ارتبط معى – هـــذا

الصباح ـ بطلب كمية كبيرة . وبينما أتولى طلاء ورسم معالم الدمى التى سبق صنعها ، فانك تسدى لى صنيعا كبيرا اذا قصصت الرؤوس ، والاذرع ، والسيقان ، والجذوع ، على هذه النماذج الموجودة ، ولن تجد أفضل منها ، فهى مرسومة على طريقة واتو ، وبوشيه)) .

فقال لونجمار : ((الواقع اننى أعتقد ياسيدى ، ان واتو وبوشيه كانا على صواب اذ ابتدعا هذه التوافه . وكان من الأدعى لتقديرهما ولمجدهما لو انهمـــا اقتصرا على ابتداع رسوم هزلية بريئة كهذه . ولسوف يسعدنى ان اساعدك ، ولكنى أخشى أن لا أكـــون بارعا فى هـــذا)) .. وكان الاب لونجمار على حق فى التريب من مقدرته ، فلم يكن ثمة بد من الاعتراف ـ بعد عدة محاولات غيرموفقة ـ بأنه لم يؤتبراعة فى قطع الورق المقوى الرفيع ، بسن السكين ، وفقا للرسوم . بيد انه لم يلبث ـ حين أعطاه ((بروتو)) المثقاب وخيطـــا كطلبه ـ ان كشف عن مقدرة كبيرة فى بعث الحركة فى هـــذه الكائنات الصغيرة التى لم يعرف كيف يصنعها ، وفى اعدادها للرقص . ومن ثم بدا فى اتم حالات الرضى وهو يحـــاول أن يجعل كلا منها تؤدى بضع حركات راقصة.. فلما استجابت له ، أومضت على شفتيه الصارمتين ابتسامة .

وقال مرة وهو يجذب خيوط دمية تمثل ((سكاراموش)) :

ـ ان هذا المسخ يذكرنى يا سيدى ، بقصة طريفة . ففى سنة ١٧٤٦ ، اتممت أولى مراحل الرهبنة ، تحت ارشـــاد الاب ((ماجيتو)) ، وكان كهلا ذا معرفة عميقة وخلق قويم . ولعلك تذكر ان الدمى ((الاراجوزات)) ـ التى كان يقصد بها تلهية الاطفال ـ لقيت فى تلك الفترة اقبـــالا غير عادى من النساء ، بل والرجال ـ شيبا وشبانا ـ وصار لها شأن فى باريس ، فغصت بها حوانيت تجـــار الازياء ، وأصبح المرء

يلقاها عند ذوى المكانة ، ولم يعد من النادر ان يرى المرء فى الطرق والمتنزهات شخصا وقورا ينهمك فى ترقيص دميته . وما كان للسن ، ولا للشخصية ، ولا للمهنة أن تقى الاب ماجيتو من العدوى . فما ان رأى كل امرىء منصرفا الى ترقيص انسان صغير من الورق المقوى ، حتى أخذت أصابعه تنم عن نفاد صبر لم يلبث أن أصبح فوق الاحتمال . وفى ذات يوم ، كان فى زيارة مسيو « شوفيل » — وكان محاميا ونائبا — فى مسألة مهمة للطائفة بأسرها ، فرأى دمية مدلاة من رف المدفأة ، فتولاه اغراء فظيع لأن يجذب خيطها . ولم يقو على مغالبة هذه الرغبة الجامحة الا بجهد كبير . ولكنها لازمته ولم تدع له سبيلا الى الراحة .. وسيطرت عليه فى دراساته ، وفى تأملاته ، وفى صلواته ، وفى الكنيسة ، وفى اجتماع الكهنة ، وفى جلسات الاعتراف ، وفى اعتلائه المنبر .. وبعد ايام قضاها معذبا بهذه النزوة المضنية ، افضى بهذه الحال غير العادية لرئيس الطائفة ، الذى كان — لحسن الحظ — فى باريس ، فى تلك الاونة . **وكان هذا دكتورا شهيرا ، وأميرا من امراء كنيسة (ميلان) ، فنصح الاب ماجيتو بأن يرضى رغبة بريئة — من حيث المبدأ — ملحاحة من حيث الاغراء ، وكان كبتها يهدد باحداث أفدح اضطراب فى نفس من يقاومها .** وبناء على نصيحة الرئيس — أو بالاحرى ، صدوعا بأمره — زار الاب ماجيتو دار مسيو شوفيل ، الذى استقبله فى مكتبه ، كما فعل فى المرة الاولى . وهناك ، وجد الدمية لا تزال معلقة فوق المدفأة ، فتقدم منها بلهفة ، وسأل مضيفه أن يتكرم فيسمح له بأن يشد الخيط لحظة . ووافق المحامى عن طيب خاطر ، واعترف له بأنه كان فى بعض الاحيان ، يعمد الى ترقيص « سكاراموش » — وهو اسم الدمية — ليستحضر دعاواه .. وانه فى اليوم السابق بالذات ، نظم على حركات

« سكاراموش » مرافعته لصـــالح امرأة اتهمت زورا بدس السم لزوجها . وأمسك الاب ماجيتو الخيط وهو يرتجف ، ورأى « سكاراموش » يتحرك فوق يده حركات منفعـلة ، كأنما أصابه مس من الجن . وما ان ارضى نزوته بهذا الشكل، حتى تخلص من الحاحها !

وقال بروتو : « ان قصتك لا تدهشنى يا أبى ، فكم نرى من هذه النزوات الملحة . ولكنها لا تنشأ دائمـا عن الدمى الورقية » .

***

ولم يكن الاب لونجمار ـ وهو رجل دين ـ يتكلم عن الدين اطلاقا ، بينما كان بروتو لا ينفك يخوض فيـــه . واذ كان يشعر بعطف على البرنابى ، فقد كان يجد ملهاة فى ان يحرجه وان يعاكسه بالاعتراضات على أمور متباينة من العقيـــدة المسيحية. وفى ذات مرة ، كان يصنع دميا من نوع «زيرلين» و « سكاراموش » ، فقال للقس : « عنـــدما أتدبر الاحداث التى أدت بنا الى ما وصـلنا اليه ، أسـائل نفسى عن أى الاطراف ـ فى هـــذا الكون المجنون ـ كان الاكثر جنونا .. ولست بعيدا عن أن أعتقد أن هذا الطرف هو ذلك الذى كان فى القصر الملكى » . فأجاب رجل الدين :

ـ ان الناس جميعا يا سيدى ، يفقدون حجاهم ـ كمـا فعل نبوخذنصر ـ عندمايتخلى الله عنهم.. ولكن مامن امرىء من أبناء أيامنا ، أغرق فى الجهل والخطأ كما غاص السيد الاسقف فوشيه ، وما من امرىء كان ـ كذلك ـ شؤما على المملكة ، قدر ما كان هو . ولا بد ان الله كان شـديد السخط على فرنسا ، حتى أرسل لها السيد الاسقف فوشيه !

ـ يبدو لى اننا قد رأينا آخرين أشد اساءة من هذا التعس فوشيه .

ـ لقد أظهر السيد الاسقف جريجوار ـ هو الآخر ـ كثيرا من الشر .

ـ وبريسو ، ودانتون ، ومارا ، ومائة غيرهم .. فما رأيك يا أبت ؟

ـ هؤلاء من الدنيويين يا سيدى ، ولا يحمل الدنيويون ما يحمله رجال الدين من تبعات . فهم لا يستندون فيما يأتون من اساءة الى سلطة عليا ، وليست ذنوبهم مطلقة ، بعيدة عن الغفران .

ـ وربك يا أبت ؟.. ما قولك فى مسلكه ازاء الثورة الراهنة ؟

ـ لست افهمك يا سيدى .

ـ يقول ابيقور : اما ان الله يريد ان يمنع الشر ولايستطيع ، واما انه يستطيع منعه ولكنه لا يريد ، واما انه لا يستطيع ولا يريد ، واما انه يريد ويستطيع . **فان كان يريد ولا يستطيع فهو عاجز ، وان كان قادرا ولا يريد فهو شرير ، وان كان يريد ويستطيع ، فلماذا لا يفعل يا أبى ؟**

ورمى بروتو مجادله بنظرة ملؤها الاغتباط ، فأجاب رجل الدين : « ليس هناك ما هو اتعس من هذه الصعاب التى تثيرها يا سيدى . وكلما أنعمت النظر فى حجج الملحدين ، يتراءى لى كما لو اننى كنت ارى نملا يحشد بعض اعواد العشب ليسد الطريق على سيل ينقض من فوق الجبال . فاعفنى من مجادلتك ، فانى امام حجج اكثر مما ينبغى ، ولكن المعقول منها اقل مما ينبغى . وفيما عدا ذلك ، فبوسعك ان تجد ما يفحمك فى مؤلفات الاسقف جينيه وعشرين غيره . ولن أقول لك سوى ان ما اوردته عن أبيقور ليس سوى طيشا وجهالة ، اذ ليس للمرء ان يحكم على الله كما لو كان انسانا ، وعلى ضوء المقاييس الخلقية للبشر . لا بأس ياسيدى !..

فان الزنادقة ـ من « سيلس » حتى « بيل » و « فولتير » ـ قد أضلوا السذج الجهلة بمثل هذه المغالطات ! »

فقال بروتو : « الا انظر يا أبى ، الى أى مدى يذهب بك ايمانك . فانت لا تكتفى بأن تحصر الحقيقة كلهـا فى فقه عقيدتك ، بل ترفض كذلك ان ترى شيئا من الحق فى آراء كثير من العباقرة الذين يخالفونك فى التفكير ». ورد لونجمار قائلا : « انك تخطىء كل الخطأ يا سيدى ، فانى اعتقد انه ما من شىء يعتبر خطأ بأكمله ، فى تفكير أى انسان . فالملحدون يشغلون ادنى درجة فى سلم المعرفة . وعند هذه الدرجة ـ رغم بعدها ـ ينفذ بصيص من العقل وومضات من الحقيقة . وحتى عندما تكتنف الظلمات الانسان ، فانه يتطلع الى حيث اودع الله الذكاء .. وهذا ما جرى للوسيفر ». فقال بروتو : « حسنا يا سيدى ، اننى لن اضارعك كرما ، وسأعترف لك بأننى لا اجد البتة فى كل آراء اللاهوتيين ذرة من الادراك السليم » .

على انه لم يك راغبا فى الطعن فى الدين ، اذ كان يراه ضروريا للناس .. ولم يكن يأمل سوى ان يكون القساوسة فلاسفة وليسوا مجرد أهل جدال . وكان ينعى على اليعاقبة انهم كانوا راغبين فى ان يبدلوا الدين المسيحى بدين آخر أكثر فتوة ، وأشد دهاء .. دين الحرية ، المساواة ، الجمهورية ، الوطن .. ولقد لاحظ ان الاديان فى عنفوان شبابها ، تكون فى اوج العنف والقسوة ، ولكنها تفتر كلما تقادم بها العهد .. ومن ثم كان يرجو ان تبدى الكاثوليكية ـ التى التهمت كثيرا من الضحايا فى فتوتها ، والتى اثقلت السنون كاهلها ، واخمدت جشعها ـ اكتفاء وشبعا ، فتقتصر على احراق اربعة او خمسة من الكفرة فى كل مائة سنة . واردف قائلا : « وفيما عدا ذلك ، فقد كنت دائما على

وئام مع تعاليم اللاهوت والمسيحية . وكان لدى ـ فى ضيعة (ليزيليت) ـ خورى ، فكان القداس يقام فى يوم الاحد من كل اسبوع ، وكان كل ضيوفى يحضرونه ويشتركون فيه .. وكان الفلاسفة اكثرهم استيعابا ، وفتيات الاوبرا اشدهم حرارة .. كنت سعيدا اذ ذاك ، أنعم بأصدقاء عديدين » .

فصاح الاب لونجمار : « اصدقاء ! اصدقاء !.. آه ، يا سيدى . افتحسب انهم كانوا يحبونك .. كل هؤلاء الفلاسفة ، وكل اولئك الفانيات ؟.. لقد اردوا نفسك دركا يشق فيه على الله نفسه ـ لو كان فى مكانك ـ ان يعرف معبدا واحدا من المعابد التى رفع صرحها من اجل مجده ! »

***

واصل الاب لونجمار الاقامة فى مسكن ملتزم الضرائب ثمانية ايام ، دون ان يزعجه شىء . وكان يؤدى فرائض مذهبه ما استطاع ، وينهض عن مضجعه المحشو بالقش ، ليركع على البلاط ، ويتلو صلوات الليل . ومع انهما لم يؤتيا من الطعام سوى لقيمات زرية ، فانه كان يحرص على الصوم والامساك . **وسأله الفيلسوف يوما ، وهو يشهد حالات تقشفه باشفاق وابتسام : « هل تعتقد حقا ان الله يجد شيئا من المسرة فى رؤيتك وانت تتحمل البرد والجوع ، على هذا النحو ؟ » . فأجاب الراهب : « لقد ضرب الرب نفسه لنا مثلا فى التجلد والاحتمال »** .

وفى اليوم التاسع لاقامة البرنابى فى مخزن الفيلسوف ، خرج هذا فى الفسق حاملا دميه الى « جولى » ، تاجر اللعب بشارع (نيف ديه بيتى شان) . وفى عودته سعيدا لبيعها عن آخرها ، فوجىء فى الميدان الذى كان يسمى ـ من قبل ـ (كاروسيل) ، بفتاة فى ثوب من الحرير الازرق ، حفت

اطرافه بفراء السمور ، اقبلت عليه مهـــرعة ـ فى شىء من العرج ـ والقت بنفسها بين ذراعيه ، وتعلقت به متشبثة ، على نحو ما يفعل الملهوفون فى كل الازمان .

وكانت ترتجف ،ويكاد المرء يسمع دقات قلبها متسارعة .

وأعجب « بروتو » ـ الكهل الذى كان من هــواة المسرح ـ بهذا المظهر العاطفى المؤثر من فتاة من العامة ، وخطر له ان الممثلة « روكود » كانت قمينة بأن تفيد منها ، لو انه كان قد قدر لها ان تراها .. وتكلمت الفتاة بأنفاس متهدجة ، وهى تخفض صوتها خشية ان يسمعها المارة : « خذنى ايها المواطن ، اشفق على وخبئنى !.. انهم فى غرفتى بشارع فرومنتو . وقد لذت بمسكن جارتى « فلورا » اثناء صعودهم ، وقفزت من النافذة الى الطــريق ، فالتوت قدمى .. لقد جاءوا ، يبغون ان يلقوا بى فى السجن ، وان يقضوا على .. لقد قضوا ـ فى الاسبوع الماضى ـ على فيرجينى » .

وادرك « بروتو » انها كانت تتحدث عن مندوبى اللجنـة الثورية فى القطاع ، او عن مبعوثى لجنة الامن العام . وكان فى الجمعية العامة للقطاع ـ اذذاك ـ مدعيا عاما من اهـل الفضيلة يدعى المواطن « شــوميت » ، راح يتعقب بنات الهوى ، ويراهن الد أعداء الجمهورية .. كان يبغى ان يرفع لواء الاخلاق . والحق ان فتيات (باليه ايجالتيه) ـ دار العدل ـ (٧٠) كن قليلات الوطنية . فقد كن آسفات على العهد القـــديم ، ولم يكن يخفين ذلك البتة . وقد سيقت كثيرات منهن الى المقصلة كمشتركات فى المؤامرات ، فلم يزد مصيرهن الاليم زميلاتهن الا تماديا .

وسأل المواطن « بروتو » الفتاة المرتاعة عن الجريرة التى

---

(٧٠) فتيات الهوى اللائى كن يتصيدن الرجال فى المنطقة المحيطة بقصر العدل .

استصدروا من أجلها امرا بالقبض عليها . فأقسمت بانها لم تكن على علم بجريرة ما ، وانها لم تأت ما تؤاخذ عليه . فقال لها بروتو : « حسنا يا ابنتى ، ليس لك ما تخشينه ، اذا لم يكن هناك ما يثير الشبهات حولك . فاذهبى الى مخدعك ، ودعينى فى هدوئى ! » .. واذاك اعترفت بكل شىء :

- لقد مزقت شعارى القومى ، وهتفت : « ليحى الملك ! »

وسار معها على ضفة النهر الخالية من المارة . وقالت وهى متعلقة بذراعه : « **ليس هذا لأننى احب الملك ، فانا - كما لابد ان تدرك - لم اعرفه البتة ، ولعله لم يكن رجلا يختلف عن الآخرين . ولكن هؤلاء اشرار ، يبدون القسوة نحو الفتيات المسكينات** . انهم يعذبوننى ، ويكدروننى ، ويؤذوننى بكل الطرق ، فهم يودون ان يحولوا بينى وبين ممارسة مهنتى .. وانا لم اوت سواها . اتظن اننى كنت اقارفها لو اننى وجدت غيرها ؟.. ما الذى يبتغون ؟ انهم يبطشون بالصغار ، والضعاف .. ببائع اللبن ، والفحام ، وحامل الماء ، والغسالة .. انهم لن يهدأوا حتى يثيروا ضدهم الفقراء جميعا ! »

وتأملها ، فاذا بها تبدو طفلة . وكانت قد فثأت خوفها ، وبدت شبه مبتسمة ، وهى تسير بجانبه خفيفة برغم عرجها . وسألها عن اسمها ، فأجابت بأنها تدعى «اثينائيس» ، وانها كانت فى السادسة عشرة . وعرض عليها ان يرافقها الى حيث يحلو لها الذهاب .. ولم تكن تعرف أحدا فى باريس ، ولكنها اوتيت عمة تعمل خادما فى (باليسو) ، تطمع فى ان تأويها لديها . وحسم « بروتو » امره ، قائلا : « تعالى معى يا صغيرتى ! » .. وقادها ، وهى تستند الى ذراعه . فلما دخل مسكنه ، ألفى الأب لونجمار يقرأ أوراده ، فأشار الى

« اثينائيس » ـ وهو يمسك بيدها ـ وقال :

ـ اليك يا أبت ، فتاة شارع فرومانتو ، التى هتفت : « ليحى الملك ! » .. ان شرطة الثورة يتعقبونها ، وليس لها ماوى ، فهل تسمح بأن تقضى ليلتها هنا ؟

فأقفل الأب لونجمار كتاب صلواته ، وقال : « اذا كنت قد أحسنت الفهم ، فأنت تسألنى ـ يا سيدى ـ عما اذا كان فى وسع هذه الفتاة المعرضة للاعتقال مثلى ، ان تقضى الليل ـ من أجل سلامتها المؤقتة ـ فى عين الحجرة التى اقضى فيها ليلى » .

ـ أجل ، يا أبت .

ـ فبأى حق اعارض فى هذا ؟.. وهل أجزم بأننى احسن منها قدرا ، حتى اتأذى من وجودها ؟

وقضى ليلته فى مقعد قديم متداع ، مؤكدا ان بوسعه ان ينام فيه هنيئا .. ونامت « اثينائيس » على الحشية ، بينما استلقى « بروتو » على المضجع المحشو بالقش ، واطفأ الشمعة .

وراحت اجراس الكنائس تدق مؤذنة بمرور الساعات وانصاف الساعات ، دون ان يغمض لبروتو جفن ، وهو يسمع انفاس رجل الدين والفتاة ممتزجة . وبزغ القمر ـ شاهد ومرآة غرامياته القديمة ـ فأرسل الى الغرفة شعاعا من فضة استلقى على شعر « اثينائيس » الاشقر ، واهدابها الذهبية ، وانفها الدقيق ، وفمها المستدير الاحمر .. وهى نائمة وقد شدت قبضتيها . فهمس بروتو لنفسه : **« هاهى ذى .. عدو رهيب للجمهورية ! »**

***

وعندما فتحت « اثينائيس » عينيها ، كان النهار يملأ الكون ، وقد خرج رجل الدين ، وجلس « بروتو » ـ تحت الكوة ـ يقرأ اشعار « لوكريس » ، ويتعلم من عرائس الشعر اللاتينى كيف يعيش بلا مخاوف ولا رغبات .. وان كان الندم والقلق ينهشانه . وذهلت « اثينائيس » حين فتحت عينيها فرات ـ فوق رأسها ـ دعائم سقف مخزن المأكولات. ثم استرجعت الأحداث ، فابتسمت لمنقذها ، وبسطت اليه يديها الصغيرتين الجميلتين المتسختين ، لكى تلاطفه . ثم نهضت عن مضجعها ، فأشارت باصبعها الى المقعد المتداعى ، الذى قضى رجل الدين فيه ليلته . وتساءلت : « هل رحل ؟.. نبئنى ، ألم يذهب ليشى بى ؟ »

ـ **كلا يا صغيرتى ، فما وجد رجل أشد امانة من هذا الاحمق الكهل !**

وسألته « اثينائيس » عن حماقة الرجل الطيب ، فلما قال لها « بروتو » ان الدين هو حماقته ، انحت عليه بعتب جدى لهذا القول ، واردفت ان من **لا دين لهم أسوأ حالا من الدواب ، وانها كثيرا ما تصلى لله ، املا فى ان يغفر لها خطاياها ، وان يدخلها فى رحمته القدسية** . وما لبثت ان لمحت « بروتو » ممسكا بكتاب ، فظنته كتاب القداس ، وقالت : « الا ترى انك ـ انت الآخر ـ تتلو صلواتك ؟ لسوف يثيبك الله على ما فعلت من اجلى » . واذ قال بروتو ان الكتاب لم يكن كتاب قداس ، وانه كتب قبل ان تظهر فى الدنيا فكرة القداس ، ظنت الفتاة انه كتاب « تفسير الاحلام » ، فسألته عما اذا كان يضم تفسيرا لحلم عجيب رأته . ولم تكن على الم بالقراءة ، ولا كانت ـ لذلك ـ تعرف من الكتب سوى هذين الكتابين : القداس ، وتفسير الاحلام . فلما انبأها « بروتو » بأن كتابه لم يكن يفسر سوى حلم الحياة ، وجدت

— وربك يا أبت ؟ .. ما قولك فى مسلكه ازاء الثورة ؟

(ص ١٩٧)

الحسناء ان جوابه عسير البيان ، عصيا على الفهم ، ونهضت فغمست انفها فى ماء وعاء من الفخار ، حل – لدى بروتو – محل الآنية الفضية التى كان يستخدمها للاغتسال ، فيما مضى . ثم رجلت شعرها أمام المرآة – التى كان مضيفها يمشط امامها لحيته – بعناية ودقة واهتمام . وكانت تنطق ببعض العبارات ، على فترات طويلة ، وهى ترفع ذراعيها فوق رأسها :

– **انك كنت مثريا ، يوما ما .**

– ما الذى يحملك على ان تظنى هذا ؟

– **لست ادرى . ولكنك كنت غنيا ، وكنت ارستقراطيا .. انني موقنة !**

واخرجت من جيبها رصيعة فضية تمثل العذراء – فى اطار مستدير من العاج – وقطعة من السكر ، وخيطا ، ومقصا ، وقداحة ، وابرتين أو ثلاثا اختارت منها واحدة مناسبة ، وعكفت على اصلاح « جونلتها » التى كانت ممزقة فى اكثر من موضع .. وقال بروتو وهو يعطيها شارة تحمل الوان الشعار القومى : « ضعى هذه فوق رأسك يا صغيرتى ، من اجل سلامتك » . فأجابته : « **سافعل عن طيب خاطر يا سيدى .. ولكن ، حبا فيك ، وليس عن حب للأمة !** »

ولما ارتدت ثيابها ، وظهرت فى خير مظهر ، امسكت « جونلتها » بيديها ، وادت له الاحترام كما تعلمت فى قريتها . وقالت : « اننى خادمتك المتواضعة يا سيدى » . وكانت على استعداد لأن ترد الى منقذها جميله بكافة الطرق ، ولكنها طابت نفسا اذ وجدت انه لم يطلب شيئا ، فلم يكن عليها ان تقدم شيئا . وبدا لها ان من الأخلق بها ان ترضى

بهذا ، وان تحتشم . ووضع « بروتو » فى يدها بضع اوراق مالية لتستقل المركبة الى (باليسو) . وكانت هذه الاوراق نصف ما يمتلك . ومع انه كان معروفا باسرافه فى الاغداق على النساء ، الا انه لم يكن قد اقتسم يوما ثروته مع اية امرأة بالتساوى !

وسألته عن اسمه ، فقال : «اننى ادعى موريس» . وفتح لها الباب وهو آسف ، وقال : « وداعا ، يا اثينائيس ! » . فقبلته قائلة : « عندما تفكر فى يا مسيو موريس ، ادعنى باسم « مارت » ، فهذا هو الاسم الذى عمدت به ، والذى أنادى به فى القرية .. وداعا ، وشكرا .. وسأظل خادمتك يا سيد موريس » .

الفصل الخامس عشر

• لم يكن ثمة بد من اخلاء السجون التى غصت بمن فيها .. ولم يكن ثمة بد من اصدار الاحكام .. كان لا بد من أن يعمل القضاء بدون راحة ولا هوادة . وكان القضاة ، وهم جلوس أمام الجدران المزدانة بالبلط والقلنسوات الحمراء - كأنها الزنابق الحمراء - يحرصون على وقار اسلافهم فى العهد الملكى ، وعلى هدوئهم الرهيب . وكان المدعى العام وتوابه يتداعون تعبا ، وقد احتقنت عيونهم من السهر والشراب ، فلم يكن بوسعهم ان ينفضوا عنهم الارهاق الا بجهد عنيف ، وسوء صحتهم يثير الاسى فى النفوس . وكان المحلفون متباينى الاصل والشخصية ، بعضهم متعلم ، والآخرون جهلة ، وبينهم اللئام والكرام ، لينو القلوب

والباطشون ، المنافقون والمخلصون .. ولكنهم كانوا جميعا ـ حين يحدق الخطر بالوطن والجمهورية ـ يشعرون ، أو يتظاهرون بالشعور ، بكروب واحدة .. وبأنهم يكتوون بعين اللهب ، وبأنهم جميعا ضوارى ـ ان عن صدق أو عن خوف ـ لا يؤلفون سوى كائنا واحدا ، ورأسا صلبا مهتاجا واحدا ، ونفسا واحدة .. نفس وحش متطرف ، ينتج الموت بكثرة فياضة ، بحكم الممارسة الطبيعية لوظائفه . وكان الطيبون منهم أو من قست مشاعرهم ، يستيقظون فجأة على لذعة تحرك رحمتهم ، فيبرئون ـ وهم يذرفون الدموع ـ ساحة متهم يكونون قد ادانوه قبل ساعة ، فى فيض من التهزىء والتحقير .. ولكى يمضوا قدما فى مهمتهم ، كانوا يتبعون املاءات قلوبهم فى اندفاع قاس .

كانوا يصدرون أحكامهم وهم محمومون ، يراودهم النعاس ، من جراء الافراط فى العمل.. تحت ألوان التحريض والاوامر الصادرة من الشعب صاحب السلطان ، وتحت تهديدات « السانكيلوت » والحائكات ، الذين كانوا يحتشدون فى المحاكم والاماكن العامة .. كانوا يصدرون أحكامهم بموجب شهادات مفروضة غصبا على الشهود ، وبموجب تحقيقات متهوسة ، فى جو موبوء يشل العقول ويرسل طنينا فى الاذان ، ونبضا قويا فى شرايين الصدوغ ، ويفرض غشاوة من الدم على العيون . وأخذت الهمهمات الغامضة تسرى بين الشعب عن محلفين أفسدهم ذهب المتهمين . ولكن المحلفين ـ عن بكرة أبيهم ـ ردوا على هذه الشائعات باحتجاجات أبية ، وبأحكام خالية من الرحمة . وقصارى القول انهم لم يكونوا أطهر ولا أفضل من غيرهم . وفى أغلب الاحيان ، تكون البراءة حظا ، وليست فضيلة . وكان أى امرىء يقبل أن يضع نفسه موضعهم ، خليقا بأن

ينصرف على شاكلتهم ، وأن يقدم بنفس متهاونة على هـ
الاعباء الرهيبة .

وبعد طول انتظار ، أقبلت انتوانيت (٧١) اخيرا ، لتجلـ
ـ بثوب أسود ـ فى المقعد المشئوم ، وسـط عاصـفة
البغضاء ، لم يفرض احترام الاجراءات الرسـمية خلاليـ
سوى اليقين من الحكم المرتقب صدوره . واخذت المتهمـ
تجيب عن الاسئلة القاتلة بوحى من غريزة البقاء أحيـانا
وبكبريائها المعهودة فى أحيان أخرى .. وبجلال الام ـ ذا
مرة ـ من جراء وقاحة أحد متهميهـا . ولم يكن الفحـ
والسباب مباحين لغير الشهود . أما الدفاع ، فقد جمـ
رعبا . وكانت المحكمة قد آلت على نفسها أن تحكم وفقـ
للقواعد ، فظلت تنتظر أن ينتهى كل هـذا ، لتطوح براسـ
النمسوية فى وجه أوربا .

***

بعد ثلاثة ايام من اعـدام « مارى انتـوانيت » ، دعـ
« جاميلان » الى تلبية المواطن « فورتونيه تروبير » ، الذ
كان يحتضر على بعد ثلاثين خطـوة من المكتب العسكرى
حيث أفنى حياته .. وعلى فراش من الخيش ، فى صومعـ
برنابى مبعد .. وكان رأسه الممتقع غائصا فى الوسادة ، واتجـ
انسانا عينيه ـ اللتين لم تعـودا تبصران ـ الى ناحيـ
« ايفاريست » ، وكأنهما صنعا من زجاج .. وأمسكت يد
الجافة المتصلبة يد صديقه ، وضغطتها بقوة لم تكن مرتقبة
وكان قد تقيأ دما ثلاث مرات فى يومين .. وحاول أن يتكلم
فى صوت انبعث ـ فى البداية ـ مختنقا ضعيفا كأنه همهمة

---

(٧١) الملكة مارى انتوانيت .

ثم أخذ يعلو ويعمق : « واتنيى ! واتنيى ! (٧٢) .. جوردان
رد العدو الى معسكره (٧٣) .. وفك الحصار عن موبيج ..
قد استعدنا مارشيين (٧٤). هكذا سيكون .. هذا ماسوف
يكون ! » . وابتسم ..

وما كان ذلك هذيانا ، بل انهـــا كانت لمحة من الواقع ، ومضت فى ذهن كانت الظلمات الابدية توشك أن تخيم عليه. فمنذ ذلك الحين بدا ان الغزو قد اوقف ، اذ تبين القـــادة — وقد هزهم الارهاب — ان لا خير لهم الا فى الانتصـــار .
وما أخفق تطوع المحاربين فى تحقيقه ، استطاع جيش وافر العدد والنظام ، بفضل الاجبار والالزام ، ان يتيحه. ولم يبق سوى جهد واحد ، ثم يقدر للجمهورية النجاة .

وبعد غيبوبة دامت نصف الساعة ، دبت الحيـــاة فى وجه « فورتونيه تروبير » الذى كان الموت قد أيبسه ، وارتفعت يداه ، واشار لصديقه بأصبعه الى قطعة الاثاث الوحيدة فى الغرفة ، وكانت مكتبا من خشب الجوز .. وقال بصـــوت متهدج واهن ، وان أسفر عن ذهن صـــاف : « أوصيك يا صديقى بديونى ، كما فعل أوداميداس : ثلاثمائة وعشرين ليبرة ، ستجد بيانها .. فى هذه الكراسة الحمراء .. وداعا

---

(٧٢) واتنيى : منطقة فى شمال فرنسا ، الى الجنوب من مدينة (ليل) . وفيها سجل « جوردان » انتصاره على النمسويين فى سنة ١٧٩٣ .

(٧٣) المارشال جان — بابتيست جوردان : ولد فى ليموج (١٧٦٢—١٨٣٣) ، وانتصر فى موقعة (فلورو) سنة ١٧٩٤ . وقاد الجيوش الفرنسية فى اسبانيا بين سنتى ١٨٠٨ و١٨١٤ .

(٧٤) مارشيين : منطقة فى شمالى فرنسا ، على نهر (سكارب) .

يا جاميلان ! .. لا تغفـــل ، بل كن يقظـــا فى الذود عن الجمهورية . الا قد أبلغت ! »

وهبطت على الصومعة ظلمات الليل . وتصاعدت أنفـاس المحتضر فى حشرجة مختنقة ، وأخذت يداه تخمشان غطـاء الفراش . وعندما انتصف الليل ، لفظ كلمات غير مترابطة : « مزيد من البارود !.. ارفعوا البنادق .. الصحة ؟ جيـدة جدا .. انزلوا هـــذه الاجراس .. » . وفارق الدنيا فى الساعة الخامسة من الصباح .

وعرض جثمانه ــ بأمر من القطاع ــ فى صـــحن كنيسة البرنابيين السابقة ، عند قاعدة مذبح الوطن ، على سرير من أسرة المعسكر ، وقد أحيط بالعلم ذى الالوان الثلاثة ، وكلل جبينه بالغار .. وأحاط بالسرير الجنائزى اثنا عشر كهـلا ارتدوا الوشاح اللاتينى ، وأمسك كل منهم فى يده بفرع من سعف النخيل ، واثنتا عشرة فتـــاة فى ثياب ذات أذيال جرارة ، وقد حملن الزهور . وعند قدمى الميت ، كان ثمـة طفلان أمسك كل منهما مشعلا منكسا . وتبين «ايفاريست» ان أحدهما ابنة بواب داره « جوزفين » ، التى ذكره وقارها ــ وهى بعد طفلة ــ وجمالها الفاتن ، بآلهـــة الحب والموت التى كان الرومانيون يصوغونها على توابيتهم .

وسار موكب الجنازة الى مقبرة «سانت أندريه ديز آر» ، على أنغام وكلمات نشيدى : « المارسلييز » و « ليكن ! » .. وبكى ايفاريست وهو يطبع قبلة الوداع على جبين « فورتونيه تروبير» .. بكى على نفسه ، وهو يحسد ذلك الذى استراح ، وقد أدى مهمته .

واذ عاد الى داره ، تلقى اعلانا بأنه قد عين عضـــو

المجلس العام للجمعية العامة (الكومون) ؛ فقد ظل مرشحا اربعة أشهر ، وانتخب دون منافس بعد أن أجريت عملية الاقتراع عدة مرات ، بحضور ثلاثين ناخبا . فان الانتخاب لم يعد يجرى بالتصويت بعد أن أقفرت لجان القطاعات ؛ ولم يعد للأغنياء والفقراء من هم سوى التهرب من المهام العامة. ولم تعد أعظم الاحداث تثير تحمسا ولا فضولا ، ولا عادت الصحف تلقى من يقرأها ، حتى لقد داخل ايفاريست الشك فى انه لم يعد بين سكان العاصمة السبعمائة ألف ، سوى ثلاثة آلاف أو أربعة يحتفظون بالروح الجمهورية !

وفى ذلك اليوم ، سيق الواحد والعشرون الى المحاكمة .. وسواء كانوا أبرياء أو كانوا مذنبين يحملون وزر مصائب الجمهورية وجرائمها ، فانهم كانوا متعجرفين ، ومتهورين ، وطامعين ، ونزقين .. كانوا معتدلين وعنيفين فى آن واحد ، ضعافا فى المطاردة وفى العفو ، متعجلين فى اعلان الحرب ، بطيئين فى السير بها .. وعندما سيقوا الى المحكمة — جزاء ما ضربوه من مثال — لم يكن حالهم قد تغير ، فقد كانوا شباب الثورة الصاخب .. وكانوا سحرها وبهاءها . فهذا القاضى الذى كان يوشك أن يحقق معهم فى تحيز مرسوم ، وهذا المدعى الشاحب الذى كان يعد — على مكتبه — موتهم وعارهم ، وهؤلاء المحلفون الذين كانوا يتاهبون ليقضوا على دفاعهم ، وهذا الجمهور الذى أم المحكمة ، والذى كان يفرقهم بالسباب والسخط .. القاضى والمحلفون والجمهور كانوا — من قبل — يصفقون لبلاغتهم ، ويطرون مواهبهم

وفضائلهم . ولكنهم لم يعودوا يذكرون ذلك قط !

لقد اتخذ « ايفاريست » يوما من « فيرجنيو » ربا ، ومن « بريسو » ملهما . ولكنه لم يعد يذكر ذلك البتة . واذا كان قد ابقى فى ذاكرته على اثر من اعجابه القديم ، فانما كان ذلك لينبهه الى ان هذين الوغدين قد فتنـــا خيرة المواطنين وغرر بهم .

وفيما كان يدخل داره ـــ بعد الجلسة ـــ سمع صراخ يمزق القلوب .. كانت « جوزفين » الصغيرة تتلقى عقابا من امها ، لأنها لعبت فى الميـــدان مع الصبية المشردين ، فاتسخ ثوبها الابيض الجميل ، الذى ارتدته لحضور جنازة المواطن تروبير الفخمة !

الفصل السادس عشر

• بعد أن قضى « ايفاريست » ثلاثة أشهر ، يقدم فيها
ـ كل يوم ـ القرابين للوطن ، من الضحايا المعروفين
والمغمورين ، عرضت عليه قضية ، كان المتهم فيها غريمه ..
فقد كان ـ مذ تولى منصبه فى المحكمة ـ يبحث بعينين
متفرستين ، بين الحشود المتوافدة التى كانت تمر أمام بصره ،
عن الرجل الذى غرر بايلودى ، والذى كان خياله المكدود
قد رسم له صورة كانت بعض جوانبها دقيقة . فتمثله
شابا جميلا ، وقحا . وداخله يقين بأنه كان ممن هاجروا
الى انجلترا . وخيل اليه انه قد اكتشف فى شخص مهاجر
شاب ـ يدعى « موبيل » ـ كان قد عاد الى فرنسا
فوشى به صاحب الفندق الذى نزل فيه ـ فى (باسى) ـ

وقبض عليه ، وأحيلت قضيته مع ألف قضية اخرى ، على محكمة (فوكييه تانفيل) . وقد وجدت معه خطابات اعتبرها الاتهام أدلة على مؤامرة حاك شباكها « موبيل » وعملاء « بيت » ، ولكنها لم تكن - فى الواقع - سوى رسائل كتبها للمهاجر صيارفة لندن ، الذين أودع أمواله لديهم . وبدا جليا أن « موبيل » - كشاب جميل - لم يكن منصرفا الا الى الاناقة والتظرف . وقد وجد فى مذكراته آثر يشى بعلاقات مع أسبانيا ، التى كانت - اذ ذاك - على حرب مع فرنسا .. على أن هذا الاثر لم يكن - فى الواقع - سوى مراسلات ذات طابع شخصى .. **واذا لم تكن النيابة قد أمرت باخلاء سبيله ، فانما كان ذلك احتراما للمبدأ الذى يقضى بأنه لا ينبغى للعدالة أن تتعجل قط افلات أى سجين من قبضتها !**

وكان جاميلان قد اطلع - فى غرفة المداولة - على التحقيق الابتدائى مع « موبيل » ، فبهت لصفات ذلك الشاب ، اذ رآها مطابقة لتلك التى كان يعزوها الى الرجل الذى استغل ثقة « ايلودى » . ومن ثم فقد خلا الى اضبارة القضية ساعات طويلة ، فى غرفة كاتب المحكمة ، وراح يدرسها بحمية بالغة . وتعززت شبهاته - الى درجة غريبة - عندما وجد فى مفكرة قديمة للمهاجر ، عنوان « لامور بانتر » ، وان ارتبط - فى الحقيقة - بعنوان « سانج فير » (القرد الاخضر) ، و « لوحة ولى العهد » (السابق) ، وعدة متاجر أخرى للحفر واللوحات . ولكنه لم يكد يعلم انه قد وجدت فى المفكرة عينها بضع أوراق من قرنفلة حمراء ، مودعة بعناية فى غلالة من ورق الحرير ، **حتى قفز الى خاطره ان القرنفل الأحمر كان الزهر المفضل لدى « ايلودى » ، التى كانت تستنبته فى اصيص على**

نافذتها ، وتزين به شعرها ، وتقدمه ـ كما خبر بنفسه ـ رمزا للحب .. ومن ثم لم يعد لدى ايفاريست أدنى شك !

وما أن غدا الامر يقينا لديه ، حتى عقد العزم على سؤال « ايلودى » ، متكتما عنها ـ فى الوقت ذاته ـ الظروف التى كشفت له عن المجرم .. وبينما كان يرقى سلم داره ، اشتم ـ ولما يجاوز الدرجات الأولى ـ عبير فاكهة . وألفى «ايلودى» فى المرسم ، تعاون المواطنة جاميلان فى صنع مربى من «النارنج» . وبينما كانت ربة البيت العجوز تشعل الموقد ، وهى تتدبر ـ فى نفسها ـ وسائل الاقتصاد فى الفحم والسكر دون اضرار بجودة المربى ، جلست المواطنة « بليز » فى مقعد من القش ـ وقد ارتدت مرولة ، وامتلأ حجرها بالفاكهة الذهبية ـ تقشر ثمار «النارنج» وتلقى بها ـ وقد قسمتها أرباعا ـ الى وعاء من النحاس . وكانت أهداب غطاء رأسها مرتدة الى الوراء ؛ وخصلات من شعرها الفاحم مسدلة على جبينها المنضح بالعرق .. وقد شع منها سحر منزلى ، واشراق عائلى يوحى بأفكار ناعمة وغواية هادئة ..

وتطلعت الى حبيبها ـ دون أن تتحرك ـ بنظرة جميلة ، كأنها الذهب المصهور ، وقالت : « انظر يا ايفاريست ، اننا نعمل من أجلك !.. فلسوف تتناول طيلة الشتاء ، مربى النارنج اللذيذة ، التى ترضى معدتك وتشرح فؤادك » . ولكن جاميلان ، اقترب منها ، ولفظ فى أذنها هذا الاسم : **« جاك موبيل .. »**

وفى تلك اللحظة ، أطل الاسكافى « كومبالو » بأنفه الأحمر

خلال الباب الموارب . وكان يحمل مع بعض الاحذية التى أصلح كعوبها ، مذكرة بحساب اجره ، وقد استخدم التقويم الجديد ، خشية أن يظن به انه مواطن سيىء . ولكن المواطنة جاميلان ــ التى كانت تحب مراجعة حساباتها ــ حارت بين « فروكتيدور » و « فنديميير » (٧٥) ، وتنهدت قائلة : « رحماك يا يسوع !.. انهم يريدون تغيير كل شىء ، حتى الايام ، والشهور ، والفصول ، والشمس ، والقمر . سبحان الله !.. ما هذا الزوج من الكعوب فى ٨ فنديميير ، يا سيد كومبالو ؟ »

ــ القى نظرة على تقويمك يا مواطنة ، لتدركى !

فأنزلت التقويم من الحائط ، وألقت عليه نظرة ، ثم أشاحت عنه بوجهها ، قائلة فى أسى : « انه لا يبدو مسيحيا ! » .. فقال الاسكافى : « ليس هذا فحسب يا مواطنة ، ولكن .. لم يعد لدينا سوى ثلاثة أيام أحد ، بدلا من أربعة . وليس هذا كل ما فى الامر ، بل لا بد من ان نغير طريقة حسابنا كذلك ، فلن تعود هناك دراهم ولا دنانير ، بل سينظم كل شىء على قواعد جديدة » . واذ سمعت المواطنة جاميلان هذا القول ، ارتجفت شفتاها ، ورفعت عينيها الى السقف ، وزفرت قائلة : « ما أكثر ما فعلوا ! »

***

وبينما كانت تتحسر ، كنساء المناطق الجبلية الورعات ــ فى الازمان الغابرة ــ أمسكت النار بفحمة خبيثة ، فملأت المرسم بدخان كريه ، امتزج بعبير النارنج النفاذ ، فاذا الجو

---

(٧٥) فروكتيدور : الشهر الثانى عشر من التقويم الثورى ، . وكان يبدا من ١٨ اغسطس الى ١٦ سبتمبر . وفنديمير : الشهر الاول ، ويبدا من ٢٢ سبتمبر الى ٢١ اكتوبر .

لا يطاق . وشكت « ايلودى » من أن حلقها قد آلمها ، وطلبت فتح النافذة . على ان المواطن الاسكافى لم يكد ينصرف ، وتعود المواطنة جاميلان الى موقدها ، حتى كرر ايفاريست الاسم فى اذن المواطنة بليز : **« جاك موبيل »** .

فرمقته بشىء من الدهشة ، وتساءلت بهدوء ، دون ان تتوقف عن تقسيم احدى ثمار النارنج الى أربعة : « وبعد ؟ .. جاك موبيل ؟ »

ـ انه هو !

ـ هو ؟ .. من ؟

ـ الذى أعطيته قرنفلة حمراء !

وذكرت انها قد عجزت عن فهمه ، وسألته أن يزيدها ايضاحا ، فقال : **« ذلك الارستقراطى ! ذلك المهاجر ! ذلك النذل ! »** .. وهزت كتفيها ، وانكرت ـ فى لهجة طبيعية للغاية ـ انها عرفت يوما شخصا يدعى « جاك موبيل » . والحق انها لم تكن قد عرفته اطلاقا .. وانكرت انها قدمت يوما قرنفلة حمراء لغير ايفاريست ، ولكن .. لعل الذاكرة خانتها فى هذه النقطة فقط !

ولم تكن لايفاريست دراية واسعة بالنساء ، فلم يكن بوسعه أن يتغلغل فى أعماق دخيلة ايلودى . على انه كان يراها قادرة على ان تخدع وتغش من هو أكثر منه دهاء . فقال : « لماذا تنكرين ، وانا اعرف ؟ » .. وعادت تؤكد انها لم تعرف يوما اى « موبيل » . واذ كانت قد فرغت من تقشير النارنج ، فقد طلبت ماء لأن أصابعها باتت لزجة . واحضر اليها جاميلان وعاء . وبينما كانت تغسل يديها ، عادت تجدد انكارها ، فكرر ـ بدوره ـ انه كان موقنا ، فلاذت بالصمت ، فى هذه المرة ..

لم تكن تدرى ما يرمى اليه حبيبها بسؤاله ، وكانت أشد الناس بعدا عن أن تحدس ان ((موبيـــــل)) هذا ـ الذى لم تسمع به البتة ، من قبل ـ كان مسوقا للمثول أمام محكمة الثورة .. كما انها لم تفقه شيئا من الشكوك التى كانت موجهة اليها ، ولكنها كانت موقنة من أنها لم تقم على أساس. وهذا ما دعاها الى ان تكف عن المحاولة ، اذ رأت ان لا أمل لها فى تبديدها . فكفت عن انكار انها عرفت يوما شخصا يدعى «موبيل» ، وآثرت ان تدع الغيور يتقلى على نار زائفة ، ما دام أتفه حادث كان خليقا بأن يهديه الى الحقيقة ، بين لحظة وأخرى . أما صاحبها الذى كان كاتبا فى الماضى ، فقد صار فارسا وطنيا جميلا .. وقد خاصم ـ أخيرا ـ عشيقته الارستقراطيـــــة . وكان اذا قابل « ايلودى » فى الطريق ، رمقها بنظرة تكاد تقول : « هيا ياحسناء !.. أشعر حقا بأننى خليق بأن أغفر لك مابدر منى من خيانة ، وانى على استعداد لأن أرد اليك تقديرى ! »

ومن ثم فانها لم تبذل جهدا آخر لتشفى حبيبها مما أسمته « هواجس » .. فظل جاميلان مقتنعا بأن « جاك موبيل » هو الذى أغوى ايلودى !

***

وشغلت المحكمة فى الايام التالية ـ دون هوادة ـ بسحق دعاة الاتحاد (٧٦) ، الذين كانوا أشبه باخطبوط أوشك ان يبتلع الحرية .. كانت أياما حافلة ، فراح المحلفون ـ وقد هدهم التعب ـ يتعجلون الفراغ بأسرع ما فى وسعهم من قضية المراة « رولان » ، التى حرضت أو اشتركت فى جرائم

---

(٧٦) بدأت دعوة الاتحاد باقتحام الباستيل سنة ١٧٩٠ ، وكانت تهدف الي بقاء الملك ، مع تقييد سلطانه بنصوص الدستور .

عصبة اتباع « بريسو » .

وفى تلك الاثناء ، راح جاميلان يقضى الشطر الاول من كل نهار فى النيابة ، ليتعجل قضية « موبيل » . وكانت ثمة بيانات هامة فى (بوردو) ، فعمل على ايفاد مندوب ليأتى بها . وما لبثت أن وصلت . وقرأها وكيل النائب العام ، ثم ابتسم ساخرا ، وقال لايفاريست : « انها ليست ذات اهمية !.. ما من شىء فيها ! سفاسف !.. لو تأكد فقط ان هذا الكونت دى موبيل السابق قد هاجر !.. » ونجح جاميلان — أخيرا — فى مساعيه ، وتسلم الشاب موبيل قرار الاتهام ، ودعى للمثول أمام محكمة الثورة فى ١٩ برومير (٧٧) .

وبدأ رئيس المحكمة — منذ افتتاح الجلسة — بالمظهر العابس الرهيب الذى كان يعنى بالظهور به أثناء نظر القضايا الضعيفة الاسانيد . وراح وكيل المدعى يداعب اهداب ريشته ، وهو يصطنع هدوء الشخص النقى الضمير . وقرأ كاتب المحكمة قرار الاتهام ، فما استمع أحد الى قرار أكثر منه ركاكة . وسأل الرئيس المتهم عما اذا لم يكن على دراية بالقوانين التى صدرت ضد المهاجرين ، فأجاب موبيل : «لقد كنت على علم بها ، وراعيتها .. وقد غادرت فرنسا وأنا أحمل جوازا صحيحا » . أما أسباب رحلته الى انجلترا ، وعودته الى فرنسا ، فقد أوضحها بطريقة مرضية . وكان لوجهه وقع فى النفوس ، وعليه امارات الصراحة ، والاباء الذى يثير الاعجاب . فكانت نسوة المحكمة يرمقنه بنظرات العطف . وزعم الاتهام انه كان قد تردد على أسبانيا ، فى

---

(٧٧) برومير : الشهر الثانى فى تقويم الثورة . من ٢٣ اكتوبر الى ٢١ نوفمبر . ويلاحظ ان شهور التقويم لم تكن متلاحقة تماما ، بل كانت تفصل بعضها ايام لا حساب لها .

الوقت الذى كانت فيه هذه الدولة على حرب مع فرنسا .. فأكد انه لم يبرح (بايون) فى تلك الفترة . وبقيت هناك نقطة واحدة محوطة بالابهام . فعلى الاوراق التى كان قد ألقى بها فى مدفأته - عند القاء القبض عليه - والتى لم يتسن العثور على اكثر من قصاصات محترقة منها ، قرئت بعض كلمات بالاسبانية ، واسم « نييف » .

ورفض « جاك موبيل » ان يدلى بالايضاحات التى طلبت منه عن هذا الموضوع . فلما قال له رئيس المحكمة ان من مصلحته ان يدلى بالايضاح ، اجاب بانه ليس للمرء ان يحرص على مصلحته دائما . ولم يهتم جاميلان بأن يثبت على « موبيل » سوى جريمة واحدة .. فألح على الرئيس ثلاث مرات أن يسأل المتهم عما اذا كان بوسعه ان يفسر القرنفلة التى اعتز بها ايما اعتزاز ، فاحتفظ بأوراقها الجافة فى مفكرته . **وأجاب « موبيل » بانه لم يكن يرى نفسه مضطرا الى أن يجيب عن سؤال لم يكن يهم العدالة ، لا سيما أن احدا لم يجد رسالة مخبأة فى هذه الزهرة !**

وذهب المحلفون الى غرفة المداولة ، وهم يشعرون - مقدما - بالعطف على هذا الشاب ، الذى بدا لهم ان قضيته المبهمة كانت تخفى أسرارا غرامية . وفى هذه المرة ، كان الوطنيون المخلصون الصادقون راغبين فى أن يبرئوا ساحته . وقال احدهم ؛ وكان من الاشراف السابقين ، وقد أدى للثورة خدمات جليلة : « هل يؤاخذ على مولده ؟ .. انا أيضا ، كان من سوء حظى ان ولدت فى بيئة ارستقراطية ! » . فأجاب جاميلان : « أجل ، ولكنك خرجت عليها . أما هو ، فقد بقى ! »

وراح يتكلم فى حمية ضد هذا المتآمر ، رسول « بيت » ، وشريك « كوبورج » ، الذى اجتاز الجبال ، وعبر البحار ،

ليستثير الأعداء على الحرية . **وطالب باعدام الخائن فى تحمس أيقظ روح الشك الدائم ، وأهاج ثائرة القسوة القديمة لدى المحلفين الوطنيين ، فقال أحدهم فى نزق : «هناك خدمات لا سبيل الى رفضها بين الزملاء » !!**

وصدر حكم الاعدام بأغلبية صوت واحد .. واستمع المتهم الى قضائه بابتسامة هادئة . وعبرت نظراته ـ التى جال بها فى القاعة على غير هدى ـ عن احتقار صامت ؛ حين صادفت وجه « جاميلان » .. ولم يصفق للحكم أحد .

واذ أعيد « جاك موبيل » الى السجن المؤقت ، فى انتظار تنفيذ الحكم ـ الذى كان محددا له مساء اليوم ذاته ـ كتب على ضوء المشاغل رسالة ، جاء فيها :

« أختى العزيزة : أرسلتنى المحكمة الى المقصلة ، فمنحتنى بذلك الغبطة الوحيدة التى قدر لى أن استشعرها منذ موت معبودتى « نيبيف » .. لقد آخذونى بالشىء الوحيد الذى بقى لى منها .. بزهرة من زهور الرمان ، أسموها ـ ولا أدرى لماذا ـ قرنفلة !

« لقد كنت أحب الفنون فى الأزمان الهانئة ، فجمعت ـ فى باريس ـ من اللوحات والصور ، ما يوجد الآن فى مكان أمين ، وما سيسلم اليك عندما يتيسر ذلك . فأرجو ـ يا أختى العزيزة ـ ان تحتفظى بها ذكرى لى » .

وقص خصلة من الشعر أودعها الرسالة التى الصق اطرافها ، وكتب عليها :

« الى المواطنة كليمانس ديزيميرى (موبيل سابقا) ـ بلاريول »

واعطى السجان كل ماكان يحمل من نقود ، سائلا اياه ان

يبعث بالرسالة ، وطالبا زجاجة من النبيذ ، راح يرشفها على جرعات صغيرة ، فى انتظار مركبة الجلاد .

***

بعد العشاء ، هرع جاميلان الى « لامور بانتر » ، واندفع الى الغرفة الزرقاء التى كانت « ايلودى » تنتظره فيها كل مساء. وقال لها : «**لقد تم ثأرك ، ولم يعد لجاك موبيل وجود. لقد مرت المركبة — التى تحمله الى حتفه — تحت نوافذك ، تحف بها المشاعل** » ..

اذ ذاك فهمت ، فهتفت : « أيها التعس !.. لقد قتلته !.. انه لم يكن عشيقى ، ولا عرفته قط .. بل لم أره البتة .. اى رجل كان هذا ؟.. كان شابا وادعا ، لطيفا .. بريئا . ولقد قتلته انت ، ايها التعس ! التعس ! » . وسقطت مغشيا عليها . ولكنها فى ظلمات هذه الميتة الصغيرة — الاغماء — شعرت بنفسها فى طوفان من الذعر والنشوة ، فى آن واحد . **وأفاقت بعد نصف الساعة ، فكشف جفناها المتثاقلان عن بياض عينيها .. وانتفخ صدرها ، وراحت يداها تتحسسان، بحثا عن عشيقها . وضمته بين ذراعيها حتى أوشكت أن تخنقه ، وغرست أظافرها فى لحمه ، وأذاقته من شفتيها المتحرقتين قبلة ، كانت أطول القبلات وأكثرها صمتا ، وسكونا .. وأحفلها بالألم واللذة !**

كانت تحبه بكل بدنها . وكلما بدا لها رهيبا ، قاسيا ، جبارا .. وكلما رأته ملطخا بدماء ضحاياه ، ازدادت جوعا وظمأ اليه !

الفصل السابع عشر

• فى الساعة العاشرة من صباح الرابع والعشرين من « فريمير » **(٧٨)**، وتحت سماء صافية وردية اذابت ثلوج الليل، ذهب المواطنان « جينو » و « دياورميل » — موفدين من لجنة الأمن العام — الى كنيسة البرنابيين، واستدلا على مقر لجنة المراقبة للقطاع، فى قاعة مجمع الرهبان .. حيث كان المواطن « بوفيزاج » يغذى المدفأة بالوقود . بيد انهما لم يرياه — فى بادىء الأمر — لصغر حجمه وانكماش جسمه .

وبصوت مصدوع، دعا المواطن بوفيزاج المندوبين الى الجلوس، وتفرغ لخدمتهما . **فسأله « جينو » عما اذا كان**

---

(٧٨) فريمير : الشهر الثالث فى التقويم الثورى . من ٢٢ نوفمبر الى ٢٠ ديسمبر .

يعرف شخصا كان يحمل ـ فيما سبق ـ لقب «ديزيليت» ، ويقيم على مقربة من (بون نيف) . ثم أردف : «أنني موكل بالقبض على هذا الشخص» . وأبرز اليه الأمر الصادر من لجنة الأمن العام .

وراح بوفيزاج يبحث فى ذاكرته فترة ، ثم قال انه لم يكن يعرف شخصا يدعى «ديزيليت» ، وان الشخص المشتبه فى أمره ، قد لايكون من سكان قطاعه ، وان فى مشارف القطاع أجزاء من أحياء : المتحف (موزييم) ، والوحدة (اونيتيه) ، و (مارا .. ومارسيى) .. وان الشخص المقصود اذا كان يقيم فى القطاع ، فلابد انه يحمل اسما آخر غير ذلك الذى حمله أمر اللجنة ، وانه لن يلبث أن يظهر ، على أية حال . فقال جينو : «لاينبغى أن نضيع الوقت !.. لقد وشى به الينا خطاب من أحد شركائه تسنى العثور عليه واحضاره الى اللجنة منذ خمسة عشر يوما .. ولم يعلم الموطن «لاكروا» به الا بالأمس فقط . انناmغرقون بالبلاغات التى تنهال علينا من كل جانب ، بدرجة لايدرى المرء معها بأيها يعنى ويهتم !»

فقال بوفيزاج ، وهو منتفخ الاوداج : «ان البلاغات تنهال ايضا على لجنة المباحث فى القطاع .. **بعضها من اناس يكشفون عما لديهم بدافع من الشعور القومى ، وبعضها من اناس يتطوعون بمعلوماتهم طمعا فى ورقة مالية من فئة مائة «سول» .. وكثير من الاولاد يشون بآبائهم طمعا فى الميراث !»** . واجاب جينو قائلا : «هذا الخطاب صادر عن نبيلة سابقة تدعى «روشمور» ـ وهى امرأة لطيفة ، كان القوم يمارسون الميسر فى دارها ـ ويحمل على غلافه اسم مواطن يدعى «رولين» ، وان كان ـ فى الواقع ـ موجها الى مهاجر فى خدمة «بيت» . وقد احضرته معى لأطلعك فيه

على ما يخص ذلك المدعو « ديزيليت » . واخرج الخطاب من جيبه ، قائلا :

ـ انه يبدأ ببيان مستفيض عن اعضاء المؤتمر الذين يمكن اكتسابهم ـ وفقا لأقوال هذه المرأة ـ بعرض مبلغ من المال ، او بالوعد بمنصب رفيع فى حكومة جديدة اكثر استقرارا من هذه . ثم تأتى هذه الفقرة :

« **عدت لتوى من مسكن مسيو ديزيليت ، الذى يقيم فى مخزن تحت سطح بيت بالقرب من (بون نيف) ، لا يستطيع سوى قط أو شيطان أن يهتدى اليه . ولقد هبطت به الظروف الى ان يكسب عيشه من صنع الدمى و ((الاراجوزات))** . وهو رجل حصيف الرأى ، وهذا ما يدعونى يا سيدى ، الى ان انقل اليك ما هو ضرورى من حديثه . فهو لا يعتقد ان الاحوال ستبقى طويلا ، ولا يتوقع ان تكون نهايتها فى انتصار الحلفاء ، ويبدو ان الحوادث تؤيده ، اذ ان انباء الحرب سيئة منذ مدة ، كما تعلم يا سيدى .. وانما يرى ان النهاية ـ فى الغالب ـ تتمثل فى ثورة صغار القوم ونساء الشعب ، الذين لا يزالون يتشبثون بعقيدتهم الدينية . وفى رأيه ان الذعر العام الذى تحدثه محكمةالثورة ، سيوحد فرنسابأسرها ضد اليعاقبة . وقال متفكها : « هذه المحكمة التى تقضى على ملكة فرنسا وعلى موزعة خبز ، تشبه ذلك الوليم شكسبير الذى يمجده الانجليز كثيرا .. الخ » . وهو لا يرى من المستحيل ان يتزوج روبسبيير ارملة الملك ، ويعين نفسه حاميا للمملكة .

« اكون شاكرة يا سيدى ، اذا مكنتنى من المبالغالمستحقة لى ـ وقدرها الف جنيه استرلينى ـ بالطريقة التى تعودت استخدامها . ولكن حذار كل الحذر ان تكتب الى مسيو « مورهارت » ، فهو وشيك ان يعتقل ، وان يزج به فى

السجن .. الخ . الخ » .
وقال بوفيزاج : « السيد ديزيليت يصنع الدمى .. هذه قرينة ثمينة .. وان كان فى القطاع كثـــير من الصناعات الصغيرة التى من هذا النوع » . فقال ديلورميل : « هــذا يذكرنى بأننى وعدت ابنتى « ناتالى » – صغرى أولادى – بعروس تلعب بها ، فهى مريضة بالحمى القـــرمزية ؛ وقد ظهرت عليها الاعراض بالأمس . وليست هذه الحمى بالتى يخشى شرها ، ولكنها تتطلب عناية . ثم ان ناتالى تســـبق سنها بكثير ، فهى ذات ذكاء وقاد ، وصحة سريعة التأثر » .
وقال جينو : « اما انا ، فلم انجب الا ولدا . وهـــو يلعب بأطواق البراميل على البلاط ؛ ويصنع بالونات بالنفخ فى الاكياس الورقية » . فقال بوفيزاج : « كثيرا ما يجد الاطفال متعة فى اشياء لم تخلق للعب ، تفوق ما يجدونه فى اللعب . ان ابن اخى « اميل » – وهو غلام فى الســـابعة من عمره ، موفور الذكاء – يتلهى طيلة يومه بمربعات صـــغيرة من الخشب ، يشغل بتنسيقها .. تفضلا ! »
ومد الى المندوبين علبةسعوطه مفتوحة ، فقال ديلورميل – وكان ذا شاربين طويلين – وهو يحملق : ((**الآن يجب ان نمضي فى أثر طريدنا ، فانا اشعر – فى هذا الصباح – بشهية متفتحة الى التهام اعماء ارستقراطى ، منضحة بزجاجة من النبيذ الابيض**)) ! فاقترح « بوفيزاج » على المندوبين الذهاب الى زميله « ديبون » النجار ، فى حانوته بميدان ولى العهد ، فهو – ولابد – يعرف المدعو ديزيليت . فساروا فى الهـواء العليل ، يتبعهم اربعة من جنود القطاع .
وسأل ديلورميل رفيقيه : « هل شهدتما تمثيلية المحاكمة الاخيرة للملوك . انها مسرحية جديرة بالمشاهدة ، اذ اظهر المؤلف جميع ملوك اوربا ، وقد لاذوا باحدي الجزر المهجورة ،

عند قاعدة بركان التهمهم .. انها قصـــة وطنية » . ولمح ديلورميل ـ عند ركن من شارع (هارليه) ـ عربة صغيرة ، تتألق كأنها معبد صغير ، تدفعها عجوز ارتدت فوق شعرها قبعة من القماش المشمع . فتساءل : « ما الذى تبيعه هذه العجـوز ؟ » . وتولت العجـوز الاجـابة قائلة : « تأملوا يا سادتى ، واختاروا ما يروق لكم . فعندى مسـابح ، وصلبان ، وصـور للقديس انتـوان ، وقطع من اكفان القديسـين ، ومناديل من سـانت فيرونيك ، وتمائم وايقونات ، واقراط وخواتم تحمل صـور القديس هوبير وكافة مستلزمات العبادة » .

وصاح ديلورميل : ((هذا مستودع ذخيرة المتعصبين !)) .. وشرع فى اجراء تحقيق ابتدائى مع البائعة ، التى راحت تجيب عن كافة الاسئلة بقولها : ((اننى أبيع مسـتلزمات العبادة منذ اربعين سنة ، يابنى !)) . واذ لمح احد مندوبى لجنة الامن العام ، شخصا من ذوى الزى الازرق (الحرس الاهلى) مارا ، اومأ اليه كى يقود العجـوز المذهـولة الى سجن النيابة . واشار المواطن « بوفيزاج » الى انه كان من واجب لجنة الرقابة ان تعتقل هذه البائعة وتقـدمها الى محكمة القطاع ، وانه لم يعد فى الوسـع ـ فى تلك الايام ـ معرفة المسلك الذى يحسن اتخاذه نحو الدين القـديم ، اتباعا لآراء الحكومة ، وان الواجب ان يبـاح كل شىء ، او يحرم كل شىء .

***

واذ اقترب المندوبان والموكل بلجنة المراقبة فى القطاع من حانوت النجار ، سمعوا صيحات مهتاجة مختلطة بصـوت المنشار وحفيف المساحيج (الفارات) . كان الشجار قد دب

بين النجار المسن وجاره البواب « ريماكل » ، بسبب المواطنة « ريماكل » التى كانت تدفعها – باستمرار – الى جوف حانوت النجارة رغبة لا سبيل لمقاومتها ، ثم تعود الى مسكنها وقد غمرتها نشارة الخشب وذراته . واذ بلغ الغيظ بالبواب – الجريح الكرامة – مبلغه ، ركل «موتون» ، كلب النجار ، فى اللحظة التى كانت ابنته « جوزفين » الصغيرة ، تحتضن الكلب بحنان . واستنكرت جوزفين هذا ، فأنحت على ابيها بالسباب ، بينما صاح النجار بانفعال : « ايها التعس !.. اننى امنعك من ان تضرب كلبى » . فرد البواب ، وهو يرفع مكنسته : « وانا امنعك من ان .. » . ولم يتم عبارته ، فان مسحاج النجار الكبير مرق بجوار راسه ، ومسه مسا خفيفا .

وما ان رأى المواطن بوفيزاج – يصحبه المندوبان – حتى هرع اليه قائلا : « انك شاهد – ايها المواطن القوميسير – على ان هذا النذل كاد يقتلنى ! » . وبسط المواطن بوفيزاج ذراعيه مهدئا ، وعلى راسه القلنسوة الحمراء التى تنم عن وظائفه ، وخاطب البواب والنجار قائلا : « مائة سول لمن يرشدنا منكما الى مكان رجل مشتبه فى امره ، تبحث عنه لجنة الامن العام .. انه النبيل السابق ديزيليت ؛ صانع الدمى » . فأشار البواب والنجار معا الى مسكن «بروتو» ، وقد كفا عن النزاع فى سبيل المائة سول الموعودة .

وصعد ديلورميل وجينو وبوفيزاج – يتبعهم الجنود الاربعة ، والبواب ريماكل ، والنجار ديبون ، واثنا عشر صغيرا من ابناء الحى – الدرجات التى راحت تهتز تحت اقدامهم ، ثم تسلقوا السلم المتنقل .. وكان بروتو فى مسكنه يقص الدمى ، بينما كان الاب لونجمار يقف امامه ، منهمكا فى ربط اوصالها بالخيط ، وهو يبتسم اذ يرى حركاتها

المنسجمة المتناسقة تحت اصابعه !

وارتجفت اوصال رجل الدين ، لدى الاصوات التى ترددت على السلم .. لا لأنه كان أقل شجاعة من «بروتو» الذى لم تهتز له جارحة ، وانما لأن الحياء البشرى لم يعوده كيف يخفى ما به .. وادرك بروتو – من اسئلة المواطن ديلورميل – مبعث الضربة .. ولاحظ ، بعد فوات الاوان ، ان من الخطأ ان يثق المرء بالنساء . واذ طلب منه ان يتبع « القوميسير » ، أخذ معه ديوان « لوكريس » واقمصته الثلاثة . وقال مشيرا الى الاب لونجمار : « هذا المواطن مساعد اتخذته لصنع الدمى . وهو يقيم هنا » . ولكن رجل الدين عجز عن ان يبرز بطاقته المدنية ، فاعتقل مع بروتو .

وعندما مر الموكب امام مسكن البواب ، اتكات المواطنة « ريماكل » على مكنستها ، وراحت تنظر الى الساكن نظرة الفضيلة اذ ترى الجريمة بين يدى القانون . وجذبت « جوزفين » الجميلة – فى استنكار – كلبها « موتون » من طوقه ، اذ اراد ان يتمسح فى صديقه الذى اعتاد ان يعطيه السكر . وغص ميدان (تيونفيل) بحشد من الفضوليين . والتقى بروتو – عند آخر درجات السلم – بفتاة فلاحة كانت على وشك ارتقاء السلم . وكانت تحمل فى ذراعها سلة مليئة بالبيض ، وقد امسكت فى يدها فطيرة ملتفة فى قطعة قماش .. تلك كانت « اثينائيس » ، وقد جاءت من (باليسو) لتقدم الى منقذها شاهدا على عرفانها بفضله . فما ان لمحت المندوبين والجنود الاربعة يحيطون بـ « مسيو

موريس » ، حتى ذهلت وتساءلت عما اذا كان الامر حقيقة . واقتربت من «القوميسير» وقالت له فى لطف : « ما احسبكم ستأخذوه !.. ليس هذا ممكنا .. انكم لا تعرفونه ! انه فى طيبة الله ذاته ! »

فدفعها المواطن ديلورميل ، واومأ الى الجنود بالمضى . واذذاك تقيأت « اثينائيس » اقذر السباب . وافحش الشتائم ، على المندوبين والجنود ، الذين خيل اليهم ان كافة اقذار (باليه رويال) وشارع (فرومنتو) قد صبت على رؤوسهم . ثم صاحت بصوت ملأ ميدان (تيونفيل) بأسره ، واثار رعدة فى حشد الفضوليين : « ليحى الملك ! ليحى الملك ! »

الفصل الثامن عشر

• كانت المواطنة « جاميلان » تحب الشيخ « بروتو » وتراه — بوجه عام — اطيب الرجال الذين اتصلت بهم ، واجدرهم بالاعتبار . ولم تودعه حين اعتقلوه ؛ فقد خشيت ان تستعدى السلطات ، وكانت — فى ظروفها المتواضعة — ترى الجبن واجبا . **ولكنها تلقت — باعتقاله — ضربة لم تفق من اثارها . فاصبحت تعاف الأكل وتشكو من انها فقدت شهوتها اليه ، فى اللحظة التى اصبحت تجسد فيها الكفاية منه .** ولقد ظلت معجبة بابنها ، بيد انها لم تعد تجسر على التفكير فى الواجبات المضنية التى كان يضطلع بها ، وتغبط نفسها على انها كانت مجرد امراة جاهلة ، لا تملك ان تحكم على اعماله .

وعثرت الأم المسكينة على مسبحة فى قاع صندوق ، ولم تكن تعرف كيف تستعملها ، الا انها راحت تعبث بحباتها بأصابع مرتجفة . وصارت متدينة ، بعد ان عاشت حتى شيخوختها دون ان تؤدى فرائض دينها ، فأخذت تصلى لله — بجوار المدفأة — سحابة نهارها ، من اجل طمأنينة ابنها وسلامة ذلك السيد الطيب بروتو . وكثيرا ما كانت «ايلودى» تأتى لزيارتها ، فلم تكونا تجسران على تبادل النظرات ، وانما كانت كل منهما تتحدث — من آن الى آخر — عن امور ليست ذات بال .

وفى يوم من أيام شهر « بلوفيوز » (٧٩)، والثلج يتساقط كسفا ثقيلة تحجب السماء وتخمد كافة ضوضاء المدينة ؛ سمعت المواطنة « جاميلان » — وقد كانت وحيدة فى المسكن — طرقات على الباب . وارتجفت ، فان اتفه حركة أصبحت — منذ شهور — تبعث رعدة فى كيانها . وفتحت الباب ، فاذا شاب فى الثامنة عشرة من عمره ، او العشرين، يدخل وقبعته فوق رأسه . وكان فى سترة خضراء زيتونية ، تغطى دفتاها الصدر والخصر ، وقد ارتدى حذاءين على النسق الانجليزى ، وانسدل شعره الكستنائى مجعدا على منكبيه ، وتقدم الى وسط المرسم ، وكأنما كان يريد ان يتعرض لكل ما كان ينساب خلال زجاج النافذة من ضوء متسلل خلال الثلوج . ومكث لحظات ساكنا ، ساكتا . وأخيرا ، قال اذ ظلت المواطنة جاميلان ترقبه متوجسة : ((الا تعرفين ابنتك ؟)) .. فضمت العجوز يديها ، وهتفت : ((جولى !.. اهذه انت ؟.. اهذا ممكن يا الهى ؟))

— ولم لا ؟.. هذه انا !.. قبلينى يا اماه !

---

(٧٩) بلوفيوز : الشهر الخامس فى التقويم الثورى . من ٢٠ او ٢١ او ٢٢ يناير الى ١٩ او ٢٠ او ٢١ فبراير .

فضمت المواطنة ارملة جاميلان ابنتها ، وذرفت دمعة على ياقة سترتها ، ثم هتفت فى لهجة نمت عن قلق : « هل جئت الى باريس ؟ »

ـ آه !.. ليتنى جئت وحدى يا اماه .. فان احدا ان يعرفنى فى هذا اللباس .

والواقع ان زيها كان يخفى حقيقتها ، فلم تكن تختلف ـ فى مظهرها ـ عن كثير من الفتيان ، الذين كانوا يرسلون شعورهم مثلها ؛ ويفرقونها فى قمة الراس الى الجانبين . وكانت قسمات وجهها دقيقة وفاتنة ، ولكن الشمس كانت قد لفحتها ، والاجهاد اثقلها ، والهموم اضنتها ، فطفت عليها مسحة من الفتوة والرجولة . **وكانت نحيلة القوام ، ذات ساقين طويلتين ومستقيمتين ، وحركات طليقة .. فلم يكن ثمة ما يحتمل ان يشى بجنسها سوى صوتها .**

وسألتها امها عما اذا كانت جائعة ، فأجابت مرحبة بالاكل ، حتى اذا قدم اليها خبز ونبيذ ولحم ، اقبلت على الاكل ، معتمدة بمرفقها الى المائدة .. حسناء ، شرهة ، مثل « سيريس » فى كوخ العجوز « بوبو » **(٨٠)** . وما لبثت ان قالت ، والقدح على شفتيها : « اتعرفين متى يعود اخى يا اماه ؟.. اننى اود ان اتحدث اليه » . فتطلعت الام الطيبة الى ابنتها فى حرج ، ولم تجب .

ـ لابد لى من ان اراه . لقد اعتقل زوجى صباح اليوم ، واقتيد الى سجن (لوكسمبورج) !

ولقد خلعت لقب « الزوج » على « فورتونيه دى شاسانى » ، النبيل السابق ، الذى كان ضابطا فى لواء (بوييه) . وكان قد احبها عندما كانت تعمل فى متجر للازياء بشارع (ديه لومبارد) ، فاختطفها من اهلها ، رحملها الى

---

(٨٠) التشبيه ماخوذ عن احدى الاساطير .

انجلترا ، حيث هاجر فى اعقاب حوادث ١٠ اغسطس . وكان عشيقها ، ولكنها وجدت من الاليق — امام امها — ان تدعوه زوجها ؛ قائلة لنفسها ان المحن قد ربطت بينهما بأكثر من روابط الزواج ، وان الشقاء كان ميثاقا متينا . فكم من مرة قضيا الليل على مقعد طويل فى متنزهات لندن ، وجمعا الفتات من على موائد الحانات فى (بيكاديلى) .

ولم تحر أمها جوابا ، بل راحت ترمقها بعين حزينة .

— ألست تسمعينني يا أماه ؟ .. ان الوقت ضيق ، ولابد من ان ارى « ايفاريست » فورا ، فهو الوحيد الذى يستطيع انقاذ « فورتونيه » .

فأجابت الام : « يحسن ان لا تتحدثى الى اخيك يا جولى » . فتساءلت : « كيف ؟ .. ماذا تقولين يا اماه ؟ »

— اقول : يحسن بك ان لا تتحدثى الى اخيك عن السيد دى شاسانى .

— بل لابد من هذا .. وبسرعة !

— ان ايفاريست يا طفلتى ، لا يغفر أبدا للسيد دى شاسانى انه اختطفك . وانك لتعلمين بأى غضب يتحدث عنه ، وأية اسماء ينعته بها !

فقالت جولى ، وهى تطلق ضحكة قصيرة خافتة ، وتهز كتفيها : « اجل .. كان يسميه فاسقا ! » . فأردفت الام : « لقد اصيبت كرامته بجرح لا يندمل ، يا صغيرتى . لقد آلى ايفاريست على نفسه ان لا يتحدث عن السيد دى شاسانى . وها قد انقضى عامان لم يلفظ فيهما كلمة واحدة عنه أو عنك . بيد ان مشاعره لم تتحول ، كما تعلمين . فهو لا يصفح عنك قط » .

— ولكن يا أماه .. ما دام فورتونيه قد تزوجنى .. فى لندن .

فرفعت الام عينيها وذراعيها ، وقالت : ((**يكفى ان يكون فورتونيه من الطبقة الارستقراطية ، ومن المهاجرين ، لكى يعتبره ايفاريست عدوا)) .**

ــ اجيبينى يا اماه .. هل تظنين انه لا يقبل ، اذا انا سألته ان يقوم بالمساعى اللازمة لدى المدعى العام ولجنة الامن العام ، لانقاذ فورتونيه ؟.. انه يكون طاغية ظالما ، اذا رفض !

ــ ان اخاك يا بنيتى رجل أمين ، وابن بار. ولكن لاتساليه .. اواه ، لا تطالبيه بأن يهتم بالسيد شاساني .. استمعى لنصحى يا جولى !.. انه لا يفضى الى بأفكاره ، وما كنت بالقادرة على فهمها ، بلا شك .. ولكنه قاض ، وله مبادىء ، ويعمل بايحاء ضميره . فلا تطلبى منه شيئا . يا جولى .

ــ **ارى انك الآن تعرفينه** . تعرفين انه بارد ، عديم الاحساس .. انه شرير ، وانه لم يؤت سوى الطموح والغرور .. وكنت دائما تفضلينه على . فكنت تحثيننى على ان اتخذه مثالا ، عندما كنا نقيم ثلاثتنا معا . لقد استولى عليك بمسلكه الرزين وقوله الرصين ، فاعتدت ان ترى فيه كل الفضائل . **اما انا ، فكنت دائما غير راضية عنى ، تعزين الى كل الرذائل ، لانى كنت منطلقة ، وكنت اتسلق الاشجار . الا ابدا لم تكونى تحتملينني ، ولم تكونى تحبين سواه . اسمعى ! اننى اكره ايفاريستك .. هذا المنافق !**

ــ حسبك يا جولى !.. لقد كنت اما رؤوما لك ، كما انا له . ولقد جعلتك تتعلمين مهنة ، وليس ذنبى انك لم تظلى فتاة شريفة ، وانك لم تتزوجى من وسطك . لقد احببتك بحنان ، ولا ازال احبك . اننى اصفح عنك واحبك . ولكن ، لا تذكرى ايفاريست بسوء ، فهو ابن صالح ، وقد عنى بى دائما . ما الذى كان يحيق بى بدونه ، عندما هجرتنى

يا بنيتي .. عندما هجرت مهنتك ، ومتجرك ، لكى تعيشى مع السيد دى شاسانى !.. كنت خليقة بأن اموت بؤسا وجوعا.

— لا تقولى هذا يا أماه ، فأنت تعرفين تماما اننا كنا على استعداد لان نحوطك برعايتنا — انا وفورتونيه — لو لم تنقلبى علينا ، بتحريض ايفاريست . لا تثيرينى !.. انه يعجز عن اى عمل طيب . وما تكلف العناية بك ، الا ليبغضك فى . اهو يحبك ؟.. بل اهو قادر على ان يحب احدا ؟.. انه لم يؤت قلبا ، ولا عقلا .. ليست له موهبــة واحدة . لا بد له من سجية أرق من سجيته ، كى يكون رساما !

***

ومرت نظراتها باللوحات الموجودة فى المرسم ، فألفتها كما تركتها . وعادت تقول : « هاك روحه ، قد ســكبها على اللوحات .. باردة ، معتمة . تأملى أوريست .. «أوريسته» بعينيه البليدتين ، وفمه البشع ، يبدو كأنه على « خازوق » .. انه يشبهه تماما . اذن ، فأنت لا تفهمين شيئا يا أماه ، بعد كل هذا ؟.. ليس بوسعى أن أترك « فورتونيـه » فى السجن . انك تعرفينهم ، من يعاقبة ووطنيين .. كلهم على شاكلة ايفاريست . لسوف يقتلونه . لست اريدهم أن يقتلوه ويحرمونى منــه يا أماه .. يا أمى العزيزة ، يا أمى الحبيبة !.. اننى احبه ! أحبه !.. لكم كان طيبا معى ، وما كان أشد ما لقيناه معا من سوء حظ !.. الا انظرى هــذا الزى ، انها احدى حلله . لم يعد لدى قميص . ولقد أعارنى صديق لفورتونيه صديرية .. وعملت ســاقية لدى بائع لشراب الليمون ، بينما اشتغل هو لدى حلاق . وكنا نعرف أن فى العودة الى فرنسا تعريضا لحياتنا ، ولكنا سؤلنا عما اذا كنا راغبين فى الحضور الى باريس ، للقيام بأمر هام ..

ووافقنا ، فقد كنا على استعداد لأن نذهب الى الشيطان ذاته . ودفعت لنا نفقات السفر ، وأعطينا خطاب اعتماد الى مصرفى فى باريس . ولكنا وجدنا مصرفه مغلقا ، وهو فى السجن ، يوشك أن يساق الى المقصلة . ولم يكن معنا درهم واحد . ووجدنا جميع الذين أبيح لنا الاتصال بهم اما قد لاذوا بالفرار ، أو غيبوا فى السجون . ولم يكن هناك باب واحد نطرقه .. وكنا ننام فى حظيرة للخيل ، بشارع (لاقام سان تيت) . وكان يقاسمنا التبن ماسح أحذية كريم ، أعار حبيبى أحد صناديقه ، وفرجونا ، وعلبة طلاء خلا ثلاثة ارباعها . وظل فورتونيه يكسب عيشى وعيشه – خمسة عشر يوما – بتنظيف الاحذية فى ميدان (جريف) . ثم حدث – يوم الاثنين – ان وضع أحد أعضاء الجمعية العامة قدمه على الصندوق ، وطلب اليه ان ينظف حذاءه . وكان قصابا – فيما مضى – ركله فورتونيه يوما فى عجزه لأنه باعه لحما انقص وزنه . فلما رفع فورتونيه راسه ليطلب اجره ، عرفه الوغد ، فوصفه بانه ارستقراطى ، وهدده بالاعتقال . وتجمع الناس ، وكانوا يتالفون من بعض السذج ، وبعض الفاجرين الذين راحوا يتصايحون : « الموت للمهاجر ! » ، واستدعوا الشرطة . وفى تلك اللحظة ، كنت احمل الحساء لفورتونيه ، فرأيته يساق الى القطاع ، ويحبس فى كنيسة « سان جان » . وأردت أن أقبله فردونى عنه . وقضيت الليلة فى درب بجوار الكنيسة كالكلبة .. وفى هذا الصباح ، ساقوه .. »

ولم تتم عبارتها ، اذ خنقتها العبرات . فرمت بقبعتها على الأرض ، وركعت عند قدمى أمها ، وهى تقول : « ساقوه – هذا الصباح – الى سجن اللوكسمبورج ، يا أماه !.. ساعدينى يا أمى على انقاذه ، واشفقى على ابنتك ! » ..

وفكت أزرار سترتها – وهى مغرقة فى دمعها – لتظهر أمها

على حبها فى أجلى صورة ، وكشفت عن صدرها ، وتناولت يدى أمها ، فضغطتهما الى ثدييهـــا النافرين . فشهقت الارملة جاميـــلان ، قائلة : « يا ابنتى العزيزة !.. جولى ، يا بنيتى جولى ! » . والصقت وجهها المندى بالدموع ، بوجه ابنتها الشابة . ولزمتا الصمت برهة.. وراحت الام البائسة تنقب فى ذهنها عن وسيلة لمساعدة ابنتها ، بينما كانت جولى تتـــأمل النظرة المنبعثـــة من هاتين العينين المغرورقتين بالدموع .

ومضت أم ايفاريست تفكر : « ربما .. لعلى اذا حدثته ، حملته على أن يفكر . انه طيب ، وحنـــون . وما لم تكن السياسة قد قست فؤاده ، وما لم يكن قد انصاع لنفـــوذ اليعاقبة ، فلن تكون لديه هذه المبادىء العنيفة التى تروعنى ، لأننى لا أفهمهـــا ! » . واحتوت رأس جولى بين راحتيها ، وقالت :

– اسمعى يابنيتى .. سأكلم ايفاريست . سـأعده لكى يراك ويستمع اليك .. وانا أعرف ان زيك هذا سيذهله ، فهو متزمت فى كل ما يمس الاخلاق والحشمة . انـــا نفسى أصبت ببعض الدهشة ، اذ رأيت ابنتى جولى فى ثوب فتى !

– اواه يا امى !.. ان المهاجرة والقلاقل المرعبة فى المملكة قد جعلت هذا التنكر شائعا . فالناس يلجأون اليه لممارسة مهنة ، او ليتفادوا ان يعرفهم احد ، او لتطابق مظاهـــرهم جواز سفر مزور ، او شهادة ملفقة . لقد رأيت « جيرى » الشاب – فى لندن – فى ثياب فتاة ، ولكم كان له مظهـــر شابة باهرة الجمال .. وانك لتقرين يا اماه ، بأن تنكره هذا يفوق تنكرى استهجانا .

– ليست بك حاجة يا صغيرتى المسكينة ، الى ان تبررى

امامى هذا الامر ، ولا سواه . فأنا امك ، ولقد كنت لدى بريئة دائما . سأتحدث الى ايفاريست . سأقول له ..

وامسكت ، فقد كانت تشعر بحقيقة ابنها . كانت تشعر بها ، ولكنها لم تشأ ان تصدق شعورها ، ولا ان تعترف به . فقالت : « انه طيب . لسوف يفعل من اجلى .. من اجلك ، كل ما اطلبه منه ! » .. ولاذت المرأتان بالصمت ، وقد اضناهما الاعياء . واغفت جولى وراسها على الركبتين اللتين طالما توسدهما فى الطفولة ، بينما كانت الام تبكى فى لوعة ـ ومسبحتها فى يدها ـ خشية الهموم التى كانت تحس بها مقبلة فى صمت .. فى ذلك اليوم الساكن ، الملتف بالثلوج ، والذى همدت فيه أصوات الخطى ، والعجلات ، والسماء !

***

وفجأة ، وبارهاف سمع شحذه القلق ، التقطت اذنا الام خطوات ابنها على درجات السلم ، فصاحت : « ايفاريست !.. اختبئى ! » . ودفعت ابنتها الى غرفتها .

وقال ايفاريست : « كيف انت اليوم ، يا امى الطيبة ؟ » . وعلق قبعته الى المشجب ، واستبدل بحلته الزرقاء قميص العمل ، وجلس الى حامل اللوحات . كان منذ ايام يرسم بالفحم لوحة لربة « النصر » وهى تضع اكليلا على جبين جندى استشهد من اجل الوطن . وكان قد اقبل على هذا الموضوع متحمسا ، ولكن محكمة الثورة استنفدت سحابات النهار من ايامه ، واستولت على كل كيانه ، فأصبحت يده ـ المدربة على الرسم ـ ثقيلة متراخية .. وراح يقمغم مغنيا بنشيد : « ليكن ! » . فقالت المواطنة جاميلان : « اتغنى يابنى ؟.. لابد ان قلبك مبتهج ! »

– جدير بنا ان نبتهج يا اماه ، فهناك اخبار طيبة . لقد انكسرت (فانديه) ، وهزم النمسويون ، واجتاح جيش الرين خطوط لوتيرن ويسيمبورج . **لقد اقترب اليوم الذى تبدى فيه الجمهورية المظفرة رحمتها . فلماذا تزداد جرأة المتآمرين بازدياد قوة الجمهورية ، ويبيت الخونة ليضربوا الوطن فى الظلام وهو يمحق الاعداء الذين يهاجمونه جهارا ؟!**

وكانت المواطنة جاميلان ترمق ابنها من فوق عوينتى منظارها ، وهى ترتق جوربا ، وقالت : « لقد اتى برزيليوس – نموذجك القديم – يطالب بعشرة ليبرات عليك له . ولقد اصيبت جوزفين الصغيرة بمغص لاسرافها فى اكل المربى التى اعطاها اياها النجار ، وقد اعطيتها شرابا شافيا .. وجاء « ديماهى » ليقابلك ، وقد أسف لأنه لم يجدك . فهو يرغب فى ان يحفر شيئا من رسمك ، ويراك نابغة . لقد تأمل هذا الفتى النبيل صورك واعجب بها » . فقال الرسام : « عندما يستتب السلام ، وتخمد المؤامرة ، سأعود الى « أوريست » .. اننى لم اعتد ان اداهن نفسى ، ولكن الرأس الذى رسمته جدير بأن يكون من ريشة دافيد » .

ورسم خطا بديعا لذراع ربة النصر ، وهو يقول : « انها تمسك سعف النخل ، والأجمل من هذا ان تكون الذراع ذاتها من السعف ! » . وما لبثت امه ان هتفت : « ايفاريست ! » ، فأجابها : « نعم يا أماه ؟ »

– تلقيت انباء .. احدس ، ممن هى ..

– لست ادرى .

– من جولى .. اختك . انها ليست سعيدة .

– لتكونن فضيحة ان هى سعدت .

– لا تتكلم هكذا ، يابنى . انها اختك . ان جولى ليست

سيئة ، بل ان لها مشاعر طيبة ، غذاها الشـــقاء . انها تحبك . وبوسعى ان أؤكد لك يا ايفاريست انها تصبو الى حياة العمل والاستقامة ، ولا تفكر الا فى الاتصـال بأهلها . ولا شىء يمنع من أن تراها .. لقد تزوجت من فورتونيـه شاسانى .

ـ هل كتبت اليك ؟

ـ كلا .

ـ فكيف تسنت لك انباؤها يا امى ؟

ـ لم تأت فى رسالة يابنى ، وانما ..

ونهض ، فقطع عليها القــول ، بصوت رهيب : « صه **يا اماه !.. لا تقولى انهما عادا معا الى فرنســا .. اذا لم يكن من موتهما بد ، فلا أقل من أن يكون هذا بيد سواى . من اجلهما ، ومن اجلك ، ومن اجـل نفسى اتركينى جاهلا بانهما فى باريس .. لا تضطرينى الى ان اعلم ، والا ..! »**

ـ ماذا تبغى ان تقول يا بنى ؟.. اتريد .. اتجرؤ ..؟

ـ اصغى الى يا اماه . لو عرفت ان اختى جولى فى هذه الحجرة .. (وأشار بأصبعه الى باب مخـدعها) **لوشيت بها لفورى لدى لجنة المراقبة فى القطاع !**

وشحب وجه الام المسكينة ، وافلتت يداها المرتجفتـان ما كانت ترتق ، وهتفت بصوت أوهن من أخفت همسـة : « لا اريد ان اصــدق هذا ، ولكنى اراه بجلاء .. انه وحش ! »

وفر ايفاريست من المسكن ووجهه يضارع وجهها شحوبا . وقد تجمع الزبد على شفتيه ، فانطلق مهرعا ينشد ايلودى ، والنسيان ، والنوم .. الباكورة الشهية للفناء !

الفصل التاسع عشر

• **بينما** كان التحقيق يجرى مع الآب بوجمار والفتاة اثينائيس فى القطاع ، سيق بروتو – بين اثنين من الشرطة – الى (اللوكسمبورج) ، حيث ابى البواب ان يتسلمه ، متعللا بأن لا مكان لديه . فنقل الكهل المنصاع – بعد ذلك – الى سجن (الكونسيرجى) ، واقتيد الى حجرة كاتب السجن ، وكانت صغيرة شطرت بحاجز زجاجى . وبينما كان المسجل يثبت اسمه فى السجلات ، لمح « بروتو » خلال الزجاج رجلين فى سكون الموت ، وقد رقد كل منهما على حشية مزرية ، وجمدت عيناه فكأنه لا يبصر شيئا .. وتناثرت على الارض حولهما صحاف وزجاجات وبقايا خبز ولحم . **كانا ممن قضى عليهما بالموت ، وقد أعدا فى انتظار المركبة التى تقلهما الى المقصلة !**

واقتيد سيد «ليزيليت» السابق الى غرفة ضيقة معتمة ، تبين فيها – على ضوء مصباح – شخصين مستلقيين ، احدهما فظ ، مشوه السحنة ، قميء .. والآخر كريم لطيف . وقدم له هذان السجينان بعضا من القش القذر ، المليء بالحشرات ، لكى لا ينام على الارض التى كانت متسخة بافرازات المعدة وفضلاتها . وارتمى « بروتو » على مقعد فى الظلام المنتن ، واسند راسه الى الحائط ، وظل صامتا ، لا يحير حراكا . كان ألمه من القسوة بحيث انه كان قمينا بأن يضرب براسه الحائط فيشجه ، لو انه اوتى المقدرة .. ولكنه لم يكن يملك ، حتى ان يتنفس . وغامت عيناه ، وملأ اذنيه صخب طويل ، هادىء ، كأنه السكون نفسه . وشعر بنفسه يغيب فى اغماءة عذبة . ولثانية واحدة – لا مثيل لها – بدا له كل شىء فى انسجام ، وصفاء علوى ، وعطر ولطف . ثم غاب عن الوجود تماما .

وعندما افاق ، كانت اول فكرة اعترضت ذهنه ، هي الأسف على اغماءته .. **واذ ظل فيلسوفا ، حتى فى غمرة القنوط ، فقد فكر فى انه لم يكن ثمة بد من ان يهبط الى قاع حفرة فى انتظار المقصلة ، حتى يدرك ابدع لذة معربدة تذوقتها احاسيسه يوما !..** وحاول ان يفقد الشعور مرة اخرى ، ولكن دون أن يفلح .. بل انه – على النقيض – بدأ يشعر شيئا فشيئا بهواء « الزنزانة » الموبوء يسرى الى رئتيه ، مع حرارة الحياة ، ومع ادراك محنته التى لا تحتمل !

وفى تلك الاثناء ، كان زميلاه يشعران بأن صمته اهانة لا تغتفر . وحاول « بروتو » – الذى كان حلو المعشر – ان يرضى فضولهما ، **ولكنهما لم يكادا يعلمان انه كان ممن يسمون « سياسيين »** ، **وانه كان ممن ينحصر جرمهم فى**

القول او الفكر ، حتى أمسكا عنه الاحترام والعطف . كانت الاعمال المعزوة الى هذين السجينين أشد ، فكان اكبرهما سنا قاتلا ، والآخر مزيفا للاوراق النقدية . ولقد راضا نفسيهما على حالهما ، بل اصبحا يجدان فيها بعض الرضى .
وشرع بروتو يفكر - فجأة - فى ان فوق رأسه كان ثمة عالم زاخر بالحركة ، والضجيج ، والضوء ، والحياة .. وان تاجرات سوق « الباليه » المليحات كن يبتسمن خلف نوافذ متاجر العطور والخردوات ، للمارة السعداء ، الاحرار ، فضاعفت هذه الفكرة من أساه .
وأقبل الليل ، غير ملحوظ فى ظلام « الزنزانة » وسكونها ، ولكنه - مع ذلك - كان ثقيلا ، مفجعا . واغفى بروتو ، وقد مد احدى ساقيه على المقعد الخشبى الطويل ، واسند ظهره الى الجدار . وما لبث ان تمثل نفسه جالسا تحت شجرة زان وارفة ، تصدح فيها الطيور ، والشمس الجانحة للمغيب تكسو النهر بلهب سائل ، وتصبغ السحب بالارجوان . واكتهل الليل ؛ فتملكته حمى عنيفة ، فراح يشرب بنهم - حتى افرغ جرته - ماء ضاعف من غثيانه .
وفى اليوم التالى ، وعد السجان - الذى احضر الحساء - بروتو بأن ينقله الى « البيستول » - حيث يقيم المسجونون الذين يدفعون من اجل راحتهم - بمجرد ان يخلو مكان ، وهو أمر ما كان انتظاره ليطول . وفعلا ، دعاه - فى اليوم بعد التالى - الى الخروج من « زنزانته » . وشعر «بروتو» بأن كل خطوة فى صعوده كانت تبث فيه القوة والحياة .. وعندما رأى - على البلاط الاحمر فى احدى الغرف - سريرا من الخيش ، مغطى بغطاء زرى من الصوف ، بكى فرحا . ولم يلح له السرير المذهب ، الموشى ، الذى اعده - فى الماضى - لأجمل راقصة فى الاوبرا ، أحب ولا اشهى من

هذا السرير !

ولقد كان هذا السرير المكسو بالخيش ، يقوم فى قاعة كبيرة ، نظيفة الى حد لا بأس به ، ضمت سبعة عشر سريرا آخر ، تفصل بين الواحد والآخر حواجز خشبية عالية . وكان الفريق الذى يقيم فيها ، يتألف من نبلاء سابقين ، وتجار ، ومصرفيين ، وصناع . جماعة لم تكن صحبتها لتسوء ملتزم الضرائب الشيخ ، الذى راض نفسه على معاشرة كل انواع الناس . وقد لاحظ ان الرجال المحرومين مثله من كافة أسباب السرور ، والمعرضين للهلاك على يدى الجلادين . كانوا يبدون مرحا ، وميلا مفرطا الى الفكاهة . واذ لم ير فيهم ما يدعو الى الاعجاب ، فانه عزا طرب رفاقه الى خفة عقولهم التى كانت تحول بينهم وبين ان يتبينوا موقفهم حق التبين . وازداد اطمئنانا الى هذا الرأى ، حين لاحظ ان اكثرهم ذكاء كانوا اعمقهم اسى . **وما لبث ان فطن الى ان اكثرهم كانوا يستمدون من ((الكونياك)) والنبيذ مرحا يتصف – فى أصله – بالعنف ، واحيانا بشىء من الجنون . وما كانت لديهم جميعا اية شجاعة ، ولكنهم جميعا كانوا يتظاهرون بها** . ولم يدهش « بروتو » ، فقد كان يعلم ان الرجال درجوا على ان يعترفوا بالقسوة والغضب ، بل والبخل ، طواعية .. ولكنهم ابدا ما كانوا يعترفون بالجبن ؛ لأن هذا الاعتراف كان يضعهم – بين الهمج وفى المجتمع المهذب على السواء – فى خطر مميت . وحدث نفسه بأن هذا كان السبب فى ان جميع الشعوب كانت شعوب ابطال ، وان جميع الجيوش كانت تتألف من بواسل .

وكانت ضوضاء الاسلحة والمفاتيح ، وصريف الاقفال ، ونداء الحراس ، ووقع اقدام المواطنين عند باب المحكمة ، اقوى من النبيذ والكونياك . فكانت تسكر المسجونين ،

وتوحى اليهم بالأسى ، أو الهذيان ، أو الهياج . حتى ان منهم من عمدوا الى قطع رقابهم بشفرة الحلاقة ، او قذفوا بأنفسهم من النوافذ .

***

وكانت قد انقضت على «بروتو» ثلاثة ايام فى «البيستول»، حين علم من السجان ان الاب لونجمار كان ملقى على القش الموبوء ، فى السجن المليء بالحشرات ، بين اللصوص والقتلة . فعمل على نقله الى « البيستول » ، فى عين الحجرة التى كان ينزل فيها ، حيث خلا احد السراير . ولما كان ملتزم الضرائب الشيخ قد وعد بأن يدفع عن رجل الدين نفقاته ، ولم يكن يحمل كنزا كبيرا يمكنه من ذلك ، فقد عمد الى رسم الصور ، مقابل « ايكو » واحد لكل صورة . وحصل – عن طريق أحد السجانين – على اطارات سوداء صغيرة ، يضع فيها صورا دقيقة يصوغها من الشعر فى براعة وافرة . وكانت هذه التحف تجد اقبالا كبيرا بين جماعة من الناس لم يكن يشغلهم سوى ان يخلفوا تذكارات وراءهم .

وظل الأب لونجمار يحتفظ بقلبه وروحه فى أعلى مستوى . وراح – فى انتظار مثوله امام محكمة الثورة – يعد دفاعه . **ولم يكن يفرق بين قضيته وقضية الكنيسة ، فآلى على نفسه ان يبين لقضاته ألوان الفوضى والفضائح التى نشأت عن اقتران تعاليم الكنيسة بالدستور المدنى ..** وان يصور لهم كيف ان الابنة الكبرى للكنيسة (فرنسا) قد شنت على البابا حربا آثمة ، وكيف ان الاكليروس الفرنسى قد تجرد من عظمته ، وغلب على امره ، وانصاع أزرى الانصياع للعامة والعلمانيين .. وكيف ان الرهبان – وهم المليشيا المخلصة للمسيح – قد شردوا وتفرقوا .. واورد ذكر القديس جريجوار العظيم والقديس ايرينيه ، ونصوصا

عديدة من القانون الكنسى ، وفقرات برمتها من المراسيم .
وكان يجثو ــ النهار طوله ــ على ركبتيه ، بجوار سريره . وهو يغمس ذؤابات اقلام بليت حتى منبت الريش (٨١) فى المداد ، والسناج ، وبقايا القهوة . ويسود ــ بخط غير مقروء ــ اوراق الشمع ، واوراق اللف ، والصحف ، واغلفة الكتب ، والرسائل القديمة ، وقوائم الحسابات العتيقة ، واوراق اللعب .. **بل لقد فكر فى أن يستخدم قميصه بعد ان ينقعه فى النشاء . واخذ يضع ورقة فوق ورقة ، ويشير الى الكومة عبر المتناسقة ، قائلا : « عندما امثل امام قضاتى ، ساغرقهم بالنور ! »**
وفى ذات يوم . صاح قائلا لنفسه وهو يلقى نظرة راضية على دفاعه ــ الذى لم يكن يكف عن التضخم ــ ويفكر فى قضاته الذين كان يتحرق شوقا الى افحامهم : « ما كنت لأود ان اكون فى مكانهم ! »
وكان المسجونون الذين جمع القدر بينهم فى هذه الحجرة خليطا من الملكيين والاتحاديين ، بل كان بينهم يعقوبى كذلك .. وكانوا يختلفون فيما بينهم فى سياسة شؤون الدولة ، ولكن احدا منهم لم يكن يرعى اتفه بقية من المعتقدات المسيحية . فكان انصار الميثاق ، والدستوريون ، والجيرونديون يرون ــ على شاكلة بروتو ــ ان الله بالغ الاساءة اليهم بالذات ، ولكنه بار بالناس . **وكان اليعاقبة يقيمون فى مكان الرب الها يعقوبيا ، لكى تبدو تعاليمهم هابطة على الدنيا من سمو شاهق . ولكنهم فى عجزهم عن ان يتصوروا ان الناس من تفاهة العقل بحيث يؤمنون باى دين منزل ، ايقنوا بأن الأب لونجمار كان محتالا ماكرا ، اذ**

---

(٨١) كانت الاقلام ريشا من اجنحة الاوز ، تبرى اطرافها المجردة من الزغب .

راوه يصر على الايمان مع انه لم يكن يفتقد العقـــــل !.. ومع انه كان يتأهب ـ دون ما شك ـ للاستشهاد ، وكان يبوح بايمانه فى كل مناسبة ، الا انه كان كلما ألـح فى اظهار اخلاصه ، ازداد ظهورا فى أعينهم بمظهر الدجال !

وعبثا حاول « بروتو » ان يؤكد صدق ايمان رجل الدين ، فقد باتوا يرون ان « بروتو » نفسه لم يكن يصدق الا نصف ما يقول . وكانت آراؤه فردية وفذة لدرجة جعلتها تبـدو فى نظرهم مصطنعة ، فلم يقتنع بها أحد اطلاقا . فقـد راح يتكلم عن « جان ـ جاك » كما لو كان لصا حقـيرا . وعلى النقيض من ذلك ، رفع « فولتير » الى مصاف القديسين ، وان لم يجعله مساويا لهيلفتيوس ـ الحبيب الى نفسه ـ ولديدرو ، وللبارون دولباخ . وكان اعظم عباقرة القرن ـ فى رأيه ـ هو «بولانجيه» ، كما كان يقدر الفلكى « لالاند » ، و «دوبوى» مؤلف «مذكرات فى اصول مجموعات الكواكب» . **فكان اهل المجون فى الغرفة ، يتفكهون بالف نكتة عن البرنابى البائس ، دون ان يفطن الى شىء من هذا ، فقـــد كان نقاء سريرته يعفيه من البذاءات .**

ورغبة فى اقصـــاء الهمـــوم التى كانت تثقل عليهم ، والخلاص من تباريح السأم والفراغ ، كان المســجونون يلعبون « الضامة » والورق والنرد . ولم يكن يؤذن لهم بأية آلة موسيقية ، فكانوا ـ بعد العشاء ـ يقبلون على الغناء أو رواية الشعر . وكان ديوان فولتير « العذراء » يبث شيئا من الطرب فى قلوب اولئك التعساء ، فلم يكن يفوتهم سماع ابدع ما فيه . **ولكنهم كانوا يعجـزون عن ان يصرفوا عنهم الفكرة المرعبة التى كانت تكمن فى حبات قلوبهم ، فـــكانوا يحاولون ـ احيانا ـ ان يجعلوا منها مادة للتفكه ..** وكانوا ـ فى الحجرة ذات الثمانية عشر سريرا ـ يقومون بعد العشاء ،

وقبيل النوم ، بتمثيل محكمة الثورة ، فتوزع الادوار وفقا للأذواق والميول ، بين قضاة ومدعين ، ومتهمين وشهود ، وجلاد ومساعديه . وكانت المحاكمة تنتهي دائما باعدام المتهمين ، فيلقى بهم على سرير ، ورقابهم تحت لوح من الخشب . وينتقل المنظر – بعد ذلك – الى جهنم ، فكان أخف الجماعة حركة يلتفون فى ملاءات ليمثلوا الاشباح . وكان ثمة شاب من (بوردو) ، ضئيل الجسم ، أسود اللون ، اعور ، أحدب ، معوج الساقين ، يشبه الشيطان تمام الشبه .. **وقد أخذ على نفسه ان يذهب الى الأب لونجمار بقرنيه، فيجره من قدميه خارج سريره ، ويعلنه بأنه قد قضى عليه بأن يصلى النار خالدا فيها ابدا ، وباللعنة التى لا سبيل الى رفعها ، لأنه جعل من اله الكون كائنا حقودا ، شريرا ، خبيثا ، عدوا للبهجة والحب .**

وكان هذا الشيطان يصيح بصوت منكر : « آه ، آه ، آه !.. اذن فقد كنت تعلم الناس ،ايها القرد المكتهل ، ان الله يسر برؤية خلقه وهم يعانون الذلة والضنك فى سبيل التوبة ، ويحرمون انفسهم من اثمن نعمه . ايها المخادع ، المرائى الخاتل .. اجلس على المسامير ، وليكن قشر البيض طعامك أبد الآبدين » !

وكان الاب لونجمار يقنع بان يقول ان الفيلسوف كان يكمن وراء ابليس – فى هذا الكلام – وان احط زبانية الجحيم قد أوتى نفحة من علم اللاهوت ، فهو – يقينا – اقل جهلا من مؤلفى الموسوعة (الانسيكلوبيديا) ! .. ولكن وجهه كان يحمر غضبا اذا ما نعته المحامى بانه كبوشى ، وكان يقول ان الذى لا يميز بين البرنابى والفرنشسكانى اعمى ولابد .

وراحت محكمة الثورة تخلى السجون ، فتملأها اللجان

بلا هوادة ، حتى إن نصف عدد الذين كانوا فى حجرة الثمانية عشر ، تجدد خلال ثلاثة أشهر . وفقد الاب لونجمار شيطانه ، فان المحامى « دوبوز » اقتيد الى محكمة الثورة ، وقضى عليه بالاعدام بوصفه اتحاديا ، ومتآمرا ضد وحدة الجمهورية . وعند خروجه من المحكمة ، مر — كغيره من المقضى عليهم بالموت — فى ردهة تتخلل السجن ، وتتصل بالحجرة التى كان مبعث مرح فيها لثلاثة اشهر ، واذ راح يودع زملاءه ، ظل محتفظا بما عهد فيه من خفة دم ومرح . وقال للاب لونجمار : « سامحنى يا سيدى ، اذ كنت اشدك من قدميك ، من السرير . لن اعود الى ذلك ثانيـة » . وتحول الى بروتو قائلا : **« وداعا ، فانى اسبقك الى العدم ، وارد الى الطبيعة — راضيا — العناصر التى تكوننى ، آملا ان تحسن استعمالها فى المستقبل ، اذ لابد من الاعتراف بانها لم توفق فى تكوينى ! »**

وهبط تاركا بروتو واجما ، والاب لونجمار مرتجفا وقد اخضر لونه ، كأنه ورقة شجر .. فكان ميتا اكثر منه حيا ، اذ رأى الزنديق يضحك وهو على شفا هاوية النهاية .

***

وعندما عاد شهر « جرمينال » **(٨٢)** بالأيام الصحوة ، اخذ بروتو — الذى كان مشغوفا بالغزل — يهبط عدة مرات فى اليوم ، الى الفناء المتصل بقسم النسـاء ، بالقرب من النافورة التى كانت المسجونات يفدن عليها فى الصباح ليغسلن ثيابهن . **وكان ثمة حاجز من القضبان الحديدية يفصل بين القسمين ، ولكن الفجوات لم تكن من الضيق بحيث تمنع الايدى من التقابل ، والشفاه من التلاصق .**

---

(٨٢) جرمينال : الشهر السابع فى التقويم الثورى . من ٢١ مارس الى ١٩ ابريل .

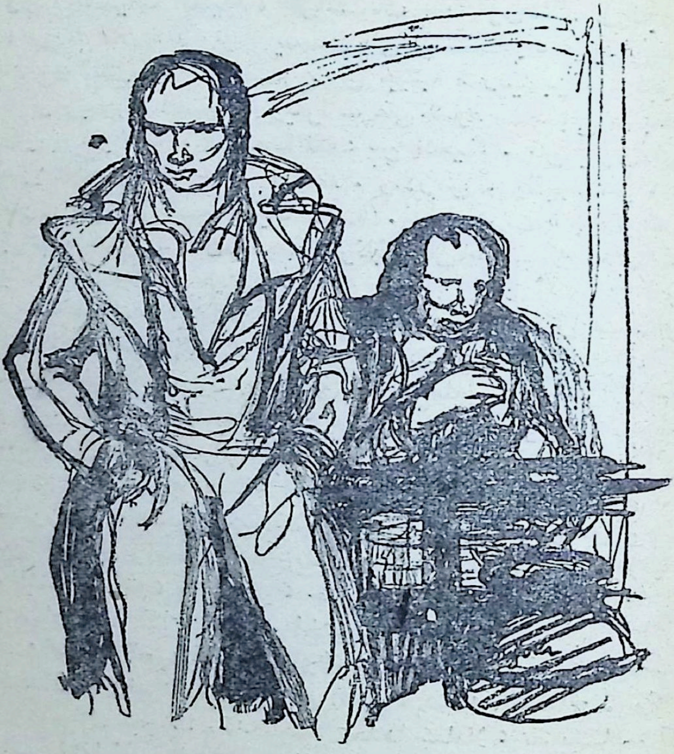

ـ الا تعرفين ابنتك ؟.. قبلينى يا أماه !

(ص ٢٣٤)

وفى الامسيات الطيلة ، كان العشاق يتعانقون هناك ازواجا . ومن تم كان « بروتو » يتسلل الى السلم ، فيجلس على احدى الدرجات ، ويخرج من جيب « ردينجوته » ديوان « لوكريس » الصفير ، ويقرأ — على ضوء مصباح — بعض اقواله المواسية : « عندما نكف عن الحياة ، فلن يقوى شىء على تحريكنا .. حتى السماء ، والارض ، والبحر ، لن تقوى على ان تجمع بقايانا .. » . بيد ان « بروتو » — برغم حكمته — كان يغبط البرنابى على غبائه الذى كان يحجب الكون عن عينيه .

واخذ الذعر يتفاقم شهرا بعد شهر . وفى كل مساء ، كان السجانون السكارى ، يتنقلون — مع كلاب الحراسة — من « زنزانة » الى « زنزانة » ، حاملين قرارات الاتهام ، منادين الاسماء بلهجة مدغمة ، موقظين المسجونين ، مروعين مائتين فى طلب عشرين فقط . وفى تلك الردهات — التى كانت تزخر بالاشباح الدامية — اخذ يمر عشرون .. ثلاثون .. خمسون من المقضى عليهم بالاعدام — فى كل يوم — بين كهول ونسوة ويافعين .. متباينى الظروف ، والشخصيات ، والمشاعر ، حتى ان المرء لم يكن يملك ان يتساءل عما اذا كانوا قد اختيروا بالقرعة !

واستمر لعب الورق ، وشرب نبيذ بورجونى ، ورسم الخطط ، وضرب المواعيد فى الليل ، عند السياج . وكان مجتمع السجن — وقد تجدد تجددا شاملا ، تقريبا — قد بات مؤلفا فى معظمه من « المغالين » و « الساخطين » . بيد ان غرفة السراير الثمانية عشر ظلت موئل الظرف واللطف . فلم تكن تضم غير اشراف ، يتبادلون الثقة ، فيما عدا اثنين اقتيدا اليها أخيرا ، وقد نقلا من (اللوكسمبورج) و (الكونسيرجيرى) ، واشتبه فى انهما « خروفان » ، أى

« جاسوسان » . وهما المواطنان : « نافيت » و «بيلييه» . واحتفل القوم – وكؤوسهم فى ايديهم – بانتصارات الجمهورية .. وهناك – فى هذه الحجرة – التقى عدد من الشعراء ، كما هى الحال فى كافة اجتماعات الطلقاء . ونظم اكثرهم مكرا قصائد عن انتصارات الجيش فى (الرين) ، وراحوا يلقونها بلهجة خاصة ؛ فكانوا يقابلون بالهتاف الحار .. « بروتو » وحده هو الذى لم يعر المنتصرين – ولا المشيدين بهم – اهتماما . وقد قال يوما : « لقد تملك الشعراء – منذ ايام هوميروس – هوس غريب بتمجيد العسكريين . ان الحرب ليست فنا ، بل الحظ وحده هو الذى يقرر مصير المعارك . فمن المحتوم ان واحدا – من كل قائدين غبيين يقف أحدهما فى وجه الآخر – يكون مظفرا . الا انتظروا حتى يقدر لواحد من حملة السيف هؤلاء ، ان يبتلعكم جميعا كما ابتلعت البومة الضفادع ، فى الاساطير . اذذاك سيكون ثمة اله حقا ، فقد عرفت الآلهة بشراهتها ! »

وما هزت امجاد الجيوش « بروتو » يوما ، ولا طرب قط لانتصارات الجمهورية ، التى توقعها من قبل .. فما أحب اطلاقا العهد الجديد ، الذى كفل الانتصار . وكان ساخطا .. ولأقل مما لقى وعانى كان المرء يسخط !

وفى ذات صباح ، اعلن ان قوميسيرى لجنة الامن العام قد اعتزموا اجراء تفتيش بين المسجونين ، وان يستولوا على الاوراق المالية ، والسلع الذهبية والفضية ، والمدى ، والمقصات . وان تفتيشا كهذا اجرى فى (اللوكسمبورج) ، فصودرت خطابات ، واوراق ، وكتب . لذلك سعى كل واحد الى البحث عن مخبأ يودعه ما لديه من اشياء يعتز بها . فحمل الأب لونجمار دفاعه بين ذراعيه ، وخبأه فى ميزاب . بينما دفن « بروتو » ديوان « لوكريس » فى رماد

المدفأة . فلما اقبل القوميسيرون - وحول اعناقهم الاوشحة الثلاثية الالوان - ليقوموا بتفتيشهم ، لم يعثروا على شيء سوى ما قدر القوم ان من المسموح لهم استبقاءه . وعقب رحيلهم ، هرع الأب لونجمار الى ميزابه ، وجمع من دفاعه ما أبقى عليه الماء والريح . واسترد « بروتو » من المدخنة ديوانه وقد سوده السناج . فقال لنفسه : « لنغتبط بالساعة الراهنة ، فانى استشف من بعض الامارات ، ان الوقت سيحسب علينا - منذ الآن - فى اضيق نطاق » .

***

وفى احدى الليالى اللطيفة ، لم يكد القمر يبزغ فى السماء الشاحبة ، مطلا على فناء السجن بقرنيه الفضيين ، حتى عمد الشيخ الى ما اعتاده ، فجلس يقرأ ديوان « لوكريس » على درجة من السلم الحجرى .. **واذا به يسمع صوتا يناديه .. صوتا نسويا ، عذبا ، لم يعرفه . فهبط الى الفناء ، وخلف قضبان السياج ، لمح شكلا لم يتبينه باكثر مماتبين الصوت ، وانما ذكرته خطوطه المبهمة الفاتنة ، بكل من أحب من نساء** . وكانت السماء تفيض بلون لازوردى فضى .. وفجأة ، تعرف « بروتو » فى صاحبة الصوت على ممثلة شارع (فيدو) الجميلة .. **« روز تيفينان » !**

- انت هنا يا صغيرتى !.. ان لرؤيتك فى نفسى فرحة قاسية . منذ متى انت هنا ، ولماذا ؟

فقالت : « منذ الأمس » . ثم اردفت : « لقد دمغت بأننى ملكية ، واتهمت بالتآمر لانقاذ الملكة من سجنها . ولقد عرفت انك هنا ، فسعيت لتوى الى رؤيتك . اصغ الى ، يا صديقى .. أتحب ان اناديك بهذا اللقب ؟.. **اننى اعرف اناسا من ذوى المكانة ، واعلم ان لى من يولوننى العطف ، حتى فى لجنة الأمن ذاتها . وسأحمل اصدقائى على العمل**

كى يخلصونى ، وساخلصك بدورى » .
ولكن بروتو قال بصوت شديد التأثير : « استحلفك بكل عزيز لديك ، ان لا تفعلى هذا يا صغيرتى !.. لا تكتبى ، ولا تتوسلى ، ولا تطلبى من شخص شيئا .. استحلفك بأن تتركى نفسك منسية ! » .. واذ بدا ان مقصده لم ينفذ الى ادراكها ، عاد يناشدها : **« الزمى الصمت يا روز ، ودعيهم ينسوك ، ففى هذا السلامة . ان كل محاولات اصدقائك لن تؤدى الا الى التعجيل بهلاكك . فاكسبى الوقت ، ولن تلبثى بعد قليل – وقليل جدا فيما آمل – ان تظفرى بالنجاة .** ولا تحاولى التأثير على القضاة والمحلفين .. وعلى جاميلان ، بوجه خاص . فهم ليسوا من البشر ، وانما هم اشياء جامدة ، والمرء لا يتفاهم مع الجماد . دعى نفسك منسية . واذا اتبعت نصيحتى يا صديقتى ، فسأموت وانا سعيد بأنى انقذت حياتك » .
فأجابت : « سأطيعك .. ولكن ، لا تتحدث عن الموت » . فهز كتفيه قائلا : « لقد انتهت حياتى يا ابنتى ، فعيشى انت واسعدى ! » . وامسكت بيده ، فوضعتها على صدرها قائلة : « اصغ الى يا صديقى .. اننى لم ارك سوى يوما واحدا ، ومنذ ذلك الحين لم تعد عنى غريبا . **واذا كان ما ساقوله لك ، كفيلا بأن يجعلك تتشبث بالحياة ، فصدقه .. اننى لك .. كيفما تريدنى ان اكون ! »**
وطبعت على شفتيه قبلة ، من بين فرجات القضبان .

الفصل العشرون

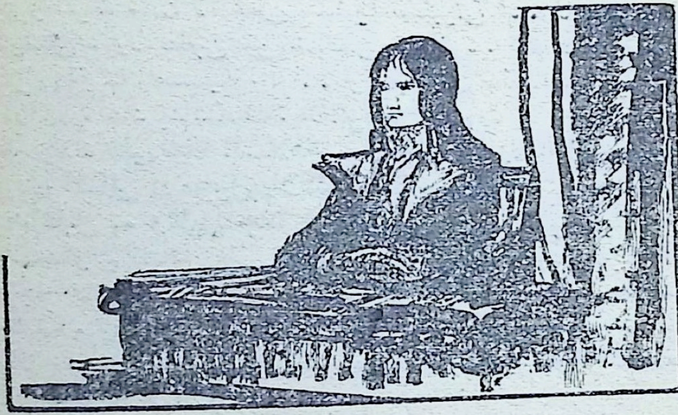

• **اغمض** « ايفاريست جاميلان » عينيه ـ اثناء جلسة طويلة فى المحكمة ، لازم فيها مقعده الخشبى ، فى جو قائظ ـ وراح يفكر : « ان الاشرار قد حولوا « مارا » ـ حين اضطروه الى الاختباء فى الشقوق ـ الى طائر من طيور الليل .. طائر الحكمة الذى تنفذ نظراته ثاقبة لتكشف المتآمرين فى الظلمات التى ينتشرون فيها . اما اليوم ، فان النظرة التى تهتك ستر اعداء الدولة ، وتفضح الخونة بحذق لم يعرف حتى عن صديق الشعب ، الراقد ـ الى الابد ـ فى حديقة « الكورديلييه » ، نظرة زرقاء ، باردة ، ساكنة .. ان المنقذ الجديد يضارع سلفه حمية ، ويفوقه حذقا وبصيرة ، فهو يرى ما لم يره أحد ، وتشير اصبعه المرفوعة الى الارهاب . وانه ليميز الظلال الرقيقة » التى تعز على

الادراك ، والتى تفصل السـوء عن الخير ، والرذيلة عن الفضيلة ، فلولاه لتخبط القـوم فى تلك الظلال ، ولأضروا بالوطن وبالحرية .. انه يرسم نصب عينيه خطا رفيعا ، جامدا لا يلين ، لا يوجد خارجه - عن اليمين وعن الشمال - سوى الخطأ ، والاجرام ، والشر . ان «المعصوم» يبين للناس ان المغالاة والضعف واضطهاد الطوائف الدينية باسم العقل ، ومقاومة قوانين الجمهورية باسم الدين .. كلها لا تخـدم سـوى الأجنبى . وليس أخس من الانذال الذين اغتالوا « لوبلتيبيه » و « مارا » ، سوى اولئك الذين يخـدمون الاجنبى اذ يطعنون فى شرف هذين الزعيمين - على قداسته - ليئدوا ذكراهما .. **كل من ينبذ مبادىء النظام ، والحكمة ، واللبـاقة صـنيعة للاجنبى .. كل من يمتهن الآداب ، ويخدش الفضيلة ، وينكر - فى جهالة فؤاده - الله ، عميل للأجنبى . لقد استحق القساوسة المتعصبون الموت ، ولكن هناك طريقة للقضـاء على التعصب ، تنطوى على اضرار بالثورة ، وتتمثل فى ألوان الكفر الاجرامية .. ففى الاعتدال ضياع الجمهورية .. وفى العنف هلاكها !**

« اواه ! انها لرهيبة ، واجبـات القاضى ، التى املاها احكم الناس !.. لم يعد الارستقراطيون ، والاتحـاديون ، وانذال مؤامرة اورليان ، واعداء الوطن السـافرون ، هم الذين يستحقون ان يسحقوا وحدهم . ان المتآمر ، عميـل الاجنبى ، حرباء تتلون بكل لون . فهو يتخذ شكل الوطنى ، والثورى ، وعدو الملوك ..وهو يصطنع شجاعة قلب لا يخفق الا للحرية ، ويطلق صوتا يرتجف له اعداء الجمهـورية ..

انه « دانتون » **(٨٣)** ، فان عنفه يخفق فى ستر اعتداله المقيت ، وقد افتضح فساده أخيرا .. ان المتآمر ، صنيعة الاجنبى هو ذلك الألكن البليغ ، الذى وضع فى قبعته اولى شارات الثورة ، وهو صاحب النشرات الانتقادية الهجائية ، الذى دعا نفسه ، فى غيرته الوطنية الساخرة ، القاسية : « حامل المشعل » ، الا وهو « كاميى ديمولان » **(٨٤)** ، الذى فضح نفسه اذ راح يدافع عن القادة الخونة ، ودعا الى اخذهم بالرحمة ، والرحمة – فى غير الاوان المناسب – اجرام !.. ان المتآمر الخائن هو « فيليبو » .. هو « هيرو » .. هو « لاكروا » الحقير .. المتآمر ، عميل الاجنبى هو ذلك الاب دوشين ، الذى نال من الحرية بديماجوجيته الوضيعة ، والذى استثار بمفترياته الدنسة العطف ، حتى على « انتوانيت » .. انه « شومين » ، الذى بدا لطيفا ، محبوبا ، معتدلا ، طيبا ، صالحا فى ادارة الجمعية العامة ، ولكنه كان كافرا !.. **ان المتآمرين وصنائع الاجنبى هم كل هؤلاء « السانكيلوت » ، ذوى القلانس الحمراء والكرمانيولات والنعال الخشبية ، الذين راحوا ينافسون اليعاقبة – برعونة وغباء – فى سوق الوطنية** .. ان المتآمر ،

---

(٨٣) جورج – جاك دانتون (١٧٥٩ – ١٧٩٤) : كان محاميا ومستشارا ملكيا الى سنة ١٧٩١ ، اذ انشأ منتدى الجيليين وغدا من كبار الثوريين واعظم خطباء الثورة ، ولعب دورا كبيرا فى انشاء محكمة الثورة ، وجنح الى العنف ، ولكنه لم يكن يرى فى الارهاب سوى وسيلة مؤقتة للحكم . ومع ذلك فقد اتهمه « روبسبير » بالاعتدال والخيانة ، فأعدم بالمقصلة .

(٨٤) كاميى ديمولان (١٧٦٠ – ١٧٩٤) : كان محاميا وصحفيا ، وهو الذى دعا العامة – فى ١٠ اغسطس ١٧٨٩ – الى التسلح واقتحام «الباستيل» . وقام بدور كبير فى الثورة ، ولكنه حين تمنى نهاية الارهاب ، اتهم بالاعتدال واعدم . وكتبت زوجته «لوسيل دوبليس» خطاب سبت فيه «روبسبير» فاعدمت بدورها .

صنيعة الاجنبى ، هو «اناكارسيس كلوت» ، خطيب الجنس الانسانى ، الذى أهدر دمه جميع ملوك العالم ،ولكن كان من الخليق ان يخشى شره ، اذ كان بروسيا !

« وبعد .. كل هؤلاء الاشرار ، كل هؤلاء الخونة ــ سواء دعاة العنف منهم او دعاة الاعتدال ــ قد هلكوا تحت حد البلطة : دانتون ، ديمولان ، هيبير (٨٥) ، شوميت .. لقد نجت الجمهورية . ومن جميع اللجان وجميع الجمعيات الشعبية ، تتصاعد أهازيج التقريظ الى مكسميليان (روبسبيير) والجبل (٨٦) .. ويتصايح المواطنون الصالحون : « ايها المندوبون الجديرون بتمثيل شعب حر .. عبثا يحاول ابناء الافاعى ان يرفعوا رؤوسهم المؤذية .. ايها الجبل ، يا جبل الرحمة ، يا حامى الأمة .. من صدرك الجياش انطلقت الحمم التى كفلت السلامة ! » ..

« وفى هذه الاهازيج ، نالت المحكمة نصيبها من المديح . ما أحلى ان يكون المرء فاضلا ، وما احب العرفان من الجمهور الى قلب القاضى النزيه !

« ومع ذلك ، فياله من مبعث للعجب ، ويالها من اسباب للقلق ، بالنسبة للقلب المتعلق بحب الوطن !.. ماذا ؟ الم يكن ميرابو ، ولافاييت ، وبايى ، وبيتيون ، وبريسو ، كافين لخيانة قضية الشعب ؟.. **أفكان لزاما ان يقضى كذلك على اولئك الذين ادانوا هؤلاء الخونة ؟.. ماذا ؟ أفقدر لأولئك الذين صنعوا الثورة ، ان لا يصنعوها الا ليقضوا عليها ؟!..**

---

(٨٥) جاك هيبير (١٧٥٧ ــ ١٧٩٤) : رئيس تحرير اعنف الصحف الثورية ، وقد كان من انصار مذابح سبتمبر . ومع ذلك تخلص منه «روبسبير» داعية الارهاب .

(٨٦) لقب اطلق على المنادين باشد الوان العنف ، فى المؤتمر .. وذلك لانهم كانوا يحتلون اعلى المقاعد فى قاعة المؤتمر .

فاذا هؤلاء العظام ، الذين صاغوا الايام الجليلة ، يمهدون مع « بيت » لاقامة عرش اورليان ، او الوصاية على لويس السابع عشر ؟!.. ماذا ؟ أكان دانتون هو « مونك » ؟!.. ماذا ؟ أكان شوميت والهيبيرتيون اكثر خيانة من الاتحاديين الذين دفعوا بهم الى المقصلة ، فأقسموا ان يقضوا على الدولة ؟!.. ولكن ، ألن تكشف عين روبسبيير الزرقاء فى الغد ، بين الذين ساهموا فى موت الخونة من امثال دانتون ، والمضللين من امثال شوميت ، من هم اكثر منهم زيفا ونفاقا ؟.. ترى اين يقف هذا الانسياق المقيت فى اعتقال الغادرين والخونة ونفاذ بصيرة « المعصوم » الثاقبة ؟.. »

الفصل الواحد والعشرون

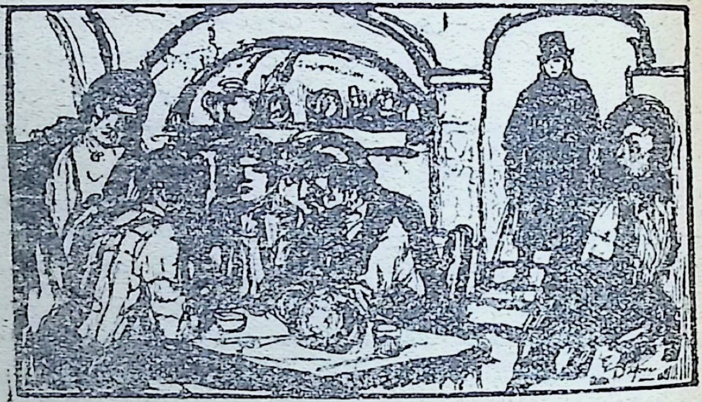

• في تلك الاثناء ، دأبت « جولى جاميلان » على الذهاب يوميا – مرتدية سترة الرجـال الخضراء الزيتونية – الى حديقة (اللوكسـمبورج) . وهناك ، كانت تنتظر – على مقعد فى طرف أحد الدروب – لحظة ظهور حبيبها فى احدى نوافذ القصر الضيقة . فينهمكان فى التخاطب بالاشارات ، وتبادل خواطرهما بلغة صامتة من ابتـكارهما . وعرفت « جولى » – بهذه الوسيلة – ان السجين كان ينـزل فى حجرة لا بأس بها ، ويحظى بصحبة مستحبة ، ويحتاج الى غطاء وسخان ، وانه يحب صاحبته كل الحب .

ولم تكن الوحيدة التى تتطلع الى وجه حبيب فى ذلك القصر الذى تحول الى سجن . فقد كانت على مقربة منها أم شابة اعتادت ان تعلق نظراتها بنافذة مغلقة ، وما ان تراها تفتح ،

حتى ترفع طفلها بين ذراعيها الى قمة رأسها .. وسيدة عجوز ، مقنعة بخمار من « الدانتيل » ، كانت تقف الساعات الطويلة جامدة ، وهى تأمل دون جدوى ؛ ان تلمح – ولو للحظة واحدة – ابنها الذى كان يخشى ان يهن جلده . فكان يلعب فى ساحة السجن ، الى ان تحين ساعة اغلاق الحديقة .. حتى لا يراها !

وفى اثناء هذه الانتظارات الطويلة ، تحت السماء – سواء فى صحوها أو اكفهرارها – كان ثمة رجل فى اوسط العمر ، يميل الى الضخامة ، ويعنى بملبسه ايما عناية .. اعتاد ان يجلس على مقعد مجاور ، وهو يعبث بعلبة سعوطه وزوائد سلسلة ساعته ، وينشر بين يديه صحيفة لم يكن يقرأها قط . وكانت ثيابه من الطراز « البورجوازى » القديم .. قبعة مثلثة ، ذات حافة مذهبة ، وحلة برقوقية اللون ، وصديرية زرقاء مطرزة بالفضة . وكانت تبدو عليه سيماء الاستقامة . ومن قيثارة كان احد طرفيها يطل من جيبه ، كان المرء يشتم انه موسيقى . **ولم تكن عيناه تحيدان لحظة عن الشاب الزائف (جولى) ، ولا كان يكف عن الابتسام له . فاذا رآه ينهض ، نهض بدوره وتبعه عن كثب . وشعرت جولى – فى محنتها ووحدتها – بتأثر من العطف المتهيب الذى كان هذا الرجل الطيب يبديه .**

وفى ذات يوم ، بدأ المطر يتساقط اثناء مغادرتها الحديقة ، فاقترب الرجل الطيب منها ، وفتح مظلته الحمراء الواسعة ، وسألها ان تسمح له بأن يقيها المطر تحتها . واجابته بلطف ، معلنة موافقتها بصوتها الصافى . ولكنه لم يكد يسمع هذا الصوت – ولعله اشتم كذلك رائحة الانوثة الفواحة – حتى اسرع بالابتعاد ، تاركا الشابة معرضة لمطر أخذ يشتد .. وادركت « جولى » جلية الامر ، فلم تتمالك

ان ابتسمت برغم همومها . **(٨٧)**

وقطنت جولى فى غرفة صغيرة بشارع (شيرش — ميدى) ، متظاهرة بأنها وسيط لبيع الاقمشة يبحث عن عمل . اذ كانت الارملة المواطنة جاميلان قد اقتنعت — اخيرا — بأن ابنتها ما كانت لتتعرض لخطر بالغ الا بالقرب منها ، فأقصتها عن ميدان (تيونفيل) ، وعن قطاع (بون نيف) بأسره ، وراحت تقدم اليها ما كان يوسعها ان تقدم من طعام ولباس . واصبحت جولى — كلما فرغت من طهو طعامها — تسعى الى (اللوكسمبورج) لترى حبيبها الغالى ، ثم تعود الى مسكنها المتواضع . وكانت رتابة هذه الحياة القلقة تهدهد احزانها .. ولما كانت بعد شابة ، وفتية ، فانها كانت تستغرق الليل كله فى نوم عميق . **ولما كانت بطبيعتها جريئة ، تعودت المغامرة والمخاطرة — وربما بدافع من الزى الذى كانت ترتديه — فانها كانت تذهب فى بعض الامسيات الى حانوت بائع لشراب الليمون ، بشارع (دوفور) — عند لافتة الصليب الاحمر — اعتاد ان يؤمه اناس من كافة الانواع ، ونساء من ذوات اللطف والادب** . فكانت تقرأ الصحف هناك ، وتلعب النرد مع كاتب بأحد الحوانيت او عسكرى كان ينفث دخان غليونه فى انفها . وهناك ، كان الشرب واللعب ، والحب ، و .. الشجار فى كثير من الاحيان .

وفى احدى الليالى ، رفع احد الشاربين ستار النافذة ، اذ سمع وقع حوافر خيل على الطريق المرصوفة ، وما ان تبين قائد الحرس الوطنى — المواطن هانريو — منطلقا على جواده ، مع اركان حربه ، حتى غمغم وهو يصر على أسنانه : « هاهى ذى اتان (حمارة) روبسبيير ! »

---

(٨٧) المفهوم ان الرجل ظنها من عيون الحكومة الذين يندسون بين الشعب ، فآثر البعد عنها .

وعند ذلك ، اطلقت جولى ضحكة عالية مدوية . واذا بمواطن ذى شاربين يصيح وقد اربد محياه : « ان الذى يتكلم هكذا امرأة ارستقراطية ، وسيسرنى ان ارى رأسه تهوى فى سلة الجلاد . الا اعلموا ان المواطن هانريو وطنى صالح ، جدير بأن يذود - عند الحاجة - عن باريس والمؤتمر . وهذا ما لا يغتفره له الملكيون اطلاقا ! » . وحملق الوطنى ذو الشاربين فى وجه جولى ، التى لم تكف عن الضحك ، وصاح : « وانت يا ذا المنقار الابيض ، احذر من ان اركلك بقدمى فى مؤخرتك ، لأعلمك احترام الوطنيين » .

واذذاك تعالت الاصوات بين قائل : « ان هانريو سكير ، وغبى ! » .. وقائل : « ان هانريو يعقوبى صالح . ليحى هانريو ! » .

وانقسم القوم فريقين اشتبكا فى عراك ، فهوت اللكمات على القبعات المزقة ، وقلبت الموائد ، وتطايرت شظايا الكؤوس ، واطفئت المصابيح ، واطلقت النساء صرخات حادة . وتحت تدافع عدد من الوطنيين ، تحصنت «جولى» وراء اريكة ، ولكنها حوصرت ، فانهالت على مهاجميها عضا وخمشا . وانشق صدر سترتها ، وانمزق قميصها فبرز ثديها النافر . وكانت احدى «داوريات» الحرس قد اقبلت مهرعة على الضجيج ، فافلتت الارستقراطية الشابة ، من بين سيقان الشرطة ، ولاذت بالفرار .

***

وظلت العربات تمتلىء بالمقضى عليهم بالاعدام ، فى كل يوم . وراحت جولى تقول لامها : « ليس بوسعى - مهما يكن الامر - ان اترك حبيبى يموت ! »

وقررت ان تسعى ، وان تسوق الرجاءات ، وان تذهب

الى اللجان ، والى المكاتب ، والى بيوت المنـــدوبين ودور القضـاة ، والى كل مكان ينبغى أن تذهب اليه . ولم يكن لديها ثوب ما ، فاستعارت لها أمها — من المواطنة بليـز — ثوبا مخططا ، ووشـــاحا ، وغطاءا للرأس من « الدانتيل » .. وفى ثيـاب امرأة — وامـرأة وطنية — ذهبت جولى الى مسكن القاضى « رينودان » ، فى منزل رطب ، معتم ، بشارع (مازارين) .

وصعدت بقدمين مرتجفتين السلم الذى صنعت درجاته من الخشب والبلاط ، فاستقبلها القاضى فى حجـرة مكتبه البائسة ، التى لم تكن مؤثثة بغير مكتب من خشب الصنوبر ومقعدين من القش . وكان ورق الجدران مهلهلا يتـدلى فى شرائح . وكان « رينودان » — بشعـره الاسـود الملتصق بجبهته ، ونظـراته المتجهمة ، وشفتيه المتهـدلتين وذقنه البارزة — بادى العبوس . واشار اليها ان تتكلم ، ثم راح يصغى فى صمت . فقالت له انهـا اخت المواطن شاسانى ، نزيل سجن (اللوكسمبورج) ، وعرضت عليـه — فى اقصى ما استطاعت من دهاء وحـــذق — الظروف التى القى فيها القبض على الرجـل ، وبدت مؤثرة وهى تصوره البـرىء السىء الحظ .

وظل جامدا ، لم تختلج فيه جارحة تنم عن تأثر .

راحت تبكى — عنـد قدميه — ضارعة .. فما ان رأى دموعها حتى تبدل وجهه ، فتأججت مقلتاه — اللتان كانتـا سوداوين باحمرار — وتحـرك فكاه الضخمان وكأنه يزدرد اللعاب ، فى حلقه الجاف . وقال : « سنجرى اللازم ايتهـا المواطنة ، فلا تجزعى ! »

وفتح بابا ، فدفع المتوسلة الى «صالون» وردى صغير ،

نقشت على جدرانه صور بالزيت .. وكانت به مجموعات من « البسكويت » ، وساعة دقاقة ، وثريات مذهبة ، ورسوم للرعاة ، واريكة مكسوة بقماش مزدان بصور برية لبوشيه ..

وكانت جولى على استعداد لكل شىء ، فى سبيل انقاذ حبيبها ..

وكان « رينودان » خشنا ، وسريعا .. وعندما نهضت ، وراحت تسوى ثوب المواطنة ايلودى الجميل ، التقت نظراتها بالنظرات الساخرة ، القاسية التى كانت تنبعث من عينى هذا الرجل .. وشعرت على الفور بأنها قدمت تضحية غير مجدية . فقالت : « لقد وعدتنى بحرية اخى » .. فقال ضاحكا : « بل قلت لك ــ ايتها المواطنة ــ اننا سنجرى اللازم ، اى ان نطبق القانون .. لا اكثر ، ولا اقل . وقلت لك ان لا تجزعى . ولماذا تجزعين ؟.. ان محكمة الثورة عادلة دائما » .

وخطر لها ان تنقض عليه فتعضه ، وتفقأ عينيه . ولكنها رأت انها بذلك تحقق هلاك فورتونيه شاسانى ، فغادرت المسكن مهرعة ، وخلعت ــ فى وكرها ــ ثوب ايلودى المدنس . وهناك ، قضت الليل بطوله وحيدة ، تبكى غيظا وأسى .

وعادت الى (اللوكسمبورج) فى اليوم التالى ، فرات الحديقة تحفل بالشرطة الذين راحوا يطردون النسوة والاطفال . ووقف فى الدروب حراس يمنعون المارة من الاتصال بالمسجونين . وقالت الام الشابة ــ التى كانت تفد يوميا حاملة طفلها ــ ان ثمة اقاويل عن مؤامرة فى السجون ، وان النساء كن يسقن الى التجمع فى الحديقة ليثير منظرهن عطف الشعب على الارستقراطيين والخونة .

الفصل الثانى والعشرون

• قام فى حديقة « التويلرى » ـ فجأة ـ جبـــل ..
انت السماء صحوة ، خالية من السحب . وسار مكسميليان
روبسبيير) على رأس زملائه ، فى سترة زرقاء ، وسروال
صفر ؛ وقد حمل فى يده باقة من السـنابل وزهر
لخشخاش . وصعد الجبل ، فأعلن اله « جان ـ جاك »
با للجمهورية الحنون . فياللطهر ! يا للوداعة ! ياللايمان ،
ياللبساطة العريقة ! يالدموع الشفقة ! ياللنـدى الوردى !
ياللرحمة ! ياللاخوة الانسانية !

عبثا حاول الالحاد ان يكشف عن وجهه البغيض ، فقد
أمسك مكسميليان مشعلا ، فالتهمت اللهب الوحش ،
وتجلت الحكمة تشير باحدى يديها الى السماء ، وتمسك
بالاخرى اكليلا من النجوم .

وعلى المنصة التى اقيمت امام (التويلرى) ، راح « ايفاريست » ــ وسط الجموع المتأثرة ــ يذرف دموعا رقيقة ، ويقدم الشكر للرب ، وهو يرى عهدا من الهناءة يبدأ . وزفر قائلا : « اخيرا سنصبح سعداء ، انقياء ، ابرياء .. لو ان الاشرار يسمحون بذلك ! »

وواأسفاه !.. **لم يسمح الاشرار** . لم يكن ثمة مفر من آلام جديدة . لم يكن ثمة بد من اراقة فيض من الدماء الدنسة. فان هى الا ايام ثلاثة عقب الاحتفال بالتحالف الجديد والوئام بين السماء والارض ، حتى أعلن المؤتمر القانون العرفى الذى ابطل ــ فى قسوة قامت على سذاجة ــ كافة الاشكال التقليدية للقانون ، وكل ما كان معروفا منذ عهد الرومان ومتبعا لتأمين البرىء الذى تحوم حوله الشبهات . فلا اجراءات ، ولا استجوابات ، ولا شهود ، ولا دفاع .. بل بات حب الوطن فوق كل هذه . واصبح المتهم ، الذى يطوى جوانحه على جرمه أو براءته ، يمر صامتا أمام المحلفين الوطنيين .. فى الوقت الذى بات فيه لزاما أن تفحص فيه قضيته ، وربما كانت عويصة أحيانا ، وكثيرا ما تكون معقدة ، غامضة . **فكيف كان للمحلفين أن يحكموا ؟.. وكيف كان لهم أن يتبينوا ــ فى لحظة ــ الرجل الشريف من الرجل الاثيم ، والوطنى من عدو الوطن ؟**

وبعد فترة من الارتباك ، فهم « جاميلان » واجباته الجديدة ، وهيأ نفسه للمهام المبنية عليها . فرأى فى اختصار الاجراءات الروح الحقيقية لهذه العدالة الرهيبة ، التى لا يتولاها قضاة يستبيحون لأنفسهم فسحة من الوقت ليزنوا ما للمتهم وما عليه ، وانما يتولاها « السانكيلوت » ، فيصدرون احكامهم على ضوء الوطنية الذى يكشف لهم كل شىء فى جلاء . وبعد ان ضاعت الكفالات والاحتياطات

جميعا ، صار على القلب المخلص المستقيم ان ينقذ بخفقاته كل شيء . وبات من الواجب اتباع ايحاءات الطبيعة ، هذه الأم الرؤوم التى لا تخطىء البتة .. صار لزاما الحكم على هدى القلب . فهتف جاميلان مخاطبا روح جان ـ جاك : « الا الهمنى ـ ايها الرجل الفاضل ـ حب الناس ، والعزم الصادق على صهرهم وتشكيلهم من جديد ! »

وكان اغلب زملائه يشعرون بمثل شعوره . فقد كانوا ـ فى الغالب ـ مفطورين على البساطة ، فحيثما بسطت الاجراءات كان ذلك ادعى لارتياحهم ورضائهم . وصادفت العدالة المقتضبة قبولا لديهم . ولم يعودوا يهتمون بغير آراء المتهمين ، فقد وقر فى انفسهم ان اى امرىء خلو من الشر لايمكن ان يفكر الا على شاكلتهم . واذ كانوا يوقنون من انهم اوتوا الحقيقة ، والحكمة ، والنية الصادقة ، فقد راحوا يعزون الى خصومهم كل الخطأ وكل الشر . وأحسوا بالقوة ، وبأنهم كانوا يرون الله .

اجل ، بات محلفو محكمة الثورة يرون الله . فاذا « الكائن الاعلى » ، الذى اهتدي اليه مكسميليان ، يفيض عليهم من لهبه .. فأحبوه ، وآمنوا به .

وكان مقعد المتهم قد ابدل بمنصة كبيرة تتسع لخمسين شخصا . فان المحكمة لم تعد تنظر القضايا الا جملة . وأصبح المدعى العام يضم ويدين فى القضية الواحدة ، اناسا لم ير احدهم الآخر ـ فى الغالب ـ الا فى المحكمة .. وللمرة الاولى ، فيصر على انهم شركاء . وراحت المحكمة تقضى ـ بالسهولة المرعبة التى يتيحها القانون العرفى ـ فى اولئك المتهمين بالتآمر ، الذين كانوا فى السجون فى اعقاب محاكمات انصار « دانتون » و « الكومون » ، وارتبطوا بهؤلاء بأى مظهر أو فكرة . ولمعرفة اية مؤامرة ضد الجمهورية يثيرها

ذهب الاجنبى ، حددت صفتان رئيسيتان ، هما الاعتدال فى غير الاوان المناسب ، والتطرف المتعمد المرسوم .. وكذلك لمعرفة جريمة دانتون ، وجـريمة الانتماء الى « هيبير » ، جمعوا بين امراتين متعارضتين .. ارملة «كاميى ديمولان» ، لوسـيل اللطيفة .. وارملة الهيبيرتى « مومورو » ، التى كانت يوما معبودة ، وكانت مثالا للمرح . **فوضعت المرأتان – عن عمد وتدبير – فى سجن واحد ، حيث راحتا تبكيان معا على مقعد حجرى واحد ، ثم سيقتا معا – وفقا لخطـة مرسومة – الى المقصلة . فكانتا مثالا بارعا حقا للمساواة كما تخيلها – بلا شك – عقل أحد رجـال القانون** .. وقد رسم الخطة واسبغ شرفها على مكسـمليان (٨٨) . فقد اصبحت تعزى الى هذا الرجل – ممثل الشـعب – كافة الاحداث التى كانت تجرى فى الجمهورية – سـواء كانت سارة او سيئة – وكل القوانين ، والقيم الخلقيـة ، وتتابع الفصول ، والمحصولات ، والامراض .. وهو ظلم كان ذلك الرجل – الضئيل ، الاعجف ، المعنى بأناقته – يستحقه ، اذ كان شديد البطش بالشعب ..

***

كانت المحكمة – فى ذلك اليوم – تتعجل الفراغ من فريق من المتهمين فى مؤامرة السجون الكبرى .. حوالى الثلاثين من المتامرين من (اللوكسمبورج) ، كانوا يبدون منتهى الانصياع كمسجونين ، ولكنهم كانـوا من غلاة الملكيين والاتحاديين .. وكان الاتهام بأسره يرتكز ارتكازا مطلقا على شـهادة واش وحيد . ولم يكن المحلفون يعرفون كلمة من القضـية ، بل كانوا يجهلون اسماء المتهمين أنفسهم . واذ ألقى جاميـلان

(٨٨) المعروف ان «ديمولان» كان يرجو انتهاء الارهاب ، اما «الهيبير» فكان من دعاة العنف .. ومن هنا نفهم «المساواة» بين زوجتيهما فى المصير .

نظرة على المتهمين ، عرف بينهم « فورتونيه شاسانى » .. كان حبيب جولى قد هزل لطول سجنه ، وشحب لـونه ، وبدت قسماته اكثر صلابة تحت الضوء الكئيب الذى كان يغمر القاعة .. بيد انه ظلّ محتفظا بابائه وببعض كبريائه . والتقت نظراته بنظرات جاميلان ، فاذا بها تفيض ازدراء .

ونهض جاميلان ، وقدتولاه غضب هادىء ، فطلب الكلمة ، وشرع يقول وعيناه معلقتان بتمثال نصفى لبروتوس العريق كان يطل على المحكمة : « ايها المواطن الرئيس ، بالـرغم من وجود وشائج بينى وبين احــد المتهمين — واذا شـئتم فهى وشائج مصــاهرة — اعلن اننى لن انسحب . فان البروتسين لم ينسحبا عندما كان لزاما عليهما — من اجل سلامة الجمهورية ، او قضية الحـرية — ان يدان ابن ، او يطعن أب » . (٨٩)

وعاد الى الجـلـوس ، فغمغم شاســانى وهو يصر على أسنانه : « ها هو ذا نذل بديع ! » . وظل الجمهور فاترا ، أما عن سأم من الشخصيات المبالغة فى تساميها ومثاليتهـا ، واما عن اطمئنان الى أن جاميلان انتصر بسهولة بالغـة على مشاعره الطبيعية . بينما قال الرئيس : « أيهــا المواطن جاميلان ، ان القــانون ينص على أن كل انسحاب يجب أن يصاغ كتابة ، قبل فتح باب النقاش بأربع وعشرين ساعة . وفيما عدا ذلك ، فليس ثمــة ما يدعو الى انسحابك ، فان المحلف الوطنى فوق العواطف » !

---

(٨٩) البروتسان : «الوشيس جونيوس بروتس» ، الذى اقام الجمهورية فى «روما» سنة ٥٠٩ قبل الميلاد . وقد تآمر أولاده على الجمهورية فلم يحجم عن قتلهم .. و «ماركوس جونيوس بروتس» الذى احتضنه «يوليو قيصر» فكان فى مكانة الابن منه — ومع ذلك تآمر ضده ، وكان ممن طعنوه عند اغتياله .

وتم استجواب كل متهم فى ثلاث دقائق أو أربع . وانتهى التحقيق الى الحكم بالاعدام للجميع . وأدلى المحلفون باصواتهم ؛ اما بالكلام ، أو بايماءة من الرأس ، أو بصيحة . فلما جاء دور جاميلان للادلاء برأيه ، قال : « جميع المتهمين مدانون ، والقانون صريح » .

وما أن هبط سلم القصر ، حتى اعترضه شاب فى حلة ذات لون أخضر زيتونى ، بدا فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره ، فوقف فجأة أمامه . وكان يرتدى قبعة مستديرة ، مزاحة الى مؤخرة رأسه ، وقد بدت حافتها كاطار أسود حول رأسه الشاحب الجميل . وصاح الشاب بصوت يفيض غضبا وقنوطا ، فى وجه المحلف : **« أيها النذل ! الوحش ! القاتل !.. ألا اضربنى يا جبان !.. اننى امرأة ، فمر باعتقالى ، ومر بسوقى الى المقصلة !.. يا قابيل ، اننى أختك ! »**

وبصقت جولى فى وجهه .. وكان القوم ـ من حملة الشارات الثلاثية الالوان * ومن السانكيلوت ـ قد فقدوا يقظتهم الثورية ، وخفتت حدة تحمسهم الوطنى ، فلم تحط بجاميلان والمعتدية عليه سوى حركات مضطربة ، متخاذلة .

وشقت جولى طريقها وسط المتجمعين ، وغابت فى الظلام .

الفصل الثالث والعشرون

• **استبد الاعياء** بايفاريست جاميلان ، ولكنه لم يقو على أن يرتاح .. فقد استيقظ واثبا — أربعا وعشرين مرة فى الليل — من نوم ملىء بالاحلام المزعجة . **ولم يتح له أن يحظى بالنعاس لبضع ساعات ، الا فى الحجرة الزرقاء ، بين أحضان ايلودى . وكان يتكلم ويصيح فى نومه ويقظته ، ولكنها لم تستطع أن تفقه شيئا من أقواله .**

وفى ذات صباح ، استيقظ وقد هده الاعيـاء واحاله الضعف طفلا ، بعد ليلة رأى فيها الاخوات أومنيد (٩٠) .

---

(٩٠) مأساة اخيل ، احدى القصص الاغريقية الثلاث التى تؤلف ثلاثية «أوريست» . وهى تروى وصول أوريست الى اثينـا التى استلت منه غضب الاخوات «ارينيس» ، اللائى اصبحن الأخوات «اومنيد» . وهن — فى الاساطير — بنات الارض ، الموكلات بالعقاب من الجرائم الانسانية . وكانت شعورهن مجدولة بالثعابين ، ويحملن فى يد مشـعلا محرقا ، وفى الاخرى خنجرا . ويقصد المؤلف بايراد هذه التورية ان يكشف من شعور ايفاريست — فى دخيلته — بالذنب والاجرام .

وتخلل الفجر ستائر الحجرة بأشعته الباهتة . وكان شعر ايفاريست - المهدل على جبينه - يحجب عينيه بعصابة سوداء .. وراحت ايلودى - وهى واقفة بجوار السرير - تفرق الخصلات النافرة بلطف ، وهى - فى هذه المرة - تتأمل التعس بحنان الاخت ، وتمسح بمنديلها العرق الباردالمتفصد من جبينه .

وتذكر اذذاك المنظر الجميل المأخوذ عن قصة «أوريست» ، كما وضعها « يوريبيد » ، والذى كان قد حاول رسمه فى لوحة ، لو قدر له أن يتمها لكانت تحفة عمره .. منظر « اليكترا » المنكودة ، وهى تمسح الزبد عن فم أخيها !

وخيل اليه كذلك ، انه سمع ايلودى تقول بصوت لطيف : « اصغ الى ياأخى العزيز ، وأنت بعد مسيطر على عقلك .. »

وفكر فى نفسه : « على اننى لم أكن قط عاقا . بل اننى - على النقيض - ارقت دم أعداء وطنى الدنس ، بدافع من الحب البنوى » !

الفصل الرابع والعشرون

• لم تكن لمؤامرة السجون نهاية . وغصت منصة المتهمين المدرجة بتسعة وأربعين متهمـا . وكان « موريس بروتو » يشغل الطرف الايمن من أعلى درجة ، وهو مركز الشرف !.. وقد ارتدى ردينجوته الذى نظفه بعناية – فى اليوم السابق – ورتق الجيب الذى كان ديـوان « لوكريس » قد أبلاه على طول الزمن . والى جواره كانت المرأة « روشمور » بأصباغها ومساحيقها ، بادية الاشراق ، ورهيبـة فى الوقت ذاته . ووضع الاب لونجمار بينها وبين الفتاة اثينائيس ، التى كانت قد استردت نضرة صباها فى سجن « المادلونيت » .

وكان الشرطة قد دسوا على الدرجات أناسـا لم يكن المتهمـون يعرفونهم ، وربما لم يكن بينهم من يعرف الآخر ، أو يعرف عنه شيئا .. ومع ذلك فقد كانوا جميعـا – من

برلمانيين وصحفيين ونبلاء سابقين وبورجوازيين وبورجوازيات متآمرين !.. ولمحت المواطنة روشمور «جاميلان» على مقعد المحلفين . وبالرغم من انه لم يكن قد أجاب على خطاباتها المؤثرة ، وعلى رسائلها المتكررة ، فانها ظلت تأمل فيه خيرا ، فأرسلت اليه نظرة استعطاف ، وحاولت ان تبدو له جميلة ، وأن تحرك مشاعره . ولكن نظرة القاضى الشاب قضت ببرودها على كل وهم كان يداخلها .

وقرأ كاتب الجلسة الاتهام ، الذى كان طويلا برغم ايجازه بالنسبة لكل متهم .. وشرح فى تلخيص عام المؤامرة المنكرة ، التى نسجت فى السجون لاغراق الجمهورية فى دم ممثلى الأمة وشعب باريس . واذ اورد دور كل واحد ، قال :

ـ من أخبث مؤلفى هذه المؤامرة المنكرة ، المدعو بروتو ، سيد ديزيليت سابقا ، وجامع الاموال فى عهد الطاغية . فان هذا الرجل الذى امتاز ـ حتى فى عهد الطغيان ـ بمسلكه المنحل ، دليل اكيد على ان الاباحية وسوء الاخلاق هما اكبر اعداء حرية الشعوب وسعادتها .. والواقع ان هذا الشخص ـ بعد ابتزازه الاموال العامة ، وتبديده قسطا كبيرا من قوت الشعب على الفجور ـ قد اشترك مع خليلته القديمة ، المرأة روشمور ، فى مراسلة المهاجرين ، واطلاع عملاء الاجنبى ـ فى غدر وخيانة ـ على احوالنا المالية ، وتحركات جيوشنا ، وتطورات الرأى العام .. وقد كان بروتو ـ فى هذه الفترة من حياته المشينة ـ يعيش فى البغى مع عاهر التقطها من وحل شارع (فرومينتو) ، هى الفتاة أثينائيس .. وقد استغلها بسهولة فى اغراضه ، واستخدمها فى التحريض ضد الثورة بصيحات بذيئة واقوال مثيرة وقحة .

« ان بعض أقوال هـذا الرجل المنحوس تبين لكم بجلاء أراءه الوضيعة وأغراضه الشريرة . ففى عرض الحديث عن هـذه المحكمة الوطنية ، المنعقدة اليوم لمحاسبته ، قال فى غير حيـاء : « ان المحكمـة الثورية تشبه مسرحيـة من مسرحيات وليم شكسبير ، تمتزج فى مناظرها أدمى الفواجع واكثر المزح سماجة » ! .. وكان لا يفتأ يبشر بالالحاد كأضمن وسيلة لجر الشعب والقائه فى وهـدة الانحطاط الخلقى .

وفى سجن (الكونسييرجيرى) ـ حيث كان سجينا ـ راح ينعى على جيوشنا الباسلة انتصاراتها ويعتبرها من أكبر المصائب ، وعمد الى القاء الشبهات على أكثر قادتنا وطنية ، ويتهمهم بالعمل لأغراض طغيانية . فكان يقول بلهجة بذيئة يعف القلم عن نقلها : « انتظروا .. أجل ، ارتقبوا أن يقـدم يوما أحد حملة السيف هؤلاء ـ الذين تدينون لهم بنجاتكم ـ على ابتلاعكم كما ابتلعت البومة الضفادع ، فى الأساطير » .

واستطرد قرار الاتهام ، على هذا النسق :

ـ وليست المرأة روشمور ، النبيلة السابقـة وخليلة بروتو ، أقل منه اثما . فهى لم تكن تراسل الأجنبى فحسب ، ولم تكن أجيرة « بيت » فقط ، ولكنهـا كانت متواطئة مع رجال أشرار ـ من أمثال جوليان (دى تولوز) وشابو ـ وعلى اتصال ببارون باتز السابق . **وقد ابتكرت مع هـذا النذل كافة ألوان الحيل لتخفيض قيمة أسهم شركة جـزر الهند ، ثم شرائها بالبخس ، ورفع قيمتها ـ بعـد ذلك ـ بمكائد عكس الأولى ، والقضاء بذلك على الثروة الخاصـة والثروة العامة** . وفى سـجنى (لابورب) و (مادلونيت) لم تكف عن التآمر ، وعن التحريض ، وعن العمل بأساليبها المفسدة للتأثير على القضاة والمحلفين .

« اما لويس لونجمار ، النبيل السابق والكبوشى السابق ، فقد حاول ـ منذ وقت طويل ـ الافتراء والاجرام ، قبل ان يقوم بأعمال الخيانة التى يحاسب عليها هنا . وكان يعاشر الفتاة « جوركو » ـ المسماة أثينائيس ـ معاشرة مخزية ، تحت سقف بروتو المذكور .. فهو شريك لهذه الفتاة ، ولهذا النبيل السابق . ولم يكف ـ أثناء سجنه فى (الكونسيرجيرى) عن كتابة اساءات متعمدة للحرية وللأمن العام .

« ومن الحق أن نقول ـ بمناسبة « مارت جوركو » ، المسماة أثينائيس ـ أن الفتيات البغايا هن أفدح كارثة تحيق بالآداب العامة التى يلحق بها الامتهان ، وهن الوصمة التى تلوث المجتمع . ولكن ، ما جدوى الاطالة فى الحديث عن جرائمها المنكرة ، اذا كانت المتهمة تعترف فى غير حياء ؟.. »

واستطرد تقرير الاتهام ـ بعد ذلك ـ مستعرضا المسجونين الآخرين الخمسة والأربعين ، الذين لم يكن بروتو ، ولا الأب لونجمار ، ولا المواطنة روشمور يعرفون عنهم شيئا سوى أنهم قد رأوهم عدة مرات فى السجون .. ومع ذلك فان هؤلاء وأولئك كانوا منطوين جميعا فى هذه المكيدة الشنيعة ، التى لم يكن لها مثيل فى تواريخ الشعوب .

وانتهى الاتهام الى طلب عقوبة الاعدام لجميع المتهمين .

***

وكان « بروتو » أول من استدعى للاستجواب .

ـ هل كنت تتآمر ؟

ـ كلا ، لم اكن آتآمر . كل ما ورد فى قرار الاتهام ـ الذى سمعته لفورى ـ افتراء .

ـ اترى ؟ .. ها انتذا تتآمر الآن ـ فى هذه اللحظة ـ ضد المحكمة .

وانتقل الرئيس الى المرأة روشمور ، التى أجابت بانكارات مستميتة ، وبالدموع والضراعات .

أما الأب لونجمار ، فكان قد فوض امره نهائيا الى الله ، حتى انه لم يحضر معه دفاعه المكتوب . وراح يجيب عن كل الأسئلة التى وجهت اليه بروح الاستسلام . ولكنه احتد فجأة ـ حين نعتـه الرئيس بالكبوشى ـ وصاح : « لست كبوشيا ، بل أنا قس ورجل دين ، من المذهب البرنابى » . فأجاب الرئيس ببساطة : « سيان ! »

ورمقـه الأب لونجمار فى انفة ، وقال : **« لا يمكن للمرء أن يتصور خطأ أغرب من الخلط بين كبوشى ورجل دين من مذهب البرنابيين الذى يستمد تعاليمه من القديس بولس الرسول بالذات ! »** .. ودوت فى القاعة الضحكات والصفير . واخذ الأب لونجمار هذه المظاهر الساخرة على أنها استهجان لقوله ، فأعلن أنه على استعداد لأن يموت عضوا فى طائفة القديس برنابيه ، الذى يطوى قلبه على تقديسه .

وسأله الرئيس : « هل تقر بأنك كنت تتآمر مع الفتاة جوركو ـ المدعوة اثينائيس ـ التى كنت تؤثرها بالمعاشرة المستهجنة ؟ » .. وعند هذا السؤال ، رفع الأب لونجمار عينيه الى السماء بنظرة مليئة بالشجن ، وأجاب بصمت أفصح عن دهشة نفس تقية ، ووقار رجل دين يخشى أن ينطق بأقوال غير مجدية .

ووجه الرئيس سؤاله الى الشابة اثينائيس : « إيتها الفتاة جوركو ، هل تقرين بأنك كنت تتآمرين مع بروتو ؟ » .. فأجابت برقة ولطف : « اشهد ضميرى على ان السيد بروتو

لم يفعل سوى الخير . انه رجل ليت أمثاله كثيرون ، وليس هناك من يفضله . والذين يقولون عكس هذا انما يخطئون . وهذا كل ما أملك قوله » .. وسألها الرئيس عما اذا كانت تقر بأنها كانت تعاشر بروتو فى فسق . وكان عليه أن يشرح لها هذا التعبير الذى لم تسمعه من قبل . **ولكنها ما كادت تعى ما كان يرمى اليه ، حتى أجابته بأن الأمر كان متوقفا عليه ، ولكنه لم يطلبه !!**

وتعالت الضحكات فى المحكمة ، فتوعد الرئيس الفتاة جوركو بعدم سماع أقوالها ، اذا أجابت ثانية بهذه السخرية. واذذاك انطلقت تنعته بالجبان ، المنتفخ الأوداج ، الفاسق . وتقيأت عليه وعلى القضاة والمحلفين سيلا من الاهانات ، حتى اضطر الشرطة الى انتزاعها عن مقعدها ، واخراجها من القاعة .

واقتضب الرئيس — بعد ذلك — استجواب المتهمين الآخرين ، حسب ترتيبهم على المنصة . فأجاب شخص يدعى « نافيت » بأنه ما كان يملك أن يتآمر فى سجن لم يقض فيه سوى أربعة أيام . وقال الرئيس أن هذه الاجابة تستحق الاعتبار ، ورجا المواطنين المحلفين أن يزنوها فى حسابهم . وأجاب شخص يدعى « بيلييه » عين الاجابة ، فوجه الرئيس الى المحلفين عين اللفتة لصالحه .. وأول البعض هذا الكرم من القاضى بأنه منبعث عن انصاف مشكور .. وأوله بعض آخر على أنه أجر عن الوشاية .

وتكلم نائب المدعى العام ، فلم يزد على أن أسهب فى قرار الاتهام ، ثم وجه هذه الأسئلة : « هل ثبت أن موريس بروتو ، ولويز روشمور ، ولوى لونجمار ، ومارت جوركو — المدعوة اثينائيس — وأوسيب روشيه ، وبيير جايتون —

فابوليه ، ومارسيلين ديكورنى ، الخ الخ .. **قد ألفوا مؤامرة هدفها القتل ، والمجاعة ، وتزييف النقود والأوراق المالية ، وافساد أخلاق الشعب وروحه ، واثارة الفتن فى السجون .. بغرض اشعال حرب أهلية ، وحل نظام تمثيل الأمة ، واعادة الملكية ؟ »**

ولجأ المحلفون الى غرفتهم للتداول ، فاتفقوا بالاجماع على الادانة بالنسبة لجميع المتهمين ، ما عدا المدعوين « نافيت » و « بيلييه » ، اللذين اعتبرهما الرئيس - وحذا المدعى العام حذوه - خارج القضية . وعبر جاميلان عن حكمه بهذه العبارات : « ان ثبوت ادانة المتهمين يفقأ الأعين ، وعقابهم ضرورى لسلامة الوطن ، وخليق بهم أن يطلبوا بأنفسهم العقاب بوصفه الوسيلة الوحيدة للتكفير عن جرائمهم ! »

ونطق رئيس المحكمة الحكم فى غياب أولئك الذين كان يعنيهم . ففى تلك الأيام الحافلة ، كان المدانون لا يستدعون ثانية ليقرأ عليهم الحكم ، برغم ما نص عليه القانون . وذلك خوفا - ولا ريب - من أن يؤثر القنوط الذى يستولى على مثل هذا العدد الكبير من الأشخاص ، على الحضور . **فياله من خوف لم يكن له داع ، اذ كان انصياع الضحايا - فى تلك الأيام - بالغا ، وعاما ! .. وكان كاتب المحكمة يهبط ليقرأ الحكم على المدانيين فى «زنزاناتهم» فكانوا يسمعونه فى صمت ، وسط السكينة التى كانت تجعلهم أشبه بأشجار أعدت لتجتث !**

وأعلنت المواطنة روشمور انها حبلى . فدعى لعيادتها طبيب كان - فى الوقت ذاته - محلفا . وحملت الى «زنزانتها» مغشيا عليها .

وتنهد الأب لونجمار ، قائلا : « آه ! ان هؤلاء القضاة خليقون بالرثاء : فان حالهم العقلية متداعية .. انهم يخلطون بين كل الأشياء ، ويأخذون البرنابى على انه كبوشى » !

***

وكان تنفيذ الحكم مقررا فى اليوم ذاته ، عند سيدان الجذع المقلوب (ترون رنفرسيه) . ومكث المحكوم عليهم – وقد غصبوا على التزين ، وقصت شعورهم ، وقدت أقمصتهم – فى انتظار الجلاد ، مكدسين كالقطيع فى قاعة صغيرة ، يفصلها عن غرفة كاتب المحكمة سياج زجاجى . وما أن وصل الجلاد وأعوانه ، حتى وضع « بروتو » علامة عند الصفحة التى انتهى اليها من « لوكريس » ، وأقفل الكتاب فى سكون ، ودفعه فى جيب « ردينجوته » ، وقال للبرنابى : « لا يثير غيظى ، أيها الأب الموقر ، سوى اننى لن يتاح لى أن أضلك . لسوف نرقد معا رقدتنا الأخيرة ، ولن أملك ان أجذب كمك ، وأن أوقظك لأقول لك : أترى ؟ .. لم يعد لك شعور ولا ادراك ، فأنت بلا حياة .. وان الذى بعد الحياة ليشبه ما قبلها ! »

وود أن يبتسم ، ولكن ألما فظيعا خنق قلبه وأحشاءه ، فكاد يهوى الى الأرض . على انه سرعان ما تمالك نفسه وقال : « اننى أطلعك على ضعفى يا أبت .. اننى أحب الحياة ، ولا أتركها دون أسف وحسرة ! » . فأجاب القس فى ترفق : « **لعلك أشد منى شجاعة ياسيدى ، ومع ذلك فأنت أكثر منى بغضا للموت . ما معنى هذا ، اللهم الا اننى أرى النور الذى لم تعد أنت تراه !** » .. فقال بروتو : « من الممكن أيضا أن يكون معناه أننى آسف على الحياة ، لأننى

استمتعت فيها بأكثر مما أستمتعت انت » يا من جعلتها اشبه بالموت ! » . وقاب الأب لونجمار ، وقد شحب وجهه : « اننا فى لحظة عصيبة ياسيدى . فليساعدنى الرب ! .. من المؤكد اننا سنموت بدون معونة روحية ، فلا بد انني — فى الأيام الخالية — قد تلقيت الأسرار القدسية بتراخ وبقلب جاحد ، حتى ان السماء تمنع عنى اليوم معونتها ، وأنا أشد ما أكون حاجة اليها » .

وكانت المركبات فى الانتظار ، فألقى فيها المحكوم عليهم ، وايديهم مغلولة . ودفعوا بالمرأة « روشمور » — التى لم يعترف الطبيب بحملها — فى احدى المركبات . ووجدت بقية من قواها ، مكنتها من أن تتأمل حشد النظارة ، آملة — حتى اللحظة الأخيرة — فى أن تصادف منقذا . وكانت عيناها تفيضان ضراعة .. وبدا الحشد اقل ازدحاما مما كان فى الأيام السالفة ، وتحمس القوم أقل حدة . فلم تكن هناك سوى بضع نسوة رحن يهتفن : « الى الموت ! » ، أو يسخرن من أولئك المساقين للموت . أما الرجال فقد هزوا اكتافهم ، واشاحوا بوجوههم ، ولاذوا بالصمت .. سواء عن حكمة ، او عن احترام للقانون .

وسرت فى القوم رجفة ، حين اجتازت ((أثينائيس)) الباب ، فقد بدت كأنها طفلة . ونكست رأسها أمام رجل الدين ، وقالت : ((سيدى القس .. باركنى !)) .. وتمتم الأب لونجمار بالعبارات المقدسة فى وقار ، وقال : ((لقد ترديت يا ابنتى فى زلات كبيرة ، ولكن .. لعلنى لا أملك أن أرفع الى المولى قلبا أكثر بساطة من قلبك !))

واعتلت المركبة بخفة . وهناك ، شدت صدرها ورفعت رأسها فى شمم ، وهتفت : « ليحى الملك ! » . ثم أشارت لبروتو بايماءة خفيفة ، ترشده الى مكان خال بجوارها .

فساعد بروتو القس على الصعود ، واتخذ مكانه بين رجل الدين والفتاة البريئة .

وقال الأب لونجمار للفيلسوف الابيقورى : « أسألك جميلا ياسيدى .. ادع هـذا الرب ـ الذى لم تعد تؤمن به ـ من أجلى .. فليس ثمة ما يقطع بأنك لست أقرب اليه منى أنا ، فنحن فى لحظة يحق فيهـا أن تراجع نفسك ، ولن تحتاج لأكثر من ثانية كى تصبح الابن المقرب الى الرب . صل من أجلى ياسيدى ! »

وما أن تحركت العجلات ـ فى صريف ـ على الطريق الطويلة المرصوفة ، حتى استغرق القس فى تلاوة صلاة الاحتضار ، بقلبه وشفتيه . وراح « بروتو » يسترجع من الذاكرة أبياتا شعرية عن الطبيعة ، ويحاول أن يتجلد ـ برغم ما كان يعانى من قيوده ومن ارتجاج العربة البشعة ـ وأن يتظاهر بأنه كان خلوا من الهموم .. والى جـواره ، كانت أثينائيس مزهوة بأنها ستموت ميتة ملكة فرنسا ، فراحت ترمق القوم بنظرة متعالية .. والمالى الشيخ يتطلع الى نحرها الأبيض الغض ، فيتحسر على نور النهار !

الفصل الخامس والعشرون

• **بينما** كانت المركبات منطلقة ـ يحيط بهـا الحرس ـ نحو ميدان (ترون رنفرسيه) ، تحمل بروتو وزملاءه الى الموت ، كان ايفاريست يجلس مستغرقا فى التفكير ، على مقعد فى حديقـة (التويلرى) .. كان فى ارتقاب « ايلودى » ، والشمس تميل نحو الأفق ، مرسلة سهامها الملتهبة ، خلال أشجار الكستناء الكثيفة . وعنـد مدخل الحديقة ، كان تمثال « الشهيرة » على جوادها المجنح ، وهى تنفخ بوقهـا

الازلى .. وباعة الصحف يصيحون بنبأ انتصار « فلورو » العظيم .

وقال جاميلان لنفسه : « أجل ، النصر لنا ، وقد دفعنا الثمن ! »

ورأى بعين خيالة القادة المسيئين ، يجرون ظلالهم المقضى عليها بالفناء ، فى الغبار الملطخ بالدماء ، فى هذا الميدان الذى أعدموا فيه .. ميدان الثورة . وابتسم بزهو ، وقد دار بخلده أنه لولا أعمال القسوة — التى ساهم فيها — لكانت جياد النمسويين تقتات الآن على قشور هذه الأشجار ! .. وصاح فى دخيلة نفسه : « **أيها الارهاب المبارك ، أيها القديس ارهاب !** .. فى مثل هذا الوقت من العام الماضى ، لم يكن لدينا من مدافعين سوى شجعان مدحورون ، مهلهلون . وكانت أرض الوطن مغزوة ، وثلثا المقاطعات متمردة .. أما الآن فجيوشنا مجهزة أيما تجهيز ، مدربة خير تدريب ، تحت قيادة قادة بارعين ، تتحول الى الهجوم ، متأهبة لحمل الحرية الى العالم بأسره .. السلام يسود جميع ارجاء الجمهورية .. **أيها الارهاب المبارك ! يا قديس ارهاب ! أيتها المقصلة الحبيبة !** .. فى مثل هذه الفترة من العام الماضى ، كانت المكائد تمزق الجمهورية ، واخطبوط الاتحاد يهدد بابتلاعها .. أما الآن ، فالوحدة اليعقوبية تبسط فوق الامبراطورية قوتها وحكمتها » .

ولكنه كان واجما ، وقد تخلل جبينه تغضن عميق ، وبدا فمه مزموم الشفتين . وراح يقول لنفسه : « كنا نقول : **النصر أو الموت** ! .. لقد كنا مخطئين ، فقد كان ينبغى أن نقول **النصر والموت** ! »

وتلفت حوله .. كان الأطفال يشيدون أكواما من الرمل ، والمواطنات — على مقاعدهن الخشبية تحت الأشجار — يطرزن

أو يتجاذبن أطراف الحديث ، والمـارة ــ فى الزى القومى ، أو « بنطلونات » على الطراز الأجنبى ــ يفكرون فى أعمالهم أو فى ملاهيهم ، وهم عائدون الى مساكنهم . وشعر « جاميلان » بانه وحيد بينهم ، وكانه فى غير زمانهم ، ولا دنياهم .. فما الذى جرى اذن ؟ .. كيف أعقب حماس السنوات الجميلة عدم الاكتراث، والسأم ، وربما النفور ؟ ..
كان من الجلى أن هؤلاء الناس لم يكونوا راغبين فى سماع الحديث عن محكمة الثورة ، وقد أصبحوا يشيحون بوجوههم عن المقصلة ! .. حتى لقد نقلت المقصلة من ميدان الثورة الى أقصى ضاحية (أنتوان) ، اذ أصبحت تثير الاستهجان . ومع ذلك ، فحتى عند مرور المركبات ، أصبحت التمتمة تسرى بين الناس . بل قيل أن أصواتا ارتفعت صائحة : « كفى ! »

« كفى ، ولا يزال هنـاك خونة ومتآمـرون ؟!.. كفى ، والواجب يدعو الى تجديد اللجان ، وتطهير المؤتمر ؟ ! .. كفى ، والأنذال يشوهون سمعة ممثلى الأمة ؟ ! .. كفى ، والتدبير يرمى الى القضاء على العدالة ، حتى فى محكمة الثورة ؟ ! .. حقا ، انه لأمر يستبشعه الفكر ، ولكنه حقيقى الى حـد كبير ! .. بل ان « فوكييـه » نفسه كان يدبر المكائد ، وذلك للقضاء على مكسميليان الذى ضحى من أجل نفسه ــ فى أبهـة ــ بسبع وخمسين ضحية جرجرت الى الموت فى قميص العقوق الأحمر .. الى أية شفقة مجرمة تسلم فرنسا نفسها ؟ .. كان من الواجب اذن ، انقاذها ، بالرغم منها .. وكلما صاحت بالعفو ، سدت الآذان ، وهوت الضربات ! .. واحسرتاه ! .. لقد تقررت المصائر ، فاذا الوطن يلعن منقذيه .. فليلعننا ، ولكن لا بد من انقاذه !

« من التمادى أن نقضى على ضحـايا مغمـورين ، من

ارستقراطيين ، وماليين ، ومشرعين ، وشعراء ، ومن يدعى « لافوازييه » و « اندريه شينييه » .. انما الواجب القضاء على الأنذال ذوى القوة والنفوذ ، الذين يعدون العدة — وايديهم مليئة بالذهب ، وهى تعاف الدم — لهدم الجبل .. اولئك اشياع فوشيه ، وتاليان ، واتباع روفير ، وكاريه ، وبوردون . يجب تخليص الدولة من كافة أعدائها . لو كان « هيبير » قد انتصر ، لانقلب المؤتمر ، ولانحدرت الجمهورية نحو الهاويات .. لو آن ديمولان ودانتون انتصرا ، لأسلم المؤتمرالجمهورية — وقد جرد من ميزاته — الى الارستقراطيين ، والى مثيرى الفتن والى القادة .. لو أن أنصار تاليان وفوشيه — من الوحوش المترعة بالدماء والمتخمة بالاسلاب — انتصروا ، لغرقت فرنسا فى الجريمة والفحشاء .. انك تنام يا روبسبيير ، فى حين أن المجرمين ، الذين اسكرهم الفيظ والرعب ، يدبرون موتك وجنازة الحرية . لكم تتأخران — ياكوثون ، وياسان جيست — فى كشف ستر الدسائس !

« عجبا ! .. لقد كانت الدولة القديمة — الوحش الملكى — تؤمن سلطانها بسجن أربعمائة ألف رجل فى كل عام ، وبشنق خمسة عشر ألفا ، وتمزيق ثلاثة آلاف على العجلة .. ومع ذلك ، فلا تزال الجمهورية تتردد ازاء تضحية بضع مئات من الرؤوس من أجل سلامتها وسلطانها !.. لنفرق فى الدم ، لكى ننقذ الوطن ! .. »

***

وفيما كان يفكر على هذا النمط ، اقبلت « أيلودى » مهرعة ، شاحبة ، لاهثة . وسألته : « ما الذى تبتغى اطلاعى عليه يا ايفاريست ؟ .. لماذا لم تأت الى « لامور بانتر » ، فى الحجرة الزرقاء ؟ .. لماذا اضطررتنى الى المجىء الى هنا ؟ »

ـ لأودعك وداعا أبديا !

وتمتمت بأنه كان مجنونا ، وانها لم تكن تفهمه .. فأشار بايماءة خفيفة من يده يستوقفها عن الكلام ، وقال : **« لم أعد أقوى على قبول حبك يا ايلودى ! »**

ـ صه يا ايفاريست ! .. صه !

ورجته أن يبتعدا عن مكانهما الى حيث لا تلمحهما أعين ولا تسمعهما آذان . وسارا عشرين خطوة ، واستطرد فى هدوء : « لقد قدمت لحزبى قربان عمرى وشرفى . وسأموت نكرة ، ولن أورثك ـ أيتها التعسة ـ سوى ذكرى شنيعة .. **أنحن متحابان ؟ .. أمن الممكن أن يحبنى أحد بعد اليوم ؟ .. وهل أملك أن أحب ؟ »**

ورمته بالجنون ، فقد كانت تحبه ، وباقية على حبه دائما . وكانت تتكلم بحرارة واخلاص ، ولكنها شعرت مثله تماما ـ بل أكثر منه ـ أنه كان على صواب ، فراحت تناضل ضد الواقع . وعاد يقول : « لست الوم نفسى على شىء ، والذى فعلته ، لن أحجم عن فعله ثانية . لقد جحدت نفسى من أجل الوطن . اننى ملعون ! .. لقد أخرجت نفسى من البشرية ، ولن أعود اليها البتة . كلا ! .. ان المهمة الكبرى لم تتم بعد . آه !.. الرحمة ، العفو ؟!.. هل يغفر الخونة ؟ .. هل يرحم المتآمرون ؟ .. ان الأنذال الجاحدين يزدادون عددا ـ بلا انقطاع ـ ويخرجون من جوف الأرض ، ويتسللون من كافة الحدود : شبابا كان الأفضل لهم أن يهلكوا فى جيوشنا .. وشيبا ، وأطفالا ، ونساء ، يتوارون خلف أقنعة البراءة ، والطهر ، والوداعة .. وكلما حصدناهم ، وجدنا أكثر منهم .. **الا ترين أن من الواجب أن أنبذ الحب والهوى ، وكافة مباهج الحياة وكل ترفها ، بل والحياة ذاتها ؟! »**

ولاذت بالصمت .. كانت قد خلقت لتتذوق اللذات الناعمة . ولقد روعت ــ منذ أكثر من يوم ــ اذ احسست تحت قبلات عاشق حزين ، بنزعات جامحة ، ذات طابع دموى .. لذلك لم تحر جوابا . وتجرع ايفاريست صمتها ككأس مريرة . وعاد يقول : « انك لترين بجلاء يا ايلودى ، اننا ننحدر .. ان عملنا يلتهمنا . أيامنا ــ بل ساعاتنا ــ سنوات . ولن البث أن أكون قد عشت قرنا . تأملى هذه الطلعة ! أهى طلعة عاشق .. قادر على الحب ؟! »

ــ انك لى يا ايفاريست ، وسأحتفظ بك ! .. لن أحلك ، ولن أرد اليك حريتك !

وكانت فى حديثها لهجة التضحية . ولقد شعر هو بذلك .. وشعرت هى بدورها .. وعاد يقول : « هل تستطيعين يا أيلودى ، أن تشهدى يوما بأننى عشت وفيا لواجبى ، وان قلبى كان سليما ، وروحى طاهرة ، ولم تكن لى بغية سوى الصالح العام ، واننى خلقت مرهف الحس ، حنونا ؟ .. هل ستقولين : « لقد أدى واجبه » ؟ .. ولكن ، لا .. لن تقولى هذا . ولست اطالبك بأن تقوليه . ألا أقضى على ذكراى ! .. ان مجدى فى فؤادى ، والخزى يحدق بى . واذا كنت قد أحببتنى ، فافرضى على اسمى صمتا أبديا » .

وفى تلك اللحظة ، ألقى طفل ــ فى الثامنة او التاسعة من عمره ــ بنفسه بين ساقى جاميلان . فرفعه هذا بين ذراعيه فجأة ، وقال : « **لسوف تشب ــ أيها الطفل ــ حرا ، سعيدا ، وستدين بهذا الى جاميلان النكرة . اننى جائر لكى تكون أنت سعيدا .. اننى قاس لكى تكون طيبا .. اننى لا أرحم ، حتى يتسنى للفرنسيين جميعا ــ فى الغد ــ أن يتعانقوا ، وأن يذرفوا دموع الفرح !** » .. وضم الصغير الى صدره ، وأردف : « أيها الصغير .. ستكون مدينا لي بهنائك

وبراءتك اذا ما صرت رجلا .. ومع ذلك ، فاذا قدر لك يوما أن تسمع اسمى ، فسوف تلعنه ! »

واعاد الطفل الى الأرض ، فأسرع هـذا وارتمى جزعا فى حجر أمه ، التى كانت قـد أقبلت مهرعة بحثا عنه .. وامسكت هـذه الأم — التى كانت جميلة ، وذات جـلال أرستقراطى ، فى ثوبهـا « اللينو » الأبيض — بصغيرها ، فى ترفع . فرمق جاميلان « ايلودى » بنظرة ضارية ، وقال : **« لقـد احتضنت هـذا الصغير ، ولعلى سأرسل أمه الى المقصلة ! »** . وابتعـد بخطى واسـعة ، تحت الأشـجار المتناسقة .. وظلت « ايلودى » لحظـة لا تحير حراكا ، ونظراتهـا مسمرة الى الأرض . ثم اندفعت فجـاة وراء حبيبها ، وامسكت به فى هياج — وهى مشعثة — وتشبثت به وكأنها تهم بأن تمزقه ، وصاحت فيه بصوت اختنق بالدم والدموع : **« ليكن ! .. ارسلنى أنا الأخرى ، يا أعز حبيب ، الى المقصلة ! .. سقنى أنا الأخرى ليقطعوا راسى ! »**

وسرت رعدة فى كيانها بأسره — فى جزع ونشوة — وهى تتصور السكين على عنقهـا !

الفصل السادس والعشرون

• **بينما** كانت شمس احد الايام الاولى من « ثيرميدور » (٩١) تهجع فى فيض من الأرجوان الدموى ، راح « ايفاريست » يضرب على غير هدى — وهو مكتئب مهموم — خلال حدائق (ماربيف) ، وقد باتت من الممتلكات القومية ، التى يتردد

(٩١) ثيرميدور : الشهر الحادى عشر من التقويم الثورى . من ٢٠ يوليو الى ١٨ اغسطس . وقد شهد ٩ ثيرميدور من العام الثانى فى هـذا التقويم (٢٧ يوليو ١٧٩٤) انهيار روبسبيير ، وانتهاء عهد الارهاب .

عليها الباريسيون فى فراغهم . هناك كان القوم يتناولون شراب الليمون والمثلجات . وكانت هناك جياد خشبية وحلقات للرماية ، يرتادها الشبان الوطنيون . وتحت احدى الأشجار ، كان ثمة صبى من (سافوا) ، فى ثوب بال ، تتوج رأسه قلنسوة سوداء ، وقد راح يعزف نشازا ، على طنبور ، لترقص عليها فأرة كبيرة كانت معه .. ووقف ينصت الى الموسيقى الركيكة رجل لم يفارق مرحلة الشباب بعد ، نحيل الخصر فى بزة زرقاء ، وقد ذر على شعره (البودرة) ، واصطحب كلبا ضخما .

وعرف ايفاريست فى الرجل « روبسبيير » . وألفاه شاحبا ، هزيلا ، وقد ذبل وجهه وتخللته أمارات الألم والشجن . فقال فى نفسه : « أية متاعب وأية آلام تركت طابعها على وجهه ؟ .. ما أقسى العمل من أجل سعادة الناس ! .. ترى فيم يفكر ، فى هذه اللحظة ؟ .. هل اجتذبته أنغام الطنبور الجبلية من هموم الشواغل ؟ .. **أتراه يفكر فى أن بينه وبين الموت ميثاقا ، وأن ساعة الوفاء قد اقتربت ؟ .. أم هو يفكر فى العودة مظفرا الى لجنة الأمن العام ، التى انسحب منها اذ سئم أن ظل مكبوح الجماح فيها ــ مع كوثون وسان جيست ــ بفضل أغلبية متمردة ؟ .. ترى أية آمال ، أو أية مخاوف تعتمل وراء هذا الوجه الذى لا يشف عن شىء ؟ »**

على أن مكسيميليان ما لبث أن ابتسم للصبى ، ووجه اليه ــ بصوت رقيق وبشاشة ــ بضعة أسئلة عن الوادى ، والكوخ ، والأبوين اللذين فارقهما الصبى الفقير . ثم رمى اليه بقطعة من النقود ، واستأنف سيره . وبعد أن قطع بضع خطوات ، ارتد لينادى كلبه ، الذى لم يكد يشم عبير الفارة ، حتى كشر عن أنيابه ، فانكمشت مذعورة : « برونت !..

برونت ! » . وما لبث أن غاب فى الذروب المعتمة .

ولم يقترب جاميلان من الرجل ، احتراما اوحدته . ولكنه راح يتأمل الجسم النحيل الذى توارى فى الليل ، وقال يناجيه فى نفسه : « لقد رأيت حزنك يا مكسميليان ، وأدركت تفكيرك . ان شجنك ، ونصبك ، بل ومظهر الذعر فى نظراتك .. كلها تقول : « ليت الارهاب ينتهى ، ولتبدأ الاخوة ! .. الا اتحدوا آيها الفرنسيون ، وكونوا أخيارا ، وكونوا طيبين ! .. ليحب بعضكم بعضا ! » .. ليكن ! سأسعى الى غاياتك ، حتى تستطيع ـ بحكمتك وطيبتك ـ أن تقضي على ألوان الشقاق الداخلى ، وان تخمد العداوات المشبوبة ، وتجعل من الجلاد بستانيا لا يحصد سوى رؤوس الكرنب والخس .. **سأمهد وزملائي فى المحكمة لأصوات الرحمة ، بأن نبيد المتآمرين والخونة . وسنضاعف يقظتنا وصرامتنا ، ولن يفلت منا مذنب واحد . فاذا ما سقطت رأس آخر عدو من أعداء الجمهورية ـ تحت السكين ـ حق لك أن تلين دون أن يكون اللين ذنبا ، فترفرف البراءة والفضيلة على فرنسا ، يا أبا الوطن ! »**

وكان « المعصوم » قد ابتعد . وعند منعرج الدرب ، صادفه رجلان يلبسان قبعتين مستديرتين (٩٢) ، وسروالين حريريين ، يبدو أحدهما شرسا ، طويلا ، نحيلا ، يضع على عينه ضمادة ، ويشبه « تاليان » .. فألقيا عليه نظرة من ركن العين ، ثم تظاهرا بعدم معرفته ، ومضيا فى سيرهما . حتى اذا ما صارا على مسافة طويلة ـ لكى لا يسمعهما ـ غمغم أحدهما بصوت خفيض : « **هاهو ذا الملك .. البابا .. الرب . أجل ، انه رب ، وكاترين ثيو نبيته ! »**

ـ الدكتاتور ، الخائن ، الطاغية !.. ما اشبهه ببروتس .

---

(٩٢) كانت القبعة المستديرة رمزا لانصار العهد السابق على الثورة.

ـ الا ارتجف يا وغد ، فقد أشرفت على هاوية النهاية ! واقترب منهما الكلب «برونت» ، فصمتا ، واسرعا الخطى.

الفصل السابع والعشرون

• استيقظ يا روبسبيير !.. الساعات تجرى ، والوقت الثمين ينصرم ..

وأخيرا ، نهض « المعصوم » ، فى المؤتمر ، وهم بأن يتكلم ، فى الثامن من ثيرميدور .. أتراك تشرقين ثانية ، يا شمس ٣١ مايو ؟ (٩٣) .. ويرتقب «جاميلان» ، وفى نفسه أمل . اذن فقد اعتزم روبسبيير أن ينتزع عن المقاعد أولئك المشرعين الذين امتهنوها ، والذين كانوا أعظم جرما من الاتحاديين ، واشد خطرا من « دانتون » .. كلا ، لم يؤن الأوان بعد . وها هو ذا يقول : « لست أملك أن أقرر ازاحة كل الستار التى تحجب مأساة الظلم الغامضة ! » .. وتبددت العاصفة ، دون أن تصيب صواعقها أحدا من المتآمرين ، وأن بثت الذعر فى نفوس الجميع ، حتى لقد كان من السهل ان نجد ستين شخصا ظلوا ـ منذ أسبوعين ـ لا يجسرون على أن يسلموا جنوبهم للمضاجع ! .. **لقد اعتاد ((مارا)) أن يعين الخونة باسمائهم ، وأن يشير اليهم باصبعه . أما ((المعصوم)) فقد تردد ، ومنذ تلك اللحظة أصبح هو المتهم ..**

وفى منتدى اليعاقبة ـ فى ذلك المساء ـ غصت القاعة والردهات ، والفناء .. كان الجميع هناك ، الأصدقاء الصاخبون ، والاعداء الصامتون .. وقرأ عليهم روبسبيير

(٩٣) ٣١ مايو سنة ١٧٩٤ : تاريخ الانقلاب الذي ادي الي بداية عهد الارهاب .

خطابه الذى اصغى اليـــه المؤتمر فى صمت رهيب ، فقابله اليعاقبة بالتصفيق والهتاف الحارين .

وقال الرجل : « هـــذه وصيتى قبل الموت ، وسترونني اجرع الكأس هادئا ! » . فصاح دافيد : «سأشربها معك !» .. وصرخ اليعاقبة وهم يتفرقون دون ما قرار : « كلنا ! .. كلنا ! »

وبينما كان الموت يتأهب للانقضـــاض على « العادل » ، هجع ايفاريست هجعة الحواريين فى بستان الزيتون (٩٤). وفى اليوم التـــالى ، ذهب الى المحكمـــة ، حيث انعـــقدت دائرتان . وتولت الدائرة ــ التى اشترك فيهـــا ــ محاكمة واحد وعشرين من المتهمين فى مؤامرة سجن لازار . وفى تلك الأثناء ، وصلت الأنباء تقول : **((أصدر المؤتمر ــ بعد جلسة استغرقت ست ساعات ــ توجيـــه الاتهام الى مكسميليان روبسبيير ، وكوتون ، وسان جيست .. ومعهم أوجستين روبسبيير ، وليبا ، اللذان طلبا ان يشاطرا المتهمين مصيرهم . وقد أحيل الخمسة المعزولون الى المحاكمة))** .

ونمى الى القوم أن رئيس الدائرة التى كانت منعقـــدة فى القاعة المجاورة ــ المواطن دوما ــ قد اعتقل وهو فى مقعده أثناء الجلســـة ، ولكن الجلســـة استمرت . وسمعت دقات الطبول ، ورنين النواقيس .

وتلقى ايفاريست ــ وهو فى الجلسة ــ أمرا من «الكومون» بالذهاب الى مقر مجلس المدينة (أوتيل دى فيل) ، لينضم الى المجلس العام . وبين قرع الطبول والنواقيس ، أصدر حكمه مع زملائه ، ثم هرع الى مسكنه ، فعانق أمه ، واخـــذ وشاحه .

وكان ميدان (تيوئفيل) مقفرا ، فان القطاع لم يجرؤ على

(٩٤) التشبيه مستمد مما جرى للسيد المسيح عشية قرار صلبه .

ان يعلن رايه ، ان مع المؤتمر أو ضـده . ومن ثم فقد راح الناس يتسللون بجوار الجدران ، ويهرعون فى الدروب ، ثم يلوذون ببيوتهم . كان رنين النواقيس وقرع الطبول يتجاوبان مع جلبة أبواب « الزنزانات » ، وقعقعة الاقفال وهى تغلق . واختبأ المواطن دوبون النجار فى حانوته ، واعتصم البواب « ريماكل » فى مسكنه .. واحتضنت الصغيرة جوزفين الكلب « موتون » فى خوف .. وراحت المواطنـة الارملة جاميلان تشكو من غلاء الاقوات ، أس كل المصائب .

وعند نهاية السلم ، التقى ايفاريست بايلودى ، وقد تقطعت أنفاسها ، وتهدلت خصلاتها السوداء ملتصقة بخدها المبلل بالعرق .

– لقد بحثت عنك فى المحكمة ، ولكنك كنت قد انصرفت . الى أين انت ذاهب ؟

– الى (أوتيل دى فيل) .

– لا تذهب الى هناك !.. لسوف تودى بنفسك الى التهلكة ، فقد اعتقل هانريو .. ولن تفعل دوائر محكمة الثورة شيئا .. ستظل دائرة (بيك) – التى أحيل اليها روبسبيير – ساكنة .. اننى على بينة من هذا ، فان أبى عضو فيها . ولو أنك ذهبت الى (أوتيل دى فيل) لأضعت نفسك فى غير جدوى .

– أتريدين أن أكون جبانا ؟

– بل الشجاعة فى أن تكون مواليا للمؤتمر ، مطيعا للقانون .

– عندما ينتصر الأنذال ، يموت القانون .

– الا اصغ الى حبيبتك ايلودى ، يا ايفاريست .. استمع الى أختك ، وتعال فاجلس بجانبها ، حتى تهدىء نفسك المضطربة .

وتأملها .. أبدا لم تلح له مشتهاة كما كانت اذ ذاك !..

ابدا لم يدو هذا الصوت فى أذنيه بمثل هذا الاغواء والاغراء .

ـ خطوتان .. خطوتان فقط ، يا حبيبى !

***

واجتذبته الى بقعة خالية من الأرض ، قامت فيها قاعدة التمثال المحطم . وكانت تحيط بها مقاعد لجلوس المتنزهين والمتنزهات . وكانت ثمة بائعة تعرض قطعا من «الدانتيل» .. وبائع الشراب يحمل قدره على ظهره ، ويجلجل بناقوسه الصغير .. وفتيات يبدين مفاتنهن . وعلى ضفة النهر كان بعض الصيادين يجلسون ساكنين ، وقصباتهم فى أيديهم . وكان الجو ينذر بعاصفة ، والسماء مكفهرة . وانحنى جاميلان على سياج الضفة ، وغاص بنظراته فى الجزيرة التى تبرز كأنها مقدم سفينة ، وأخذ يصغى الى عزيف الريح وحفيف الشجر . وشعر برغبة تتسلل الى أغوار نفسه .. رغبة فى السلام ، والعزلة !

ومضى صوت ايلودى يهمس ، وكأنه صدى أفكاره : « أتذكر كيف تمنيت ، اذ رأيت الحقول ، أن تكون قاضى صلح فى قرية صغيرة ؟.. أن السعادة خليقة بأن تكون فى وضع كهذا » .

ولكنه كان يسمع النواقيس والطبول ، وجلبة جياد ومدافع تجرى على الأرض المرصوفة ، على بعد .. وكانت تطغى على حفيف الاشجار ، وصوت المرأة . وعلى خطوتين منه ، قال شاب فى عرض حديث مع مواطنة انيقة : « هل علمت بالأنباء ؟ .. لقد نقلت دار «الأوبرا» الى (رو لالوا) .. شارع القانون » .

وفى تلك الأثناء ، كان الناس على بينة مما يجرى .. وكانت الهمسات تردد اسم « روبسبير » فى ارتجاف ، لأنه ظل مرهوبا .. وكانت النسوة يخفين الابتسام ، اذ يسمعن

الهمسات عن سقوطه !

وأمسك ايفاريست جاميلان يد أيلودى ، ثم خلاها فجأة ، وفى حدة ، وقال : « وداعا ! .. لقد أشركتك مصيرى الرهيب ، وكدرت عليك حياتك .. وداعا » وليتك تنسينني ! » .

فقالت : « لا تعد الى مسكنك الليلة الليلة ، على أية حال . تعال الى « لامور بانتر » . لا تدق الجرس بل ارمى نافذتى بحصاة ، وسأفتح لك البـاب بنفسى » وأخبئك فى مخزن الأطعمة ، فوق سطح الدار ! »

– اما أن ترينى مظفرا ، والا فلن ترينى بعـد الآن . وداعا !

واذ اقترب من (أوتيل دى فيل) ، سمع ضجيج الأيام الجليلة يصعد الى السماء .. وفى ميدان (جريف) ، كانت قعقعة الأسلحة ، وتألق الأزياء الرسمية والأوشحة ، ومدافع هانريو تتأهب .. وصعد السلم الكبير ، ووقع قائمة الحضور ، وهو يلج قاعة المجلس . كان المجلس العام للكومون » قـد صوت باجماع ٤٩١ عضوا حاضرين ، فى صف المعزولين .

***

ويرسل العمدة فى طلب لائحة حقوق الانسان .. ويقرأ البنـد الذى جاء فيـه : « عندما تنتهك الحكومة حقوق الشعب ، فان الانتقاض عليهـا هو أقدس وألزم الواجبات المحتومة على الشعب » .. **ويعلن قاضى قضاة باريس ، أن الجمعية العامة ترى أن المؤتمر – بالانقلاب الذى أحدثه – يتعارض مع ثورة الشعب .**

ويقسم أعضاء المجلس العام أن يموتوا فى أماكنهم . ويعهد الى اثنين من ضباط الحرس الوطنى بالذهاب الى ميـدان (جريف) ، ودعوة الناس الى الانضمام الى المشرعين ، بغية انقاذ الوطن والحرية .. ويدور البحث وتداول الأنبـاء

والاعراب عن الآراء .. وليس بين هؤلاء المشرعين سوى قليل من الصناع ، فان الجمعية العامة المنعقدة هى تلك التى انتهى اليها التطهير الذى قام به اليعاقبة ، فهى تتألف من قضاة ومحلفى المحكمة الثورية ، ومن فنانين — مثل بوفاليه وجاميلان — ومن ذوى الأملاك والأساتذة العلماء ، ومن « البورجوازيين » الأثرياء ، وتجار الجملة .. رؤوس مزدانة بالبودرة ، وبطون مكرشة تزينها السلاسل الذهبية .. وقلة من النعال الخشبية و «البنطلونات» و «الكرمانيولات» ، والقلنسوات الحمراء .. هؤلاء « البورجوازيون » عديد نفرهم ، معقود عزمهم . ثم انهم — حين يفكر المرء — كل أولئك الذين يمكن أن تعدهم باريس جمهوريين صادقين ، تقريبا .. وكانوا يصمدون فى قصر مجلس المدينة ، وكأنهم على صخرة الحرية ، وسط محيط من عدم المبالاة .

ولا تلبث الأخبار السارة أن تصل .. كل السجون التى ألقى فيها المعزولون تفتح أبوابها وتطلق ضحاياها .. أوجستين روبسبير — الذى وفد الى ديلافورس — أول من يدخل (أوتيل دى فيل) فيقابل بالهتاف .. ويتناهى الى علم القوم — فى الساعة الثامنة — أن مكسميليان فى الطريق الى ((الكومون)) بعد مقاومة طويلة .. وينتظره القوم .. أوشك أن يصل . هاهو ذا يصل .. هتاف جبار يهز جدران قصر البلدية العتيق . ويدخل محمولا على عشرين ذراع .. انه عين الرجل النحيل ، المعنى بأناقته ، فى سترة زرقاء وسروال أصفر .. ويجلس .. ويتكلم .

ويأمر المجلس — عند وصوله — باضاءة واجهة مقر « الكومون » فورا ، ففيه يستقر مقام الجمهورية . ويتكلم (روبسبير) .. يتكلم بصوت رفيع ، وفى بلاغة .. يتكلم بافاضة واسهاب ، فاذا الموجودون هناك ، الذين قامروا

بحياتهم من أجل رأسه ، يلمحون - فى جزع - أن هذا رجل كلام .. رجل لجان ، ومحاكم ، يعجز عن اتخاذ قرار حاسم ، أو الاقدام على عمل ثورى .

ويدعونه الى قاعة المداولات ، فهناك اجتمع العقد :ليبا ، وسان جيست ، وكوثون . ويتحدث روبسبيير . وينصرم نصف الساعة بعد منتصف الليل ، وهو لا يزال يتكلم . وفى تلك الأثناء ، يلصق جاميلان جبينه بزجاج نافذة فى قاعة المجلس ، وينظر بعين قلقة مرتاعة ، فيرى المصابيح تبعث دخانها فى جوف الليل المظلم .. ومدافع هانريو مرصوصة امام دار البلدية . وفى الميدان المعتم جمع حائر ، قلق .. وفى الساعة الثانية عشرة والنصف ، تقبل من ناحية شارع (لافانيرى) مشاعل تحيط بمندوب من المؤتمر اتشح بأوشحة منصبة ، فيفض ورقة ، ويقرأ منها على ضوء اللهب الأحمر، **مرسوم المؤتمر القاضى بأن أعضاء ((الكومون)) المتمردين خارجون على القانون ، وكذلك اعضاء المجلس العام الذين يؤازرونهم ، والمواطنين الذين يستجيبون لندائهم .**

اعتبارهم خارجين على القانون ! .. الاعدام بدون محاكمة !.. لمجرد الفكرة تفيض دماء أشد القوم عزما . ويشعر جاميلان بأن جبينه مثلوج .. ويرى الجموع تغادر ميدان (جريف) بخطى واسعة .

وعندما يدير وجهه ، ترى عيناه أن القاعة التى كانت تضيق بالأعضاء منذ قليل ، أصبحت خاوية تقريبا .. ولكن فرارهم لا يجديهم ، فان توقيعاتهم تشى بهم .

***

الساعة الثانية .. و « المعصوم » فى القاعة المجاورة ، يتجادل مع « الكومون » والمعزولين الحاضرين .. ويغوص جاميلان بنظراته القانطة فى الميدان المظلم ، فيرى - على ضوء

المصابيح ـ القناديل الخشبية ترتطم على ظلة حانوت البدال، محدثة صخبا .. والمصابيح فيها تهتز محاولة الاحتفاظ بتوازنها .. وريح عاتية بدأت تهب .. وان هى الا لحظة حتى ينهمر المطر مدرارا ، فيخلو الميدان تماما ، واذا الذين لم يحملهم المرسوم الرهيب على الفرار ، تشتتهم بضع قطرات من الماء .. وتبقى مدافع هانريو بدون رجال .. وعندما تبدو فى الوقت ذاته ـ على وميض البرق ـ جنود المؤتمر مقبلة من شارع (انتوان) ، ومن رصفة الميناء النهرى ، تخلو مشارف دار « الكومون » تماما .

وأخيرا ، قرر مكسميليان أن يستأنف مرسوم المؤتمر ، أمام دائرة (بيك) ، من محكمة الثورة ..

ويستحضر المجلس العام السيوف ، والمسدسات ، والبنادق .. ولكن قعقعة السلاح ، والخطوات ، وضجة الزجاج المهشم تملأ المبنى . ويجتاح جنود المؤتمر ـ وكأنهم السيل الدافق ـ قاعة المداولات ، وينسابون الى قاعة المجلس .. وتدوى طلقة ، فيرى جاميلان « روبسبير » يهوى وقد تهشم فكه . **وينتضى هو مدينته .. المدية التى ابتاعها بستة ((سو)) ، والتى قطعت الخبز ـ فى يوم من أيام المجاعة ـ لأم كريمة .. والتى احتفظت بها ((ايلودى)) رهينة ـ فى ليلة جميلة ـ فى مزرعة (أورجانى) .. ويشهر نصلها ، ثم يغيبه فى قلبه ، فيصادف النصل أحد الضلوع ، وينطوى على المقبض ، الذى ينزلق ، فيجرح أصبعين .. ويهوى جاميلان مضرجا ، بلا حراك ..** ولكنه يعانى برودة قاسية . وفى غمرة صراع رهيب ، والاقدام تطأه ، يسمع بجلاء صوت ضابط الفرسان الشاب « هنرى » ، وهو يصيح : « هلك الطاغية ، وانكسر اعوانه .. وستمضى الثورة فى طريقها جليلة ، مرهوبة ! »

ويغشى على جاميلان .. وفى الساعة السابعة من الصباح، يضمد جراحه طبيب موفد من المؤتمر .. كانت الطلبات تنهال على المؤتمر بعدم افلات شركاء روبسبيير .. فلم يكن احد راغبا فى ان يفلت واحد منهم من المقصلة . وحمل الفنان الرسام ـ المحلف السابق ، والعضو السابق بالمجلس العام للكومون ـ على محفة الى سجن (الكونسييرجيرى) .

الفصل الثامن والعشرون

• فى العاشر من ثيرميدور ، بينما كان ايفاريست يستيقظ على حصير السجن ، من نعاس محموم ـ وقد استبد به ذعر لم يدر له تفسيرا ـ كانت باريس فى بهائها وسعة رقعتها ، تبتسم للشمس التى بعثت الأمل فى قلوب المسجونين .. والتجار يفتحون حوانيتهم وكلهم نشاط .. و « البورجوازيون » يشعرون بأنهم أكثر ثراء ، والشباب أكثر سعادة ، والنساء أكثر جمالا .. كل ذلك من جراء سقوط « روبسبيير » . ولم يكن يرتجف لرؤية الامبراطورية تنتقل الى الأشرار والمفسودين ، غير حفنة من اليعاقبة : والقسس الدستوريين ، وبعض النسوة العجائز . وذهب وفد من محكمة الثورة ـ مؤلف من المدعى العام واثنين من القضاة ـ الى المؤتمر لتهنئته بالقبض على الدساسين . وقررت الجمعية العامة اعادة اقامة المقصلة فى ميدان الثورة ـ مرة أخرى ـ رغبة فى أن لا يتجشم الأغنياء ، وأهل الاناقة ، والحسان ، عناء فى رؤية اعدام روبسبيير ، الذى حدد له ذلك اليوم بالذات ..

وكان الديكتاتور واعوانه خارجين على القانون ، وكان يكفى أن يثبت اثنان من رجال مجلس المدينة تعرفهما على

شخصياتهم ، كى تسلمهم المحكمة فورا الى الجلاد . بيد ان القوم فوجئوا بمشكلة .. **ذلك أن الاثبات لم يعد ميسورا بالطرق القانونية ، لأن أعضاء مجلس المدينة — عن بكرة أبيهم — كانوا خارجين على القانون . لذلك أباحت الجمعية العامة للمحكمة سلطة اثبات الشخصية بتعرف الشهود العاديين .**

وسيق الثالوث **(٩٥)** الى الموت مع شركائهم الرئيسيين ، وسط صيحات السرور والسخط ، والسباب ، والضحك والرقص .

وفى اليوم التالى ، انتزع ايفاريست من مرقده . وكان قد استرد شيئا من القوة واستطاع ان يقف على قدميه . ونقل الى المحكمة ، فوضع على المنصة التى رآها — اكثر من مرة — مثقلة بالمتهمين ، والتى كان يجلس عليها — صفا بعد صف — كثير من الضحايا ، بين نابهين ونكرات . وكانت — فى ذلك اليوم — تئن تحت ثقل سبعين فردا ، معظمهم من أفراد « الكومون » ، وبعض محلفين مثل « جاميلان » ، وصموا مثله بالخروج على القانون . وشهد المقعد الذى كان يجلس فيه كمحلف ، والملف الذى كان من عادته أن يستند اليه .. والمكان الذى كان يبث منه الذعر فى نفوس المنكودين ! .. المكان الذى تعرض فيه لنظرات « جاك موبيل » ، و « فورتونيه شاسانى » ، و « موريس بروتو » ، وعينى المواطنة روشمور اللتين كانتا تفيضان ضراعة والتماسا ، وهى التى عينته محلفا ، فجازاها بحكم قضى باعدامها .. وعاد يتأمل المنصة التى كان القضاة يجلسون عليها ، فى ثلاثة مقاعد مريحة من « الموجنى » المكسوة بمخمل « أوتريخت » الأحمر ، وتمثالى « شاليه » و « مارا » .. وذلك التمثال

(٩٥) روبسبير ، وسان جيست ، وكوثون .

النصفى لبروتس ، الذى أشهده يوما على قسمه . **لم يتغير شىء ما .. لا البلطات ، ولا الأغلال ولا القلنسوات الورقية الحمراء ، المعلقة على الجدران .. ولا الشتائم التى يلقيها الجمهور فى المحكمـة على أولئك الوشكين على الموت .. ولا روح « فوكييه تينفيل » الدؤوب المجتهد ، وهو ينكب بحماس على أوراقه القاتلة ، مرسلا ــ بحكم نهائى حاسم ــ أصدقاء الأمس الى المقصلة .**

واثبت المواطن « ريماكل » البواب الحائك ، وديبون النجار بميدان (تيونفيل) ــ وعضو لجنة المراقبة بقطاع (بون نيف)ــ تعرفهما على شخصية جاميلان (ايفاريست) الفنان الرسام ، والمحلف السابق بمحكمة الثورة ، والعضو السابق بالمجلس العام للكومون . وقد أدليا بهذه الشهادة فى مقابل ورقـة مالية بمائة « سول » ، من خزانة القطاع .. على انهما ــ لما أوتياه من مشاعر الجوار والصداقة مع المطرود من حماية القانون ــ أبديا خجلا من أن يتعرضا لنظراته . وفيما عدا ذلك ، كان الجو حارا ، والظمأ يحملهمـا على أن يعجـلا بالانصراف ليشربا زجاجة من النبيذ .

وبذل جاميلان جهـدا كى يعتلى عربة الجلاد ، اذ كان قـد فقد قدرا كبيرا من دمه ، وكان جرحه مبعث ألم قاس له . وساط الحوذى فرسه الهزيله ، فانطلق الموكب وسط الصيحات الساخرة .. وتعرفت بعض النسوة على جاميلان، فرحن يصحن : **« اذهب ، يا شارب الدماء ! .. أيها القاتل فى مقابل ثمانية عشر فرنكا فى اليوم ! .. انه لم يعد يضحك . انظروا مدى شحوبه ! ياله من جبان ! »** .. كن نفس النسوة اللاتى اعتدن ــ من قبل ــ أن ينهلن بالاهانات على المتآمرين والارستقراطيين ؛ وعلى المتطرفين والمتساهلين الذين أرسلهم جاميلان وزملاؤه الى المقصلة .

وعرجت المركبة الى ضفة (مورفوندو) ، وسعت ببطء الى (بون نيف) ، فشارع (لامونيه) ، ميممة صوب ميدان الثورة ، حيث كانت مقصلة « روبسبيير » . وراح الجواد يتلكأ ويتعثر ، فأخذ الحوذى يهيب به ويسوط أذنيه لحظة بعد أخرى .. والحشود الفرحة المنفعلة تعرقل سير الموكب، والناس يهنئون الجنود الذين كانوا يشدون أعنة خيلهم . وتضاعف السباب عند ناصية شارع (أونوريه) . فان الشبان الذين كانوا يجلسون فى مطاعم الشواء الحديثة الطراز ، تقدموا الى النوافذ ، وراحوا يصيحون وأيديهم تلوح بالمناشف : « يا أكلة لحوم البشر ! يا متوحشين ! .. يا مصاصى الدماء ! »

واذ ارتطمت المركبة بكومة من الفضلات المنتنة ، لم ترفع من مكانها خلال اليومين الحافلين بالقلاقل ، ضجت الشبيبة النضرة بالضحك ، والهتاف : « لقد غاصت العربة فى الأوساخ ! .. الى القمامة أيها اليعاقبة ! »

وخيل الى جاميلان أنه قد بدأ يفهم الحقيقة ، فقال فى نفسه : « اننى أموت جزاء وفاقا ، فمن الحق أن نتلقى هذه الاهانات الموجهة الى الجمهورية ، اذ كان لزاما علينا أن نقيها اياها . لقد كنا ضعفاء ، وقد بتنا مذنبين بفضل تساهلنا . لقد خنا الجمهورية ، فنحن أهل لمصيرنا هذا .. حتى روبسبيير – الطاهر ، القديس – قد أصيب بهذا اللين وبهذه الطراوة ، وقد محا استشهاده أخطاءه .. واقتداء به ، خنت أنا الآخر الجمهورية ، فهى تهلك .. ومن الانصاف أن أموت معها . لقد ضننت بالدم ، فليسل دمى !.. لأهلك ، فأنا أهل لذلك ! »

وفيما كان يفكر على هذا النحو ، لمح لافتة «لامور بانتر» ، فتدافعت الى قلبه تيارات من المرارة والعذوبة .. وكان

المتجر مغلقا ، والستائر مسدلة على النـوافذ الثلاث التى تعلوه .. واذ مرت المركبة أمامه،امتدت من النافذة اليسرى — نافـذة الغرفـة الزرقاء — يد انثوية تحمل خاتما فضيا ، فأزاحت طرف الستار ، ورمت نحو جاميلان قرنفلة حمراء ، لم تملك يداه المغلولتان أن تمسكاها ، ولكنه مجدها كرمز وصورة لهاتين الشفتين الحمراوين المعطرتين ، اللتين كانتا ترطبان فمه . واغرورقت عيناه بالدموع ، واهتز كيانه لهذا الوداع العذب ، الذى رافقه الى ميدان الثورة ، حيث كان النصل المضرج بالدماء !

الفصل التاسع والعشرون

• رزح (السين) تحت ثلوج شهر نيفوز (٩٦) ، وتجمدت المياه فى أحواض حدائق (التويلرى) ، والجداول، والنافورات. وأخذت ريح الشمال تثير فى الطرق أمواجا من البرد والصقيع، والخيل تنفث من خياشيمها بخارا أبيض ، وأهل المدينـة يرمقون — أثناء سيرهم — مقاييس الحـرارة على أبواب صانعى العدسات والنظارات . وكان ثمة عامل يمسح الضباب عن زجاج « لامور بانتر » ، فأقبل الفضوليون يلقون نظرة على الصور المرسومة بالأسلوب الحديث : روبسبيير يعصر قلبا — فى كأس — كمـا يعصر الليمون ، ليشرب الدم .. واشكال حيوانات ضخمـة رهيبـة ، ترمـز الى وحشية روبسبير .. أخطبوطات ، وأفاعى ، وغيلان مخيفة ، أطلقها الطاغية على فرنسا .. كذلك شوهدت لوحات « مؤامرة روبسبير البشعة » ، و « القبض على روبسبير » و « موت روبسبير » ..

---

(٩٦) نيفوز : الشهر الرابع من التقويم الثورى : من ٢١ ديسمبر الى ١٩ يناير .

وبعد غداء ذلك اليوم ، دخل « فيليب ديماهى » المتجر واضبارته تحت ابطه ، واطلع المواطن « جان بليز » على لوحة خشبية كان قد أتم حفرها ، عن « انتحار روبسبير » . وكان الحفار الفنى قد صور روبسبير فى ابشع شكل أمكنه. ولم يكن الشعب الفرنسى قد سأم بعد هذه التحف التى تذكر بشاعة وهول هذا الرجل الذى القيت عليه مسئولية كافة ذنوب الثورة وجرائمها . ومع ذلك ، فان تاجر الصور الذى كان عليما بالجمهور ـ أنبأ « ديماهى » بأنه قد اتجه الى تصوير الموضوعات العسكرية ، وقال : « لا بد لنا من انتصارات ، وغزوات ، وسيوف ، ورماح ، وقادة .. اننا نسعى الى المجد . وانى لأشعر بهذا فى أعماقى .. **قلبى يخفق عند تلقى مغامرات جيوشنا الباسلة . وعندما يخامرنى احساس ، فمن النادر أن لا يخامر سائر الناس ، فى الوقت ذاته !** .. ان ما يلزمنا هى صور المحاربين والنساء .. مارس وفينوس ! »

ـ لا تزال عندى ، أيها المواطن بليز ، صورتان أو ثلاث من رسم جاميلان ، كان قد أعطانيها لحفرها . فهل تتعجلها ؟

ـ البتة .

ـ بمناسبة جاميلان : عند مرورى بشارع (تامبل) بالأمس ، رأيت لدى أحد باعة الأثاث المستعمل ـ فى حانوت أمام دار بومارشيه ـ كافة لوحات ذلك التعس . وكانت بينها لوحته عن « أوريست واليكترا » . وأؤكد لك أن رأس « أوريست » ـ الشبيه برأس جاميلان ـ جميل حقا .. الرأس والذراعان ممتازة .. وقال لى تاجر الأمتعة انه لايتورع عن بيع هذه اللوحات لفنانين ليرسموا على ظهورها.. **مسكين جاميلان ! كان خليقا بأن يكون نابغة من الدرجة الأولى ، لو لم يتجه الى السياسة .**

فأجاب المواطن بليز : « لقد كانت له نفس مجرم . ولقد اكتشفت حقيقته فى هذا المكان بالذات ، عندما كانت غرائزه الدموية كامنة . وما صفح عنى قط .. آه ! لكم كان وغدا ! »

ـ بل كان مسكينا غريرا ، ومخلصا . ولكن المتطرفين هم الذين ساقوه الى الهلاك !

ـ ما أحسبك تدافع عنه يا ديماهى ! .. انه ليس ممن يجوز الدفاع عنهم .

ـ كلا .. ليس ممن يجوز الدفاع عنهم ، ايها المواطن بليز .

ودق المواطن بليز كتف « ديماهى » الجميل ، وقال : « لقد تغير الزمن ، ومن الجائز الآن مناداتك باسم « بربارو » (٩٧) ، بعد أن أصبح المؤتمر يرد الاعتبار أن اسقطوا عن مكانتهم .. ما رأيك يا ديماهى ؟ .. احضر لى لوحة لشارلوت كورداى ! »

***

ودخلت المتجر امراة فخمة ، جميلة ، سمراء ، متدثرة بالفراء ، فأومأت الى المواطن بليز بتحية مقتضبة ، فى غير كلفة ولا استحياء .. تلك كانت « جولى جاميلان » . ولكنها لم تعد تحمل هذا الاسم المشين ، وانما اتخذت اسم « المواطنة ارملة شاسانى » ، وارتدت تحت معطفها ثوبا احمر ، تكريما للأقمصة الحمراء (٩٨) .

وكانت جولى قد شعرت ـ فى بادىء الأمر ـ بنفور من عشيقة ايفاريست ، فكان كل ما يمت لأخيها بغيضا لديها .

---

(٩٧) شارل ـ جان ـ مارى برباد ، كان من زعماء الجيرونديين ، واعدم عند قيام حكم الارهاب ، سنة ١٧٩٤ .

(٩٨) كان المحكوم عليهم بالاعدام فى عهد الارهاب ، يساقون الى المقصلة فى اقمصة حمراء .

ولكن المواطنة بليز أوت ــ بعد موت ايفاريست ــ امه المنكوبة، فى « تخشيبة » فوق سطح الدار . وقد لاذت « جولى » بهذا المسكن كذلك ، ثم وجدت عملا فى دار للأزياء بشارع (لومبارد) .. اذ كان شعرها القصير ــ على نمط الضحية (٩٩) ــ ومظهرها الارستقراطى ، وحدادها عوامل اجتذبت اليها عواطف الشباب الراقى . **وتقرب اليها جان بليز ــ الذى كانت روز تيفينان قد هجرته تقريبا ــ فقبلته ..** وكانت « جولى » مبقية على حبها لثياب الرجال ؛ كما كان شأنها فى الأيام الأليمة ، فاصطنعت لنفسها حلة بديعة . وكثيرا ما كانت تخرج ــ وفى يدها عصا قصيرة غليظة ــ لتتناول عشاءها فى بعض ملاهى (سيفر) أو (مودون) ، مع احدى عارضات الأزياء . **ولم يكن لحزنها على الشاب المسكين ــ الذى حملت اسمه ــ أى عزاء ، ولكنها وجدت شيئا من التسلية فى اطلاق العنان لحقدها . فما أن كانت تلمح اليعاقبة ، حتى تستعدى عليهم المارة ، وهى تصيح محرضة على قتلهم ،** ولم يبق لهـا من الوقت ما تمنحه لأمها ، التى كانت تعتكف وحيدة ، تقرأ الصلوات والتسابيح طيلة النهار ، وقد هدتها النهاية الأليمة التى لقيها ابنها ، حتى أن الصدمة قتلت فيها كل شعور واحساس .

وكانت « روز » قد غدت الرفيقة الملازمة لأيلودى ، التى اعتادت ان تكون على وفاق مع من يتخذهن أبوها من عشيقات .

***

وتساءلت المواطنة شاسانى : « أين أيلودى ؟ » . فأومأ جان بليز معربا عن جهله بمكانها . فمـا كان يعرف مكان ابنته قط ، وكان هذا مسلكا ارتضاه لنفسه . وكانت جولى قد جاءت لتصطحبها لزيارة تيفينان فى (مونسو) ، حيث

(٩٩) « مودة » انتشرت تكريما لمن قضين نحبهن على المقصلة .

قطنت الممثلة بيتا صغيرا تحف به حديقة على الطراز الانجليزى. اذ كانت قد تعرفت ــ فى سجن (الكونسييرجرى) ــ الى احد الموردين للجيش ، يدعى المواطن (مونفور) . وما ان استبقته الى مغادرة السجن ــ بفضل مساعى جان بليز ــ حتى حصلت على عفو عن المواطن مونفور ، فعاد ــ بمجرد اطلاق سراحه ــ يمد القوات العسكرية بالأطعمة . وأخذ يضارب على أراضى حى (ببينيير) ، فاشتراها بالبخس ، وعهد الى المهندسين ليدو ، وأوليفييه ، وويلى ، فشيدوا عليها بيوتا جميلة ، وبذلك ارتفعت قيمة الأرض الى ثلاثة أمثالها ، فى ثلاثة أشهر .

ومنذ سجنه فى (اللوكسمبورج) ، أصبح مونفور عشيقا لتيفينان ، فمنحها بيتا صغيرا أنيقا على مقربة من (تيفولى) وشارع (دوروشيه) ، كان يساوى الكثير ، ولكنه لم يكلفه شيئا ، اذ أن بيع قطع الأرض المجاورة ، عوضه عن نفقاته عدة مرات . وكان جان بليز كيسا ، يرى أن من الواجب احتمال مالا دفع له ، فترك تيفينان لمونفور ، دون ما خصام معهما .

وبعد قليل من وصول جولى الى « لامور بانتر » ، هبطت ايلودى فى أقصى تبرج . وبالرغم من زمهرير الفصل ، فقد ارتدت تحت معطفها ثوبا أبيض كشف عن معظم جسمها . وكان وجهها شاحبا ، وقوامها قد نحل وهزل ، ونظراتها قد استكانت ، ولكن كل كيانها كان ينضح بالغواية .

وذهبت المرأتان الى تيفينان ، اذ كانت فى انتظارهما . وصحبهما « ديماهى » ، فقد كانت الممثلة تستشيره فى زخرفة بيتها الجديد . وكان هو متيما بحب ايلودى ، التى كانت ــ فى تلك الأثناء ــ قد أوشكت أن تقرر أن لا تطيل من عذابه . واذ مرت المرأتان بالقرب من (مونسو) ، حيث

دفنت جثث قتلى ميدان الثورة ، تحت طبقـة من الكلس (الجير) .

وقالت جولى : « لا بأس بهذا فى الجو البارد . أما فى الربيع ، فان عبير هذه الأرض كفيل بأن يسمم نصف المدينة » .

واستقبلت تيفينان صديفتيها فى « صالون » مؤثث على الطراز القديم ، وقد نقش «دافيد» أرائكه ومقاعده برسومه . واكتست الجدران برسـوم رومانية بارزة ، فوق تماثيل طويلة ، وتماثيل نصفية ، وثريات مطلية بالبرونز . وكانت تلبس شعرا أشقر مستعارا — بلون التبن — وقد نسق بشكل خصل ملتوية .. فان الشعر المستعار بات « المودة » فى تلك الفترة ، فكان « جهاز » العروس يضم ست قلنسوات أو اثنتى عشرة أو ثمانى عشرة منه ! .. وكانت تيفينان فى ثوب من الطراز القبرصى ، التف حول قوامها باحكام .

وبعد ان ألقت على كتفيها معطفا ، قادت صديقتيها والحمار الى الحديقة التى وضع « ليدو » تصميمهـا ، والتى لم تكن بعد سوى أشجار عارية غير منسقة واحجار .. وأطلعتهم على كهف حفره « فينجال » ، وكنيسة قوطية صغيرة لها ناقوس وهيكل ، وشلال مائى صـناعى .. وقالت وهى تشير الى مجموعة من شجر الصنوبر : « **أريد أن أقيم هنـاك نصبا ، تخليدا لذكرى ذلك المنكود بروتو ديزيليت ، فما كان بالمنسى لدى .. كان لطيفا ، وقد ذبحه الوحوش ، فبكيته . عليك أن ترسم لى — يا ديماهى — جرة فوق عامود** » . ثم اضـافت لفورها : « أمر مكدر .. لقد رغبت فى اقامة حفـل راقص فى هذا الاسبوع ، ولكن جميع عازفى الكمان مرتبطون بمواعيد لثلاثة أسابيع مقدما .. فالرقص يدور كل ليلة لدى المواطنة تاليان » .

وبعد العشاء ، أقلت مركبة تيفينان الصديقات الثلاث و « ديماهى » الى مسرح « فيدو » . كان كل ما فى باريس من أناقة ولطف هناك .. النساء ، وقد نسقت شعورهن على الطراز « العتيق » ، أو طراز « الضحية » ، وارتدين ثيابا تكشف عن معظم أجسامهن ، من أقمشة أرجوانية أو بيضاء موشاة بالذهب .. والرجال فى ثياب سوداء ذات ياقات عالية جدا ، وقد غاصت ذقونهم فى ربطات عنق عريضة بيضاء .

وكان البرنامج يتألف من « فيدر » ، و « الكلب والبستانى » . وطلب الحضور جميعا النشيد الذى كان حبيبا الى النساء والشباب الطروب : « يقظة الشعب » .. فرفعت الستار ، وظهر على المسرح رجل قصير ، سمين .. ذلك كان المغنى الشهير « لاى » ، الذى غنى بصوته العذب :

« أيها الشعب الفرنسى ، يا شعب الاخوة !.. »

ودوى فى القاعة تصفيق حاد ، اهتزت له الزوائد البلورية للثريات ، فأخذت ترسل رنينا ناعما .. وسرت ـ بعد ذلك ـ غمغمات ، ثم ارتفع صوت مواطن ذى قبعة مستديرة ـ كان يجلس فى القاعة ـ مرددا نشيد « المارسيلييز » : **« هيا ياأبناء الوطن .. »** ، فطغت على الصوت صيحات مستهجنة ، ودوت هتافات : « ليسقط الارهابيون !.. الموت لليعاقبة ! » .. وعاد « لاى » ليغنى ـ للمرة الثانية ، نشيد الثيرميدوريين (١٠٠) :

« أيها الشعب الفرنسى ، يا شعب الاخوة ! .. » .

وكان التمثال النصفى لمارا ، يشاهد ـ فى كل قاعات المسارح ـ على أعمدة ، وقواعد خاصة . أما فى مسرح « فيدو » ، فكان موضوعا على قاعدة قصيرة ، الى جوار المسرح ، أمام الأطار المبنى حول المنصة . فما ان عزفت الفرقة الموسيقية اللحن الافتتاحى لأوبريت « فيدر وايبوليت » حتى

(١٠٠) انصار انقلاب شهر « ثيرميدور » الذى اطاح بالارهاب .

أشار شاب من المتأنقين الملكيين الى تمثال «مارا» على قاعدته، هاتفا : « ليسقط مارا ! » .. فردد الحاضرون عن بكرة أبيهم : « ليسقط مارا !.. ليسقط مارا ! » .. وارتفعت على الصخب أصوات تقول بلباقة : « من المخجل ان يظل هذا التمثال قائما ! »

ــ ان فضائح مارا تطغى على كل شيء ، ولا تشرفنا !.. ان عدد تماثيله يضارع عدد الرؤوس التى أراد أن يحصدها !

ــ كان ضفدعا ساما !.. نمرا !.. افعوانا أسود !

وفجأة ، نهض شخص أنيق من النظارة ، فتسلق حافة مقصورته ، ودفع التمثال فقلبه ، وأسقطه على الموسيقيين فى ضجيج ، بين تصفيق الحضور ، الذين وقفوا على أقدامهم يرددون نشيد « يقظة الشعب » : « أيها الشعب الفرنسى ، يا شعب الاخوة !.. » . وبين أصوات أشد المنشدين تحمسا، عرفت ايلودى صوت الفارس الجميل ، الذى كان يوما كاتب محام .. هنرى ، حبيبها الاول !

***

وبعد العرض ، استدعى « ديماهى » الجميل مركبة مغلقة ، ليقل المواطنة بليز الى « لامور بانتر » . وفى المركبة ، أمسك الفنان يد ايلودى بين راحتيه ، وقال : « اتدركين يا ايلودى اننى أحبك ؟ »

ــ أصدقك ، لأنك تحب كافة النساء !

ــ انما أحبهن فيك !

فابتسمت قائلة : **« اننى أحمل نفسى عبءا ثقيلا ، اذا كان مقدرا لى أن أمثل لك كافة النساء ، بالرغم من قلنسوات الشعور المستعارة ، من سوداء ، وصفراء ، وحمراء ! »**

ــ ايلودى !.. اقسم لك ..

ــ ماذا ؟ .. أمواثيق وعهود يا مواطن ديماهى ؟.. أتراك

مفرط السذاجة ، ام لعلك تظننى على قدر كبير منها ؟

ولم يحر ديماهى جوابا ، فاغتبطت لانتصارها عليه ، اذ افحمته . وعند ناصية شارع « لالوا » ، سمعا أناشيد وهتافات .. ورأيا أشباحا تتحرك حول اتون . تلك كانت ثلة من الشباب المرح ، حرقوا تمثالا لصديق الشعب «مارا» ، عند انصرافهم من مسرح « فرانسيه » .

وفى شارع (اونوريه) ارتطمت قبعة الحوذى بصورة شوهاء لمارا ، معلقة فى مصباح . وطرب الحوذى لهذه المناسبة ، فالتفت الى الراكبين « البورجوازيين » ، وروى لهما كيف **أن بائع الكروش والامعاء - بشارع (مونتورجوى) - أراق الدم فى الليلة السالفة ، على رأس تمثال لمارا ، قائلا : ((هذا ما كان يجب !)) .. وكيف أن الصبية - الذين لم تتجاوز أعمارهم العاشرة - قد ألقوا بالتمثال فى ((البالوعة)) ، فاذا الواطنون يصيحون : ((ها هوذا بانثيونه !)) (١٠١)**

وفى تلك الاثناء ، كانت الاصوات تنبعث من كافة المطاعم والمشارب مرددة : « أيها الشعب الفرنسى .. يا شعب الاخوة ! »

***

وعند « لامور بانتر » ، قالت ايلودى وهى تقفز من المركبة : « وداعا ! » . ولكن ديماهى راح يتوسل اليها فى لهجة ناعمة ، ويلحف فى لطف بالغ ، حتى انها لم تجد من نفسها جراة على ان تتركه لدى الباب . فقالت : « ان الوقت متأخر ، ولن تمكث سوى لحظة ! »

وفى الغرفة الزرقاء ، خلعت معطفها ، فبدت فى ثوبها الابيض القديم الطراز ، الذى كان يكشف عن كثير من جسمها .. وقالت : « لعلك تشعر بالبرد . سأشعل لك المدفأة ، فهى

(١٠١) البانثيون : مقبرة العظماء الذين يريد الشعب تكريمهم ،

مهياة ! » . وحكت القـــداحة ، ومدت الى المدفأة فتيلا مشتعلا .

وتناولها فيليب بين ذراعيه بتلك الليونة التى تكشف عن قوة ، فقاومت بلطف غريب . واذ راحت تتثنى تحت قبلاته تملصت منه قائلة : « دعنى ! » .. وحلت خصلات شعرها أمام مرآة المدفأة .. ثم لمحت – فى أسى – خاتما فى يدها اليسرى .. خاتما صغيرا من الفضة ، عليه صورة « ماريا » وقد أوشكت أن تنمحى ، ولم تعد واضحة . وظلت ترقبه حتى حجبته عنها الدموع المتدافعة من عينيها ، ثم خلعته برفق ، ورمته فى النار .

وكان الليل قد اكتهل ، عندما فتحت المواطنة بليز لحبيبها باب المسكن ، وقالت له بصوت خافت ، فى الظلام : « مع السلامة يا غرامى !.. هذا موعد عودة أبى ، فاذا سمعت ضجة على السلم ، فاصعد بسرعة الى الطابق الأعلى ، ولا تهبط الا عندما لا يعود هناك خطر من ان يراك . ولكى تفتح الباب المفضى الى الطريق ، اطرق نافذة حارسة الباب ثلاث مرات . وداعا يا حياتى .. وداعا يا روحى ! »

وكانت الجمرات الاخيرة تحترق فى المدفأة .. وأسلمت ايلودى راسها للوسادة ، سعيدة ، وسنانة !

تمت

بلاج المعمورة

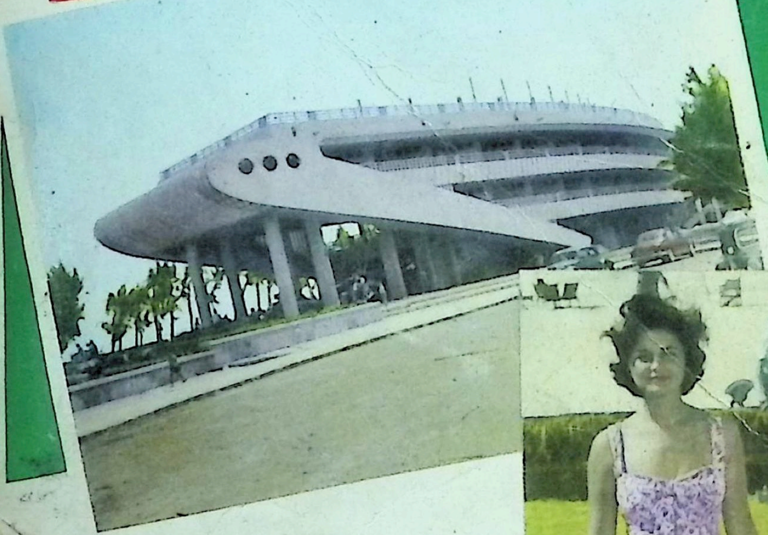

- كبائن وشاليهات معلقة تحوطها المياه الزرقاء والخضرة اليانعة ، لمن يريد الاستئجار ..
- قطع أراضي من تقسيم المعمورة للبيع على أقساط طويلة الأجل ، لمن يريد إقامة ڤيلات أنيقة أو مبان استغلالية عليها ..
- وقد أعدت جميع المرافق من طرق وشبكات الكهرباء والمياه النقية والمياه العكرة لري الحدائق

فأسرعوا للتمتع بعروس البحر

المؤسسة المصرية للتعمير والإنشاءات السياحية "المعمورة"

اسكندرية : ٢٧ طريق الجيش بالشاطبي
تليفون ٦٢٥١٥ / المعمورة ت ٦٢٨٤٠

القاهرة : ٧ شارع الشوازلى
تليفون ٤١٣٥٠